هاروكي موراكامي

جنوب الحدود غرب الشمس

ترجمة: صلاح صلاح



المركز الثقافي العربي

هاروكي موراكامي

جنوب الحدود، غرب الشمس

هاروكي موراكامي

جنوب الحدود، غرب الشمس

ترجمة

صلاح صلاح

الكتاب

جنوب الحدود، غرب الشمس

تأليف

هـاروكي موراكامي

ترجمة

صلاح صلاح

الطبعة

الأولى – 2007

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-163-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

1

يصادف عيد ميلادي 4 يناير/كانون الثاني، 1951 الأسبوع الأول من الشهر الأول من السنة الأولى من منتصف القرن العشرين. شيء للذكرى، أظن أن هذا سبب تسمية والديَّ لي «هاجيمي» أي البداية باليابانية. غير ذلك، كانت ولادة طبيعية مئة بالمئة. كان والدي يعمل في محل سمسار بورصة ضخم، وأمي ربة بيت عادية. أثناء الحرب جند والدي الذي كان تلميذاً وأرسل ليحارب في سنغافورة. بعد الاستسلام قضى بعض الوقت في مخيم أسرى الحرب. حُرق بيت والدتي في غارة جوية لطائرات ب- 29 سنة 1945. لقد عانى جيل والديَّ كثيراً من الحرب الطويلة.

مع ذلك، عندما ولدت ما كنت لتعرف قط أن حرباً حدثت هناك. لا أثر لدمار حريق، ولا وجود لجيش احتلال. كنا نقطن في بلدة صغيرة هادئة، في بيت وفرته شركة والدي لنا. كان من بيوت فترة ما قبل الحرب، قديماً نوعاً ما لكنه واسع، في حديقته أشجار صنوبر وكانت عندنا حتى بركة ماء صغيرة وبعض منارات الفوانيس الحجرية الصغيرة.

كانت البلدة التي نعيش فيها ضاحية طبقة وسطى نموذجية، وأصدقائي في المدرسة يعيشون في بيوت أرضية

صغيرة، لعل بعضها أكبر من شقتنا قليلاً، لكن مداخلها كلها متشابهة وفي حدائقها أشجار صنوبر. الأعمال. كان أصدقاء والدي موظفين في شركات أو محترفين في مهنة معينة. ومن الصعب أن تجد من يعمل كأمي. وجلهم تقريباً يملك قطة أو كلباً. لم أعرف أحداً يعيش في شقة أو في مبنى مؤلف من عدة وحدات سكنية. انتقلت لاحقاً إلى جزء آخر من البلدة، لكنه كان كسابقه إلى حد كبير. خلاصة القول إنني كنت حتى انتقالي إلى طوكيو للالتحاق بالجامعة، مقتنعاً أن كل الناس في العالم يقطنون في بيت عائلي مستقل بحديقة وحيوان أليف وينتقلون إلى ومن العمل وهم يرتدون بذلة (طقم). لم أكن لأتخيل طريقة عيش مختلفة.

كانت العائلة العادية في العالم الذي عشت فيه تملك طفلين أو ثلاثة. كان أصدقاء طفولتي كلهم أفراد من مثل هذه العائلات المتماثلة. إذا لم يكن في العائلة طفلين ففيها ثلاثة، وإذا لم يكن فيها ثلاثة فهناك اثنان. عائلات بستة أو سبعة أطفال كانت قليلة، لكن ما هو غير عادي كانت العائلات بطفل واحد فقط.

حدث وأن كنت واحداً من هذه العائلات غير العادية، حيث إنني كنت طفلاً وحيداً في العائلة. كنت أعاني من عقدة نقص جراء ذلك، كما لو أن بي شيئاً مختلفاً، إذ إنني أفتقر لما يملكه جميع الناس الآخرين.

كرهت مصطلح «طفل وحيد». شعرت كلما سمعته أنني أفتقد شيئاً- كما لو أني لست إنساناً كاملاً. كان مصطلح «طفل

واحد» يشير لي بإصبع اتهام ويقول لي: «ثمة شيء ينقصك، يا صديق».

في العالم الذي كنت أعيش فيه، كان من المعروف أن الأطفال الوحيدين مدلّعون من قبل والديهم، ضعفاء وأنانيون. كان ذلك بديهياً - مثل حقيقة أن ميزان الضغط الجوي ينخفض كلما صعدت إلى أعلى وحقيقة أن البقر ينتج الحليب. يفسر هذا غضبي من سؤال أحدهم لي كم أخ وأخت لديك. دعهم يسمعون أنني لا أملك أحداً، وأراهن أنهم يفكرون بشكل غريزي: طفل وحيد؟ مدلّع وضعيف وأناني. مثل رد الفعل المنبعث من ضربة خفيفة على الوتر العضلي تحت الركبة. شيء يبعث على الكآبة، وإن كان ما يحبطني ويؤلمني أكثر من أي شيء آخر: حقيقة أن كل ما يفكرون فيه بي كان صحيحاً.

في سن السادسة ذهبت للمدرسة الابتدائية، حيث كانت هناك طفلة أخرى وحيدة فقط. لذا أذكرها (نعم كانت بنتاً). كان عليَّ أن أتعرف عليها جيداً، فرحنا نتكلم عن أمور شتى. فهمنا بعضنا بعضاً، ويمكن القول إنني أحببتها أيضاً.

كان اسم عائلتها شيماموتو. أصيبت بعد مولدها بوقت قصير بشلل الأطفال، ما جعلها تجر ساقها اليسرى خلفها. علاوة على كل ذلك، انتقلت إلى مدرستنا في نهاية الفصل الخامس. مقارنة بي، كانت تتحمل عبئاً نفسياً فظيعاً وتكافح ضده. غير أن هذا العبء جعلها رابطة الجأش وأصلب عوداً بشكل يفوق ما تخيلت لطفلة وحيدة. لم تنتحب قط ولم تتذمر، ولم تظهر بتاتاً ما يشير إلى غضب لا ريب أنها شعرت به

أحياناً. كانت تبتسم مهما حدث. في الواقع، كلما ساءت الأمور كلما أصبحت ابتسامتها أعرض. أحببت ابتسامتها، كانت تريحني وتشجعني. سيكون كل شيء على ما يرام، تخبرني ابتسامتها. ابق هنا وكل شيء سيكون أفضل. بعد سنوات، وكلما فكرت بها، كانت ابتسامتها أول ما يتبادر إلى ذهني.

كانت شيماموتو لطيفة مع الجميع. الناس يحترمونها. في هذا كنا مختلفين، مع أننا طفلان وحيدان في عائلتينا. لا يعني هذا أن كل من في الفصل قد أحبها. لم يزعجها ولم يهزأ منها أحد، لكن باستثنائي لم يكن لديها صديق حقيقي آخر .

لعلها كانت هادئة رابطة الجأش. ربما حَسِبَ بعض طلبة فصلنا أنها باردة ومتغطرسة. لكنني اكتشفت شيئاً آخر - شيئاً دافئاً وهشاً تحت السطح مباشرة، شيئاً مثل طفل يلعب الغمضية، خفياً في أعماقها، وإن كان يتمنى أن يعثر عليه أحد.

التحقت شيماموتو بعدة مدارس، لأن والدها كان كثير التنقل في عمله. لا أذكر عمل والدها. شرحت لي مرة عمله بالتفصيل، لكن كما يحدث مع معظم الأطفال، دخل كلامها من أذن وخرج من الأخرى. يبدو أني أذكر أنها وظيفة احترافية في بنك أو مكتب ضرائب أو شيء من هذا القبيل. كانت تعيش في سكن الشركة، لكنه كان سكناً أوسع من البيت العادي، بيت على الطراز الغربي ويحيط به جدار حجري منخفض وقوي. على الجدار حاجز شجيرات دائم الخضرة يمكنك أن

تلمح عبر فجواته حديقة خضراء.

كانت شيماموتو فتاة ضخمة، بطولي تقريباً، وملامحها مدهشة. كنت متأكداً أنها ستصبح فائقة الجمال بعد بضع سنوات، لكن حين قابلتها لم تكن قد طورت هيئة خارجية تتماشى مع صفاتها الداخلية. كانت بها سمة من عدم التوازن، ولم يعتقد كثيرون أنها جميلة بشكل يدعو إلى النظر إليها. كان فيها جانب بالغ وآخر طفولي - ولم يكونا متوافقين، ما لم يبعث الراحة في نفوس الآخرين.

ربما لأن بيتينا كانا متقاربين، رمية حجر بالضبط، طُلِبَ مني الجلوس في المقعد المحاذي لها منذ الشهر الأول لالتحاقها بمدرستنا. أخبرتها أي كتب تحتاج، وما الامتحانات الأسبوعية وكم قطعنا في كل كتاب وكيف يتم التنظيف وتقديم الغداء. كانت سياسة مدرستنا تقوم على أن الطالب الأقرب للطالب أو الطالبة الجديدة عليه مساعدته أو مساعدتها. أخذني المدرس جانباً ليخبرني أنه يتوقع مني أن أولي شيماموتو عناية خاصة بسبب عرجها.

كما كل الأطفال في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة، فإن الحديث مع الجنس الآخر أول مرة يكون متوتراً لبضعة أيام. عندما عرفنا أننا طفلين وحيدين، شعرنا بالراحة.

كانت المرة الأولى التي يقابل فيها أحدنا طفلاً وحيداً في عائلة. لقد كان كلانا قد كتم كثيراً في صدره كونه طفلاً وحيداً. كثيراً ما كنا نعود من المدرسة معاً، نسير ببطء بسبب

ساقها ونحن نتحدث عن أمور شتى. وكلما تكلمنا أكثر كلما اكتشفنا كثرة ما يجمعنا: حبنا للكتب والموسيقى، دون أن نغفل القطط. كما كنا نجد صعوبة في التعبير عن مشاعرنا للآخرين. كانت هناك قائمة طويلة من الطعام لا نود تناولها. حين يأتي الحديث عن دروس المدرسة، لم نجد صعوبة في التركيز على ما نحب من الدروس، وكره ما لا نحبه كره الموت. لكن هناك اختلاف جوهري بيننا- أحاطت شيماموتو نفسها عن وعي بصدفة واقية أكثر مني. على عكسي، بذلت بدورها جهداً لدراسة المواضيع التي تكرهها، لذا حصلت على علامات جيدة. حين كانت الوجبة المدرسية تحتوي على طعام لا تحبه، كانت مع ذلك تأكله. بعبارة أخرى، شيدت جدار دفاع حول نفسها أعلى من الذي شيدّتُهُ بكثير. مع ذلك، ما بقي خلف هذا الجدار كان مثل الذي خلف وراء جداري تماماً.

على نقيض الأوقات التي كنت أقضيها مع الفتيات الأخريات، كان بإمكاني الشعور بالراحة مع شيماموتو. أحببت السير معها من المدرسة إلى البيت. كانت تعرج قليلاً أثناء سيرها، لذا كنا نستريح أحياناً على مقعد في منتصف الطريق، لكن ذلك لم يزعجني، بل على العكس، كان يسرني لكسبي مزيداً من الوقت معها.

سرعان ما أصبحنا نقضي وقتاً أطول معاً، لكنني لا أذكر أن أحداً ضايقنا بسبب ذلك. لم يدهشني ذلك آنذاك وإن يبدو الآن غريباً. على كلٍ، من الطبيعي أن يهزأ الأطفال في ذلك

العمر من اثنين قريبين من بعضهما البعض. لعل ذلك يعود إلى ما كانت عليه شيماموتو. كان فيها ما يصيب الآخرين بالتوتر، شيء يجعل الناس تفكر: أواه - من الأفضل عدم التفوه بأي شيء أحمق أمام هذه الفتاة. حتى المدرسون كانوا يشعرون بالتوتر خين يتعاملون معها. ربما لعرجها علاقة بالأمر. على كلٍ، معظم الناس حسبوا أن شيماموتو لم تكن من تلك النوعية التي يتعرض لها المرء بالمضايقة، وهو أمر يلائمني جداً.

كانت تجلس جانباً في درس الرياضة البدنية، وعندما يذهب الصفّ للسير مسافات طويلة أو لتسلق جبل، كانت تبقى في البيت. الشيء عينه ينطبق على مخيم السباحة الصيفي. في يوم الرياضة السنوي كانت تبدو منحرفة المزاج قليلاً. غير ذلك، كانت حياتها المدرسية عادية، ونادراً ما ذكرت ساقها. إذا أسعفتني الذاكرة، ولا حتى مرة واحدة. كانت تتاخر قليلاً عندماً نخرج لنسير من المدرسة معاً، لم تعتذر مرة لتأخيرها لي أو تدع هذا التفكير يمس تعبير وجهها. مع ذلك عرفت أنها امتنعت عن ذكر ذلك بالضبط لأن ساقها تزعجها. لم تحب الذهاب إلى بيوت الأطفال الآخرين كثيراً، لأن عليها خلع حذائها وفق العادة اليابانية. كان كعبا فردتي حذائها مختلفتي الارتفاع، والحذاء نفسه مختلف الشكل - شيء أرادت إخفاءه بأي ثمن. لابد أنه كان مصمم لها خصيصاً. أول ما تفعله عندما تصل إلى بيتها هو إلقاء حذائها في خزانة بأسرع ما يمكن.

كان في بيت شيماموتو جهاز ستيريو جديد في حجرة

المعيشة، وكنت أذهب إلى هناك للاستماع إلى الموسيقى. كان الجهاز جميلاً، ومجموعة اسطوانات والدها لا تفيه حقه. لم يكن عنده أكثر من خمس عشرة اسطوانة، معظمها موسيقى خفيفة. كنا نستمع إلى هذه الاسطوانات ألف مرة، وحتى اليوم يمكنني تذكر الموسيقى - كل نغمة منها. كانت شيماموتو مسؤولة عن الاسطوانات. تأخذ واحدة من غلافها وتضعها بحرص في الجهاز دون لمس الأخاديد بأصابعها، وبعد التأكد من تنظيفها من أي غبار بفرشاة صغيرة، تضع الإبرة بلطف على الاسطوانة. عندما تنهي الاسطوانة، ترشها بمنظّف وتمسحها بقطعة قماش لباد. ثم أخيراً، تضع الاسطوانة في الغلاف وتعيدها إلى مكانها الصحيح على الرف. علمها والدها هذه العملية، وتبعت بدورها تعليماته بجدية فائقة بادية على وجهها، وتغمض عينيها قليلاً وتمسك نفسها. في تلك الأثناء، كنت أجلس على الأريكة لأراقب كل حركاتها. عندما تعود الاسطوانة إلى مكانها المناسب على الرف كانت تلتفت إليّ وتبتسم. وكل مرة كان تراودني الفكرة نفسها: ليست اسطوانة ما تتعامل معها، إنها روح هشة داخل قارورة زجاجية.

لم يكن في بيتنا لا اسطوانات ولا جهاز لتشغيلها. لم يهتم والديَّ بالموسيقى، لذا كنت أستمع للموسيقى دوماً من مذياع بلاستيكي صغير. روك أند رول كانت الموسيقى المفضلة عندي، لكني صرت أستمتع بالموسيقى الكلاسيكية التي عند شيماموتو. كانت موسيقى من عالم آخر، تتحلى بفتنة، لكني أكثر من ذلك أحببتها لأنها كانت جزءاً من ذلك العالم. كنت

أجلس وإياها مرة أو مرتين في الأسبوع على الأريكة نشرب الشاي الذي تعده أمها لنا ونقضي بعد الظهر في الاستماع إلى استهلالية روسيني وريفية بتهوفين ولحن بيير جينت الأوركسترالي. كانت أمها تسر لوجودي معهم. لقد سرها أن يكون لابنتها صديقاً بسرعة بعد انتقالها إلى مدرسة جديدة، وأظن أن حُسن هندامي ساعد في ذلك. بصراحة لم أقدر على حب أمها كثيراً. كانت دوماً لطيفة معي، لكنني شعرت بوجود بعض التهيج في صوتها كان يثير أعصابي.

من كل اسطوانات والدها، كان تسجيل لكونشيرتو بيانو «ليست» المفضل عندي: كونشيرتو على كل وجه من الاسطوانة. أحببتها لسببين. الأول، لأن الغلاف كان جميلاً، والثاني لا أحد أعرفه باستثناء شيماموتو طبعاً كان قد استمع إلى كونشيرتو لليست. الفكرة أثارتني. وجدت عالماً لا يعرفه أحد ممن حولي- حديقة سرية لا يسمح لأحد غيري بدخولها. سموت وارتفعت إلى مستوى آخر من الوجود. الموسيقى بحد ذاتها كانت رائعة. في البدء حسبت أنها تبالغ ومصطنعة وحتى مبهمة. مع ذلك تدريجياً ومع تكرار الاستماع إليها تشكلت صورة غائمة في ذهني - صورة ذات معنى. عندما أغلقت عيني وركزت، جاءتني الموسيقى كسلسلة من الدوامات. دوامة تتشكل وتخرج منها دوامة أخرى تتصل بها ثالثة. أدرك الآن أن لهذه الدوامات سمة فكرية مجردة. أردت أن أخبر شيماموتو عنها أكثر من أي شيء آخر، لكنها كانت تتجاوز اللغة العادية. كانت هناك حاجة إلى مجموعة مختلفة تماماً من الكلمات،

كنت أجهلها. أكثر من ذلك، لم أعرف إن كانت مشاعري تستحق وضعها في كلمات. من سوء الحظ، لم أعد أذكر اسم عازف البيانو الآن، كل ما أذكره غلاف الاسطوانة الملوّن المفعم بالحياة ووزن الاسطوانة نفسها، التي كانت ثقيلة وسميكة بطريقة غامضة.

في أحد أيام شهر ديسمبر/كانون الأول قرب عيد الميلاد، كنت أجلس وشيماموتو في حجرة المعيشة على الأريكة كالعادة نستمع إلى الاسطوانات. كانت أمها خارجة لقضاء حاجة ما، لذا بقينا وحدنا. كان بعد ظهر يوم شتاء غائم معتم وخيوط الشمس مخططة بغبار ناعم وبالكاد تبدو لامعة عبر طيات السحب الكثيفة. بدا كل شيء مظلماً عديم الحركة. كان ذلك قرب الشفق والحجرة مظلمة كالليل. مدفأة البارافين تغمر الحجرة بوميض خافت، ونات كينج كول يغني «تظاهر». بطبيعة الحال لم تكن لدينا أي فكرة عن معنى وكلمات الأغنية بالإنجليزية، فلم تتعدى كونها ترنيمة بالنسبة لنا، لكني أحببت الأغنية وسمعتها عدة مرات حتى صار بإمكاني تقليد مطلعها:

تظاهر بأنك سعيد عندما تكون حزيناً

عمل ذلك ليس صعباً

كانت الأغنية والابتسامة الجميلة التي تزين وجه شيماتومو شيء واحد بالنسبة لي. بدا أن الكلمات تعبر عن أسلوب معين في الحياة، وإن كان من الصعب في بعض الأحيان رؤية الحياة هكذا.

كانت شيماموتو ترتدي كنزة صوفية زرقاء مستديرة الياقة. كان عندها عدداً من الكنزات الزرقاء، إذ لابد أن هذا كان لونها المفضل. أو ربما كانت تلبسها دوماً في المدرسة، وتبرز ياقة قميصها الأبيض عند رقبتها وتكمل لباسها تنورة أنيقة وجوارب قطنية بيضاء. تُظْهِر كنزتها الناعمة الضيقة بروز صدرها قليلاً. جلست على الأريكة، ساقيها تحتها ومرفقها خلف الأريكة وهي تحدق في مشهد خيالي بعيد أثناء استماعها للموسيقى.

سألت: «هل تظن أن من الصحيح القول عن والديّ الطفل الوحيد إنهما لا يتفقان معاً؟»

تأملت ملياً، لكني لم أفلح في استخلاص سبباً أو تأثيراً لذلك.

سألت: «أين سمعت ذلك؟»

«قال لي شخص ذلك منذ وقت طويل. الوالدان اللذان لا ينسجمان معاً بشكل جيد ينجبان طفلاً واحداً فقط. لقد حزنت حين سمعت ذلك».

قلت: «...مممممم »

«هل أمك وأباك متفقان معاً؟»

لم أستطع الإجابة في الحال، إذ إنني لم أفكر بذلك من قبل.

قلت: «أمي ليست قوية البنية. لست متأكداً، لكن قد يكون من الصعب عليها إنجاب طفل آخر».

«هل فكرت يوماً كيف سيكون الحال لو كان عندك أخ أو أخت؟»

«كلا!»

«لِمَ لا ؟»

أخذت غلاف الاسطوانة من فوق الطاولة، لكن العتمة لم تسمح لي بقراءة ما كان مكتوباً عليه. أعدته وفركت عيني مرتين برسغي. فقد سألتني أمي مرة السؤال نفسه. لم تسرها إجابتي ولم تحزنها، بالأحرى حيرتها، لكنها بالنسبة لي كانت إجابة في منتهى الصدق والإخلاص.

اختلطت الأشياء التي أردت أن أقولها أثناء كلامي وبدا تفسيري طويلاً بلا نهاية، غير أن ما كنت أود أن أقوله كان هذا: أنا الذي هنا نشأ دون أخوة أو أخوات. لو كان لدي أخوة وأخوات لما كنت أنا الذي أنا. لذا من غير الطبيعي للذي أنا هنا أمامك أن يفكر كيف سيكون الأمر لو كان لي أخوة وأخوات... بعبارة أخرى، فكرت أن سؤال أمي كان عديم المعنى.

قدمت الإجابة نفسها لشيماموتو. حدقت بي بثبات وأنا أتكلم.

شيء في تعبير وجهها كان يقصي الناس عنها. كان ذلك كما لو أنها - فَكَّرتُ في ذلك في وقت لاحق فقط بطبيعة الحال - تسلخ بلطف الطبقات التي تغطي قلب المرء واحدة تلو أخرى، شعور في منتهى الحسية. كانت شفتاها تتحركان ببطء مع كل تغير، وكان بمقدوري أن أرى لمحة عميقة لضوء خافت في عينيها مثل خفقان شمعة صغيرة متقطع في الحجرة المظلمة الضيقة.

قالت بصوت هادىء ناضج: «أعتقد أني أفهم ما تعني».

«حقاً ؟»

أجابت: «ممم، هناك أشياء في هذا العالم يمكن تغييرها وأشياء لا يمكن تغييرها. والزمن العابر واحد من الأشياء التي لا تسترجع. حين تصل إلى هذا الحد، لا يمكنك التراجع. ألا تعتقد ذلك؟

بعد مرور مدة زمنية ما تتصلب الأشياء مثل الإسمنت في دلو. ولا يعود بوسعنا العودة. ما تود أن تقوله إن الإسمنت الذي يلفك قد ثبت، لذا ما أنت عليه الآن لا يمكن أن يكون أي شخص آخر».

قلت غير متأكد: «أظن أن هذا ما أعنيه»

نظرت شيماموتو إلى يدها لوهلة.

«هل تعلم أني أبدأ في التفكير أحياناً. بعد أن أكبر

وأتزوج، أفكر بنوع البيت الذي سأعيش فيه، ما سأفعل. وأفكر بعدد الأطفال الذين سأنجبهم».

قلت: «واو !»

«ألم تفكر في ذلك يوماً؟»

هززت رأسي. كيف يمكن أن يتوقع من ولد في الثانية عشرة أن يفكر في ذلك؟

- «وكم طفل ستنجبين؟»

وضعت يدها، التي كانت تضعها حتى اللحظة خلف الأريكة، على ركبتها. حدقت دون تعبير في أصابعها التي كانت تتبع المربعات المنقوشة على تنورتها. كان ثمة شيء غريب في ذلك، كما لو أن خيطاً خفياً ينبعث من رؤوس أناملها ينسج فكرة جديدة تماماً للزمن. أغلقت عيني، لمعت في الظلمة دوامات أمامي. كانت دوامات لا تحصى تولد أمامي وتختفي دون صوت. في البعيد كان نات كينج كول يغني «جنوب الحدود». كانت الأغنية حول المكسيك، لكني لم أعرف آنذاك. كان لكلمات «جنوب الحدود «وقعٌ مغرٍ. كنت مقتنعاً بأن شيئاً رائعاً يكمن جنوب الحدود. عندما فتحت عيني، كانت شيماموتو ما تزال تحرك أصابعها حول تنورتها. شعرت في مكان عميق داخل جسدي بألم حلو رائع.

قالت: «هذا غريب! لكن حين أفكر بالأطفال، أتخيل أن بإمكاني إنجاب طفلٍ واحد فقط. يمكنني تخيل أن لدي عدة

أطفال. أنا أم وعندي طفل. لا مشكلة في ذلك، لكن لا يمكنني تصور أن للطفل أي أخوة أو أخوات. إنه طفل وحيد في العائلة».

كانت بلا ريب فتاة ناضجة قبل الأوان. كنت متأكداً أنها منجذبة لي كشخص من الجنس الآخر - شعور متبادل. لكن لم تكن لدي فكرة عن كيفية التعامل مع هذه المشاعر. وشككت إن كانت شيماموتو تعرف أيضاً. أمسكنا بأيدي بعضنا بعضاً مرة واحدة فقط. كانت تقودني إلى مكان ما وقبضت على يدي كما لو تقول، من هنا - أسرع. كانت أيدينا متشابكة مدة عشر ثوان على أكثر تقدير، لكن بالنسبة لي بدت كأنها ثلاثون دقيقة. عندما تركت يدي، شعرت فجأة بالضياع. كان ذلك طبيعياً جداً، الطريقة التي قبضت فيها على يدي، لكني كنت أعلم أنها عابرة وستموت أيضاً.

لم يتركني الإحساس بيدها قط. كانت لمسة يدها مختلفة عن لمسة أي يد عرفتها في حياتي. كانت مجرد يدٍ صغيرة دافئة لفتاة في الثانية عشر، لكن هذه الأصابع وراحة اليد تلك كانت مثل صندوق فرجة مليء بكل ما أردت معرفته - وكل شيء عرفته. بأخذها يدي في يدها، أرتني ما هذه الأشياء، وأرتني أن هناك في هذا العالم الحقيقي مكان مثل هذا موجود. في فترة العشر ثوان تلك أصبحت طيراً صغيراً يرفرف في الجو وتدفعه الريح. كان بإمكاني رؤية مشهد بعيد من أعالي السماء.

كان من البعد بحيث لم أتبينه بوضوح، مع ذلك كان شيء هناك علمت أنه المكان الذي سأرحل إليه يوماً ما. جعلني هذا الإلهام أكتم تنفسي ويرتجف صدري.

عدت إلى البيت. حدقت طويلاً ، أثناء جلوسي على مقعدي، في الأصابع التي أمسكت بها شيماموتو. شعرت بنشوة لأنها أمسكت بيدي. بعثت لمستها اللطيفة الدفء في قلبي عدة أيام، وإن أربكتني وحيرتني في آن، وحتى أحزنتني بطريقة ما. كيف يمكنني تفهم هذا الدفء؟

حين انتهينا من المدرسة الابتدائية، ذهبت وشيماموتو إلى مدارس ثانوية مختلفة. انتقلت من البيت الذي عشت فيه حتى تلك الفترة إلى بلدة جديدة. أقول بلدة جديدة رغم كونها لا تبعد سوى محطتي قطار عن المكان الذي نشأت فيه. ذهبت في الشهور الثلاثة الأولى بعد انتقالي لزيارتها ثلاث أو أربع مرات. هذا كل ما في الأمر. أخيراً توقفت عن الذهاب. كان كلانا في عمر حرج، وكانت مجرد حقيقة أننا نذهب إلى مدارس مختلفة ونعيش على بعد محطتي قطار كل ما احتجت إليه لأشعر بأن عالمنا قد تغير تماماً. كان أصدقاؤنا مختلفين وكذلك كتبنا المدرسية. كان جسدي وصوتي وطريقة تفكيري تمر بتغيرات مفاجئة، وإرباك أخرق غير متوقع يهدد العالم الحميم الذي خلقناه. شيماموتو كانت بطبيعة الحال تمر بتغيرات جسدية ونفسية أعظم ربما. كل ذلك جعلني لا أشعر بالراحة. صارت أمها تنظر إليَّ بطريقة غريبة. لماذا يداوم هذا الفتى على المجيء

إلى هنا؟ بدا أنها تقول. لم يعد يسكن في الجوار، ويذهب إلى مدرسة أخرى. ربما كنت مفرط الحساسية.

وهكذا، نشأت وشيماموتو مفترقين، وتوقفت عن زيارتها. وربما كان ذلك خطأً (ربما الكلمة الوحيدة التي يمكنني التفكير في استخدامها هنا، ليست وظيفتي تحري مدى الذكرى المدعوة الماضي والحكم على ما هو صحيح وما هو غير صحيح). كان ينبغي أن أبقى أقرب ما يمكن منها. كنت بحاجة لها وهي بحاجة لي. لكن خجلي كان شديداً، وكنت أخشى كثيراً أن أجرح. لم أرها قط بعد ذلك، ولا حتى بعد سنوات لاحقة طويلة.

حتى بعد أن توقفنا عن رؤية بعضنا البعض، بقيت لها مكانة عظيمة وخاصة في نفسي. ذكراها شجعتني وأراحتني حين مررت بِحِيْرَة وألم البلوغ. احتلّت ولمدة طويلة مكانة خاصة في قلبي. حفظت ذاك المكان لها وحدها، مثل إشارة «محجوز» فوق طاولة في ركن هادىء في مطعم، بالرغم من أني كنت متأكداً أنني لن أراها ثانية.

كنت في الثانية عشر عندما تعرفت عليها، دون أي مشاعر جنسية حقيقية أو شهوة. مع ذلك أعترف بتشكل اهتمام مبهم لديّ لبروز صدرها ولما تحت تنورتها. لكنني لم أعرف ما معنى ذلك، أو إلى أين سيؤدي.

بعيون مغمضة وتيه وخيلاء، تصورت وجود مكان ما. لم يكن المكان الذي تخيلته كاملاً. كان غائم الصورة وغير محدد

وخطوطه مبهمة. مع ذلك كنت متأكداً أن هناك شيئاً مهماً جداً في انتظاري هناك. وكنت أعرف هذا: شيماموتو تحدق في المشهد نفسه.

كان كلانا ما زال مكوناً من شظايا، وبدأنا الإحساس بوجود الحقيقة غير المتوقعة التي سنحصل عليها والتي ستملأ كياننا وتجعلنا كلاً متكاملاً. وقفنا أمام باب لم نره من قبل. وحدنا تحت ضوء يومض بوهن، يدانا متشابكتان بقوة مدة عشر ثوان عابرة في الزمن.

2

في المدرسة الثانوية كنت مراهقاً عادياً. كانت تلك المرحلة الثانية في حياتي، خطوة في تطوري الشخصي - التخلي عن فكرة أني مختلف، وقبول أنني عادي. لا يعني ذلك أنه لم تكن عندي مشاكل، لكن أي فتى في السادسة عشرة ليس عنده مشاكل؟ تدريجياً، دنوت أكثر من العالم، والعالم اقترب مني أكثر.

عند بلوغي السادسة عشرة لم أعد ذلك الصبي الصغير ضعيف البنية. في الصف الأول الثانوي بدأت دروس السباحة قرب منزلي. أتقنت السباحة السريعة وصرت أسبح مسافات طويلة مرتين في الأسبوع. صار كتفيّ وصدري ممتلئين وقويت عضلاتي واشتدت. لم أعد ذلك الفتى السقيم الذي تصيبه الحمى بسرعة فيأوي للفراش. كثيراً ما وقفت أمام مرآة الحمام متفحصاً كل جزء وركن خفي في جسدي.

كان بإمكاني رؤية التغيرات الجسدية السريعة أمام عيني، ولقد استمتعت بذلك. لا أعني أني كنت مثاراً لأني سأصبح بالغاً، بل استمتعت برؤية التحول الحاصل لي أكثر من عملية البلوغ.

أحببت القراءة والاستماع إلى الموسيقى، فلطالما أحببت الكتب ولقد عزز حبي لها صداقتي مع شيماموتو. بدأت في الذهاب إلى المكتبة العامة والتهام كل كتاب تقع يدي عليه. حين أشرع في قراءة كتاب لا يمكنني تَرْكَهُ. كانت القراءة مثل الإدمان، أقرأ وأنا أتناول الطعام، أقرأ في القطار والفراش حتى ساعة متأخرة من الليل، أقرأ في المدرسة، حيث كنت أخفي الكتاب حتى يمكنني القراءة أثناء الدرس. كنت قد اشتريت جهاز ستيريو قبل فترة وصرت أقضي كل وقتي في حجرتي استمع إلى أسطوانات الجاز. لم تكن لدي رغبة للحديث مع أحد حول ما أجنيه من الكتب والموسيقى. شعرت بالسعادة لكوني أنا نفسي وليس أي شخص آخر. من هذا المنطلق، يمكن القول إنني ملتصق بالوحدة، ولقد نفرت من كل رياضات الفِرَق. كرهت كل أنواع المنافسة، حيث ينبغي تسجيل نقاط ضد آخر. فضلت السباحة أكثر وأكثر، وحيداً بصمت.

لم أكن وحيداً تماماً، فلقد استطعت تكوين بعض الصداقات في المدرسة، قليل من الأصدقاء على الأقل، أما المدرسة نفسها فلقد كرهتها. شعرت أن هؤلاء الأصدقاء يحاولون سحقي طوال الوقت، وان عليَّ أن أكون مستعداً للدفاع عن نفسي. جعلني ذلك صلب العود، ولولا أصدقائي لخرجت من سنوات المراهقة الغادرة هذه بجروح أكثر.

بعد بدء ممارسة السباحة لم أعد شديد العناية بالطعام الذي أتناوله، وصار بإمكاني الحديث مع الفتيات دون أن

يحمر وجهي خجلاً. ربما كنت طفلاً وحيداً في العائلة، لكن لم يكترث أحد بذلك. بدا، على الأقل في الخارج، أنني حررت نفسي من لعنة كوني طفلاً وحيداً.

وصار عندي صديقة.

لم تكن جميلة بشكل خاص، ليس من النوع الذي تشير إليه والدتك في صورة الصفّ على أنها أجمل فتاة في المدرسة. فكرت، أول مرة قابلتها أنها جميلة. لا يمكن رؤية ذلك في الصورة، لكنها تتحلى بدفء مباشر يجذب الناس إليها. لم تكن جميلة بشكل يمكنني التباهي بها، لكني لم أكن ذلك الصيد الثمين أيضاً.

كنا في الصفّ نفسه في المدرسة في السنة الأولى من التعليم الثانوي، وكثيراً ما خرجنا في مواعيد مع آخرين في البدء ثم وحدنا لاحقاً. شعرت بالراحة معها لسبب ما، إذ بإمكاني قول ما أشاء فتصغي بانتباه. قد أثرثر هراءً، لكن من تعبير وجهها تبدو كما لو أني أبوح باكتشاف عظيم قد يغير مسار التاريخ. كانت الفتاة الأولى، منذ شيماموتو، تسحر بأي شيء أقوله. أردت أن أعرف كل شيء عنها. ماذا تأكل كل يوم، وأي طراز الحجرة التي تعيش فيها، وماذا ترى من نافذتها.

كان اسمها أزومي. أحب اسمك، أخبرتها أول مرة تبادلنا فيها الحديث. «نبع الجبل «يعني باليابانية»: الق بفأس فيه وتخرج جنية «قلت وأنا أفكر في قصة خرافية. ضحكت.

كان لأزومي أخت تصغرها بثلاث سنوات، وأخ يصغرها بخمس سنوات. كان والدها طبيب أسنان وكانوا يعيشون - ولا غرابة - في بيت مستقل، وعندهم كلب ألزاسي يدعى كارل، نسبة إلى كارل ماركس، صدق أو لا تصدق. كان والدها عضواً في الحزب الشيوعي الياباني. من المؤكد أن هناك أطباء أسنان شيوعيين في العالم، لكن أربع أو خمس حافلات قد تسعهم جميعاً. لذا، فكرت أن من الغرابة الجميلة أن يكون والد صديقتي واحداً من هذا النسل النادر. كان والدي أزومي من المتحمسين لكرة المضرب وتجدهم كل يوم في الملعب والمضارب في أيديهم. طبيب أسنان شيوعي مغرم بكرة المضرب - يا لها من توليفة غريبة! لم تكن أزومي مهتمة بالسياسة، لكنها أحبت والديها وكثيراً ما تنضم إليهم في لعب كرة المضرب. حاولت جعلي ألعب معهم، غير أن كرة المضرب لم تكن تثير اهتمامي.

حسدتني لأني طفل وحيد في عائلتي، إذ إنها لم تنسجم مع أخيها وأختها، ترى أنهما أحمقان متحجرا القلب ولا تكترث لو لم تراهما قط مرة أخرى. طالما أردت أن أكون طفلة وحيدة في العائلة، قالت، أعيش كما أهوى دون أن يزعجني أحد كلما نظرت هنا أو هناك.

في موعدنا الثالث قبلتها. جاءت إلى بيتي ذلك اليوم حين كانت أمي خارجة للتسوق، لذا بقينا وحدنا. عندما قربت وجهي منها ولمست شفتاي شفتاها، أغمضت عينها ولزمت الصمت. كنت قد حضرت دستة من الأعذار إذا انتابها غضب

أو لاحت بوجهها جانباً، لكني لم أحتج أي منها. وشفتاي على شفتيها، وضعت ذراعي حولها وجذبتها نحوي. كان ذلك قرب نهاية الصيف وهي ترتدي فستاناً قطنياً مخططاً مربوطاً عند الخصر وتتدلى العقدة خلفها متأرجحة مثل ذيل. لمست يدي رباط حمالة صدرها. كنت أحس بتنفسها على رقبتي وكنت في غاية الإثارة حتى شعرت بأن قلبي سيقفز خارج جسدي وعضوي على وشك الانفجار. التصقت بفخذها فاستدارت قليلاً إلى جانب، لكن هذا كان كل ما في الأمر، فلم تبد انزعاجاً.

جلسنا على الأريكة برهة ملتصقين وقطة تربض على الكرسي المقابل. فتحت عينيها ونظرت إلينا ثم تمطت وعادت لتغط في النوم. لمست شعرها ووضعت شفتي على أذنيها الصغيرتين. فكرت أنه ينبغي قول شيء، لكن الكلمات استعصت عليَّ. كنت أتنفس بصعوبة، ناهيك عن الكلام. أخذت يدها ثانية وقبلتها مرة أخرى. بقي كلانا صامتاً لوهلة.

بعد أن ودعتها في المحطة لم أشعر بالسكينة. ذهبت إلى البيت واستلقيت على الأريكة محدقاً في السقف. كان ذهني في دوامة. أخيراً عادت أمي إلى البيت وقالت إنها ستعد العشاء، لكن الطعام كان آخر ما بوسعي التفكير به. دون كلمة، خرجت وتجولت في البلدة مدة ساعتين. انتابني شعور غريب ولم أعد وحيداً، مع ذلك شعرت بوحدة عميقة لم أعرفها من قبل. ومثل استخدام النظارة الطبية للمرة الأولى، تحول إحساسي بالمنظور فجأة. صار بإمكاني لمس الأجسام البعيدة التي كانت غائمة

مرة وأصبحت الآن واضحة كالكريستال.

شكرتني أزومي حين تركتني ذاك اليوم وأخبرتني عن مدى سعادتها. لم تكن وحدها السعيدة ولم أصدق أن فتاة قد سمحت لي فعلاً بتقبيلها. كيف يمكنني ألا أكون مثاراً؟ بالرغم من ذلك، لم يكن بمقدوري أن أكون سعيداً دون تحفظ. كنت مثل برج فقد قاعدته. كنت في الأعالي وكلما نظرت في البعيد، كلما أصبت بدوار أقوى. لماذا هي؟ سألت نفسي. ما الذي أعرفه عنها؟ قابلتها بضعة مرات، تحدثنا قليلاً، هذا كل ما في الأمر. كنت عصبياً قلقاً وفي حالة يتعذر فيها السيطرة على نفسي.

لو كانت شيماموتو، لما كانت هناك حيرة. يمكن لكلينا قبول الآخر تماماً دون التفوه بكلمة، ودون مشاعر عدم ارتياح وارتباك. غير أن شيماموتو لم تعد هنا، كانت في عالم جديد يخصها وكذلك أنا. إجراء مقارنة بين شيماموتو وأزومي كانت عديمة المعنى. تم إقفال الباب المفضي إلى عالم شيماموتو خلفي واحتجت إلى العثور على سند في عالم جديد ومختلف.

بقيت مستيقظاً حتى سطع النور بوهن في السماء لجهة الشرق. نمت مدة ساعتين ثم استيقظت واستحممت ثم ذهبت إلى المدرسة. كان عليَّ أن أجد أزومي وأكلّمها عما جرى بيننا. أردت أن أسمع من فمها إن عواطفها لم تتغير. كان آخر ما قالته إنها سعيدة، لكن في ضوء السحر البارد بدا ذلك وهماً حلمت به. انقضى اليوم دون أن أتمكن من الحديث معها. عند الإفطار كانت مع صديقاتها، وفي آخر الدوام المدرسي ذهبت

إلى بيتها مباشرة. مرة واحدة تسنى لنا تبادل النظرات في الرواق. ابتسمت ببهجة عندما لمحتني ورددت لها الابتسامة بمثلها. كان ذلك كل ما حدث، لكني رأيت في ابتسامتها تأكيداً على ما حدث في اليوم السابق. بدا أن ابتسامتها تقول إن كل شيء على ما يرام. البارحة شيء حدث بالفعل. حين كنت عائداً إلى البيت في القطار زال ارتباكي. أردتها وتغلبت على شكوكي.

ما أردته كان جلياً، أزومي عارية وتمارس الحب معي، لكن هذه الغاية القصوى كانت ما تزال بعيدة المنال. ثمة ترتيب ما للأحداث ينبغي اتباعه. لبلوغ الجنس، عليك أن تفتح سحّاب فستان الفتاة. وبين فتح السحّاب والجنس تكمن عملية اتخاذ عشرين أو ربما ثلاثين قراراً وحكماً في منتهى الحساسية.

أولاً، ينبغي الحصول على بعض الواقيات. في الواقع تقع هذه الخطوة في آخر سلسلة الأحداث، لكن عليَّ الحصول على بعض منها، إذ لا أدري متى سأكون بحاجة لها. غير أن دخولي صيدلية ودفع النقود والخروج بسرعة مع علبة من الواقيات ليس سهلاً. لا يمكنني ادعاء أي شيء آخر غير كوني طالب مدرسة ثانوية، ناهيك عن كوني أجبن من محاولة القيام بشيء من هذا القبيل. يمكنني محاولة شرائها من آلات الحي، لكن إذا رآني أحد سأكون مضرب مثل تلوكه الأفواه. فكرت في هذا المأزق دون توقف مدة ثلاثة أو أربعة أيام.

أخيراً آلت الأمور إلى أسهل مما توقعت. طلبت ذلك من

صديق بالغ قبل الأوان كان الخبير المحلي بيننا في مثل هذه الأمور. قلت له «المسألة أني أريد بعض الواقيات، ماذا ينبغي أن أفعل؟» أجاب بوجه خالٍ من التعبير: «يمكنني جلب علبة كاملة لك. أخي اشترى طناً منها بواسطة كاتالوج. لا أدري لماذا اشترى هذه الكمية، لكن خزانته مليئة بها ولن ينتبه لاختفاء واحدة منها». رائع. تحمست. في اليوم التالي جلب الواقيات إلى المدرسة في كيس ورقي. دعوته على الغداء وطلبت منه أن لا يخبر أحداً. قال «لا مشكلة!» بالطبع أخبر اثنين إني كنت في السوق لشراء الواقيات، وهؤلاء بدورهم أخبروا آخرين، فانتشر الخبر في المدرسة حتى وصل إلى مسامع أزومي. طلبت مني أن أرافقها بعد نهاية الدوام المدرسي إلى السطح.

سألت: «هاجيمي! سمعت أنك حصلت على واقيات من نيشيدا؟» لم ترد كلمة واقيات بالضبط على لسانها، بل ذكرتها كاسم مرض معدٍ.

اعترفت جاهداً في البحث عن الكلمات المناسبة: «في الواقع، هذا لا يعني شيئاً. فكرت، كما تعلمين ، ربما من الأفضل الحصول على بعض منها».

«حصلت عليها من أجلي؟»

قلت «ليس بالضبط. غلبني حب الاستطلاع لمعرفة ما هي عليه. لكن إن كانت تزعجك، فأنا آسف سأعيدها أو أتخلص منها».

كنا جالسين على مقعد حجري في إحدى زوايا السطح، والجو يوحي بهطول الأمطار في أي لحظة. كنا وحيدين والسكون يعم المكان. لم أدر أن السطح بهذا الصمت .

كانت مدرستنا تقع على رأس تلٍ، وأمامنا يمتد منظر البلدة والبحر بالكامل. سرقت وأصدقائي مرة بعض الأسطوانات من حجرة نادي البث الإذاعي وقذفناها من فوق السطح، طارت مثل صحون البلاستيك الطائرة بعيداً في قوس جميل حتى الميناء بسعادة، كما لو أن الحياة بعثت فيها للحظة عابرة. لكن أخيراً لم يطر أحدها وتهادى بشكل أخرق وحط في ملعب كرة المضرب، حيث فوجئت بنات الصف الأول اللاتي يتدربن على تسديد الضربات بسقوطها. عوقبنا على تلك الفعلة. حدث ذلك قبل أكثر من سنة، والآن أنا أجلس في المكان نفسه، حيث تستجوبني صديقتي عن الواقيات.

نظرت إلى أعلى، رأيت طيراً يرسم خطوط دائرة ببطء في السماء. تخيلت أن من الرائع أن يكون المخلوق طيراً كل ما عليه القيام به هو الطيران دون قلق بشأن الواقيات.

سألتني أزومي بصوت منخفض «هل تحبني فعلاً؟»

أجبت «بالطبع، طبعاً أحبك».

والشفتان مقفلتان، نظرت مباشرة إلى وجهي. نظرت طويلاً ما أشعرني بعدم الراحة.

قالت بعد وهلة: «وأنا أحبك أيضاً، كما تعلم».

لكني فكرت.

قالت: «لكن، لا حاجة للسرعة. لا تكن عديم الصبر. لدي إيقاعي ولست تلك الفتاة الذكية. أحتاج وقتاً لإعداد الأمور. هل يمكنك الانتظار؟»

مرة أخرى هززت رأسي بصمت.

سألت: «هل تعدني بذلك؟»

«أعدك !»

«أن لا تؤذي مشاعري! »

«لن أوذي مشاعرك».

أطرقت ناظرة إلى حذائها. حذاء أسود بسيط، مقارنة بحذائي المحاذي لحذائها، كان مثل دمية صغيرة».

قالت: «وأنا خائفة. أشعر هذه الأيام كأني حلزونة دون صدفة».

قلت: «وأنا خائف أيضاً. أشعر كأني ضفدع دون غشاء بين أصابع الأقدام».

رفعت رأسها وابتسمت.

سرنا إلى ركن مظلل دون أن ننبس بكلمة، تعانقنا وتبادلنا القبلات، حلزونة دون صدفة وضفدع دون غشاء بين الأصابع. حضنتها والتقى لساني لسانها بخفة. أحسست بصدرها عبر قميصها. لم تقاوم. أغمضت عينيها وتنهدت. كان نهداها صغيرين ويناسبان راحة يدي، كما لو كانا مصممين لهذه الغاية فقط. وضعت راحتها فوق قلبي، فأصبحت يدها

ونبض قلبي واحداً. لم تكن شيماموتو، قلت بيني وبين نفسي. لا يمكنها أن تقدم لي ما تقدمه شيماموتو. لكنها كلها ملكي وتحاول كل ما بوسعها أن تعطيني كل ما تقدر عليه. كيف يمكنني أن أجرح مشاعرها!

ما لم أفهمه آنذاك أن بإمكاني أن أجرح مشاعر فتاة بشكل سيئ لا تشفى منه أبداً، وأن بإمكان المرء بمجرد العيش أن يدمر إنساناً آخر بشكل لا يمكن إصلاحه.

3

خرجت مع أزومي أكثر من سنة. كنا نذهب لمشاهدة فيلم مرة في الأسبوع أو ندرس معاً في المكتبة أو حتى نسير مسافات طويلة دون هدف. أما الجنس، فلم نقم بذلك حتى آخر مراحله. كانت تأتي مرتين في الأسبوع إلى بيتي حين يكون والداي في الخارج ونحضن بعضنا بعضاً في فراشي. لم تخلع ملابسها كاملة قط. كانت تصر قائلة «لا تعرف متى يعود أحد ما». يمكن القول إنها تبالغ في الحرص. لم تكن خائفة، بل تكره أن تُدفع إلى وضع محرج محتمل، لذا أُجبرت دوماً على حضنها بملابسها وتحسس ما تحت ثيابها الداخلية قدر المستطاع.

كانت تقول لي كلما بدت خيبة أملي «رويدك، أحتاج إلى مزيد من الوقت، من فضلك!»

في الواقع، لم أكن في عجلة من أمري، بل مرتبكاً ومحبطاً. كنت أميل إليها بالطبع وممتن أنها صديقتي. لو لم تكن معي، لكانت سنوات المراهقة التافهة غير ممتعة. كانت في الواقع فتاة مخلصة لطيفة يحبها الناس، لكن اهتماماتنا كانت متباعدة. لم تفهم الكتب التي أقرأها ولا الموسيقى التي أسمعها، لذا لم يكن حديثنا متكافئاً. من هذه الناحية اختلفت

علاقتي كلياً معها عن علاقتي مع شيماموتو.

لكن حين أجلس بجانبها وألمس أناملها، ينبعث دفء طبيعي في داخلي يمكنني من إخبارها أي شيء أريد. أحببت تقبيل جفونها وما فوق شفتيها، كما أحببت رفع شعرها إلى الخلف وتقبيل أذنيها، ما كان يجعلها تقهقه بشكل متواصل. أفكر بها إلى الآن، أتخيل صباح يوم أحد هادىء. يوم لطيف بلا غيوم ،دون واجبات مدرسية، مجرد يوم أحد تفعل فيه ما تريد. كانت تبعث فيَّ رغبة في الاستلقاء والراحة، كشعور يوم أحد.

كانت لها بالطبع عيوب، عنيدة متصلبة الرأي ينقصها الخيال. لم تكن لتخطو خطوة خارج العالم المريح الذي نشأت فيه. لم تشترك قط في أي شيء له علاقة بالأكل والنوم، كما أحبت واحترمت والديها. لم تكن الأفكار التي خرجت بها - الأفكار العادية لفتاة في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها - ويا للدهشة غير مشوقة وخالية من النكهة. في الجانب الايجابي، لم أسمعها مرة تذم أحداً ولم تشعرني بالملل بحديث مغرور. كانت تهواني ولطيفة معي. تصغي بانتباه لما أقوله وتُبهجني. كنت كثير الحديث عن نفسي ومستقبلي، وما سأصبح وما أتمنى أن أكون. حكايات شاب نرجسي خرافية، لكنها أصغت بانتباه. أخبرتني: «أعلم أنك ستصبح شخصاً رائعاً عندما تكبر. ثمة شيء خاص فيك». قالت ذلك بلهجة جادّة. لم يخبرني أحد ذلك من قبل.

حضنها وهي مرتدية ملابسها كان رائعاً. مع ذلك ما

أربكني وخيب أملي كان عجزي عن اكتشاف شيئاً خاصاً فيها خُلق من أجلي فقط. كانت قائمة حسناتها تفوق عيوبها، ومن المؤكد أنها تتفوق عليَّ، بالرغم من ذلك، كان هنالك شيئاً مفقوداً، شيء حيوي. لو كان باستطاعتي تحديد ذلك لكنا قد نمنا مع بعضنا البعض، ولما توانيت عن ذلك ولو استغرق ذلك وقتاً طويلاً. كنت سأقنعها أن من الضروري جداً أن تنام معي، غير أني افتقرت للثقة لكي أعمل على تحقيق ذلك. كنت شاباً متهوراً في السابعة عشرة من عمري، رأسي مليء بالشهوة وحب الاستطلاع. لكنني كنت أعلم أنها إن لم ترغب في ممارسة الجنس، لا ينبغي إرغامها على ذلك، ينبغي الانتظار بصبر حتى قدوم اللحظة المناسبة.

حضنت أزومي بين ذراعي عارية مرة. قلت متوسلاً إن ليس بإمكاني حضنك وأنت مرتدية ملابسك. إذا لم تريدي ممارسة الحب، لا بأس، لكني أود رؤية جسدك، أود حضنك عارية، يتوجب ذلك فلم أعد أتحمل أكثر من هذا.

فكرت أزومي لحظة ثم قالت إن كان هذا ما أريده فلا مانع عندها. نظرت إليَّ بجدية وأردفت «لكن عليك أن تعدني أن هذا كل ما ستفعله؟ ولن تفعل ما لا أريده!»

جاءت إلى بيتي صبيحة يوم جميل، وإن كان بارداً قليلاً، في بداية شهر نوفمبر/تشرين الثاني. كان على والداي الذهاب إلى ذكرى تأبين قريب لوالدي ومن المفروض أن أذهب معهم. لكني أخبرتهم أن عليَّ البقاء وحيداً في البيت كي أدرس لامتحان. لم يكن من المتوقع عودتهما قبل وقت متأخر

من الليل. جاءت أزومي بعد الظهر، خلعت فستانها وحضنتها في سريري. أغمضت عينيها وتركتني أعريها. لم يكن ذلك سهلاً، ملابس الفتيات مشكلة. في منتصف عملي، فتحت أزومي عينيها وقامت بالمهمة بنفسها.

كان سروالها الداخلي أزرق اللون وكذلك حمالة الصدر، ربما اشترتهما خصيصاً لهذه المناسبة. كانت ملابسها الداخلية دوماً من النوع الذي تشتريه الأمهات لفتيات المدارس الثانوية. أخيراً، عريتها.

حضنت جسدها العاري وقبلت رقبتها وصدرها. لمست بشرتها الناعمة وتنشقت أريجها. كان عناقنا عاريين هكذا أجمل ما في العالم. شعرت أني سأصاب بالجنون إن لم ألجها، لكنها كانت تدفعني دوماً بقوة إلى الخلف.

قالت: «آسفة !»

عوض ذلك وضَعَتْ عضوي في فمها ولعقته كله. لم تكن قد فعلت ذلك من قبل. راحت تمرر لسانها على رأسه مرات ومرات حتى لم يعد بإمكاني التفكير فقذفت.

في وقت لاحق، حضنتها وأنا أتحسس كل إنش من جسدها. وضوء الخريف يغمرها، كان جسدها جميلاً فقبلته كله. كانت بعد ظهيرة رائعة. تعانقنا عدة مرات وكنت أبلغ الذروة مرة تلو أخرى. كانت تذهب إلى المرحاض كلما فعلت ذلك لغسل فمها.

قالت ضاحكة: «يا له من إحساس غريب!»

كان قد مر على خروجي مع أزومي أكثر من سنة الآن، غير أن هذا كان ولا ريب أسعد وقت قضيناه معاً. ونحن عاريان، لم يكن هناك ما نخفيه. شعرت أني أعرفها الآن أكثر، ولابد أنها شعرت بالإحساس نفسه. لم تكن الكلمات ولا الوعود ما نحن بحاجة إليه، بل التراكم الثابت للوقائع الصغيرة.

استلقت أزومي مدة طويلة، رأسها على صدري كما لو كانت تستمع إلى نبضات قلبي. لمست شعرها. كنت في السابعة عشرة وبصحة جيدة وعلى وشك البلوغ. رائع، هي الكلمة الوحيدة لوصف ذلك.

قرابة الساعة الرابعة، وأثناء ارتدائها ملابسها للمغادرة قرع جرس الباب. في البدء تجاهلت الأمر. لم أدر من ذلك، فلم أجب، إذ مهما كان الطارق سيمل ويذهب. لكن القرع استمر. يا للعنة، فكرت.

سألت أزومي «هل عاد والداك؟» كانت شاحبة الوجه خارج الفراش فأسرعت لجمع ملابسها.

«لا تقلقي. لا يمكن أن يأتيا مبكراً، كما وأن لديهما مفتاح، لذا لن يقرعا الجرس».

قالت «حذائي!»

«حذاء؟»

«حذائي قرب الباب من الداخل».

ارتديت ملابسي، هبطت مندفعاً إلى الطابق الأرضي

وألقيت بحذائها داخل خزانة البهو. عندما فتحت الباب، كانت خالتي تقف هناك، أخت أمي الصغرى التي تعيش على بعد ساعة بالقطار من بيتنا وتزورنا كثيراً.

قالت: «ماذا كنت تفعل بحق السماء؟ لقد قرعت الباب مدة طويلة».

أجبت: «كنت أستمع إلى الموسيقى بسماعات الأذن، لذا لم أسمعك. والداي في الخارج - ذهبا إلى تأبين قريب ولن يعودا حتى وقت متأخر من الليل. أعتقد أنك تعرفين ذلك».

«لقد أخبراني. كان عندي ما أفعله بالحي وكنت أعلم أنك في البيت تدرس، لذا فكرت أن أعد العشاء لك. لقد اشتريت حاجيات العشاء».

قلت: «يمكنني أن أعد العشاء بنفسي. لست طفلاً كما تعلمين!»

«لكني اشتريت كل شيء. أنت مشغول، أليس كذلك؟ سأعد العشاء وأنت تدرس».

يا إلهي، فكرت. أردت الالتفاف والموت. الآن كيف ستعود أزومي إلى بيتها؟ في بيتنا ينبغي المرور من حجرة المعيشة للوصول إلى الباب الأمامي، ثم المرور بنافذة المطبخ لبلوغ البوابة. يمكنني بالطبع تقديم أزومي كصديقة جاءت لزيارتي. لكن من المفروض أن أكون منهمكاً بجد في الدراسة. إذا عرفوا أن فتاة كانت عندي سأدفع الثمن غالياً، ولا يمكنني

الطلب من خالتي الحفاظ على ذلك كسرٍ بيننا. لم تكن خالتي سيئة، لكن الحفاظ على الأسرار لم تكن إحدى خصالها المعروفة.

حين كانت خالتي في المطبخ تفرغ ما اشترته من حاجيات من الأكياس، أخذت حذاء أزومي إلى الطابق العلوي. كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها. شرحت لها الوضع. شحب وجهها «ماذا سأفعل؟ ماذا إذا لم استطع الخروج من البيت؟ أنت تدري أن عليَّ العودة إلى البيت في موعد العشاء. إذا لم أفعل سأقع في ورطة صعبة».

قلت في محاولة لتهدئة روعها: «لا تقلقي. سيكون كل شيء على ما يرام. سنفكر في شيء ما!» لكنني كنت في الواقع أجهل تماماً ما هي الخطوة التالية.

«لا أستطيع العثور على أحد أربطة جواربي. لقد بحثت في كل مكان!»

سألت: «رباط جواربك؟»

«قطعة معدنية صغيرة بهذا الحجم».

بحثت في الحجرة من الأرضية إلى أعلى سريري، فلم أجده.

سألت: «آسف، ألا تستطيعين على عدم لبس جواربك مرة واحدة فقط؟»

ذهبت إلى المطبخ حيث كانت خالتي تقطع الخضروات. كنا بحاجة إلى زيت خضار، قالت وطلبت مني الذهاب

لشرائه. لم أستطع الرفض، لذا امتطيت دراجتي الهوائية وذهبت إلى دكان قريب. كانت العتمة قد بدأت تحل في الخارج، وعلى هذا المنوال ستبقى أزومي في بيتي إلى الأبد. توجب فعل شيء قبل قدوم والداي.

أخبرت أزومي: «أعتقد أن الفرصة الوحيدة أن تنسلي خارجة عندما تكون خالتي في المرحاض».

«هل تظن أن هذه الخطة ستنجح؟»

«لنجربها. لا يمكننا الجلوس هكذا دون فعل شيء».

سأنتظر في الطابق الأرضي حتى تدخل خالتي المرحاض، عندها أصفق مرتين، فتهبط أزومي، تلبس حذاءها وتغادر، ثم تتصل بي من هاتف في الشارع إذا نجحت في الهروب.

كانت خالتي تغني بسعادة وهي تقطع الخضار وتطهو الحساء وتقلي البيض. لكن مهما مر من وقت لا تذهب إلى المرحاض. يمكن أن تدخل في قائمة كتاب غينيس للأرقام القياسية في فئة أكبر مثانة في العالم. كدت أستسلم عندما خلعت مئزرها وغادرت المطبخ. حين رأيت أنها دخلت المرحاض، أسرعت إلى حجرة المعيشة وصفقت مرتين بقوة. هبطت أزومي إلى الطابق الأرضي على رؤوس أصابعها وحذاءها في يدها، لبسته بسرعة وانسلت من الباب الأمامي بكل هدوء. ذهبت إلى المطبخ لأتأكد من خروجها من البوابة الخارجية. بعد ثانية خرجت خالتي من المرحاض، فتنفست الصعداء.

اتصلت أزومي بعد خمس دقائق. وخرجت بعد أن أخبرت خالتي أنني سأعود بعد ربع ساعة. خرجت لأجد أزومي واقفة قرب الهاتف العمومي.

قالت قبل أن أقدر على التفوه بكلمة: «أبغض هذا، لا أريد أن أفعل ذلك مرة أخرى».

لم ألمها على غضبها وانزعاجها. أخذتها إلى الحديقة الكائنة قرب المحطة وجلسنا على مقعد هناك. أمسكت بيدها برقة. كانت ترتدي معطفاً بلون الصوف الطبيعي فوق كنزة صوفية حمراء. تذكرت بولع ما تحتها.

سألت: «لكن اليوم كان جميلاً. أعني حتى قدوم خالتي. ألا تعتقدين ذلك؟»

«طبعاً استمتعت بذلك. أقضي وقتاً رائعاً كلما أكون معك، لكني أرتبك وأحتار بعد ذلك».

«بخصوص ماذا؟»

«المستقبل. عندما أترك المدرسة الثانوية ستذهب أنت إلى الجامعة في طوكيو، وأنا سأبقى هنا. ماذا سيحدث لنا؟»

كنت قد عزمت على الذهاب إلى جامعة في طوكيو بعد التخرج من المدرسة الثانوية.

كنت أتطلع بفارغ الصبر لمغادرة البلدة والعيش وحدي بعيداً عن والداي. لم يكن تحصيلي المدرسي فذاً، لكنني حصلت على علامات جيدة في المواضع التي أحبها دون فتح كتاب، لذا لم يكن الالتحاق بجامعة خاصة صعباً، إذ إن

امتحان الدخول لا يتجاوز مادتين، غير أن انضمام أزومي لي في طوكيو كان مستحيلاً. أراد والداها بقاءها قريبة منهما، ولم تكن بدورها من النوع المتمرد، لذا أرادت مني البقاء هنا وقالت إن لدينا جامعة جيدة هنا، فلماذا عليك الذهاب بعيداً إلى طوكيو؟ لو وعدتها بعدم المغادرة لكانت نامت معي بكل تأكيد.

قلت: «رويدك! لست ذاهباً إلى بلد أجنبي. طوكيو تبعد ثلاث ساعات من هنا فقط، والعطل الجامعية طويلة، لذا سأكون هنا ثلاثة أو أربعة شهور في السنة». شرحت ذلك عدة مرات.

قالت: «لكنك ستنساني إذا غادرت هذا المكان، وستجد صديقة جديدة».

سمعت هذه الجملة عشر مرات على الأقل.

أخبرتها أن هذا لن يحدث، فأنا أحبها كثيراً، وعليه كيف سأنساها بهذه السهولة؟ لكني لم أكن متأكداً. يمكن لتبدل بسيط في المنظر أن يحدث تغيرات قوية في انسياب الزمان والعواطف: هذا ما حدث لشيماموتو ولي بالضبط. ربما كنا على صلة قريبة، لكن الانتقال إلى مسافة ميلين كان كافياً ليذهب كل منا في طريقه الخاص. أحببتها كثيراً وطلبت مني أن أزورها لكني في النهاية توقفت عن ذلك.

قالت أزومي: «ثمة شيء لا أفهمه. تقول إنك تحبني وتريد العناية بي، لكني أحياناً لا أستطيع معرفة ما يدور داخل رأسك».

أخذت أزومي منديلاً من جيب معطفها ومسحت به دموعها. بدهشة أدركت أنها كانت تبكي منذ مدة. لم أدر ما أقول، لذا جلست وانتظرت أن تسترسل في حديثها.

هزت رأسها وقالت: «تفضل التفكير في الأمور لوحدك ولا تحب أن ينظر الناس إلى ما يدور في رأسك. ربما لأنك طفل وحيد، فقد اعتدت على التفكير والتصرف وحدك. تعتقد أنك إذا فهمت شيئاً، فإن ذلك يكفي. هذا ما يخيفني. أشعر بالهجران».

طفل وحيد. لم أسمع هاتين الكلمتين منذ أمد بعيد. كانت الكلمتان تؤذيان مشاعري في المدرسة الابتدائية، لكن أزومي تستخدمهما بمعنى مختلف.

«طفلها الوحيد «لا يعني طفلاً مدلّلاً ومدلّعاً، بل مخاطبة ذاتي العليا الانعزالية، التي أبقت العالم في متناول يدي. لم تلمني. كان الوضع يُشعِرها بالحزن.

قالت أثناء وداعنا: «ليس بمقدوري أن أخبرك عن مدى سعادتي عندما تعانقنا. بعث ذلك الأمل بداخلي، وفكرت، من يدري ربما ستسير الأمور على ما يرام، لكن الحياة ليست بهذه السهولة، أليس كذلك؟»

أثناء عودتي من المحطة تأملت ملياً في كل ما قالته. كان كلامها معقولاً. أنا لست منفتحاً على الآخرين. كانت منفتحة هي معي، لكنني غير قادر على فعل الشيء نفسه معها. كنت أميل إليها بحق، غير أن شيئاً كان يقصيني عنها.

سرت من المحطة إلى البيت آلاف المرات، لكن البلدة الآن بدت كأنها غريبة. لم أستطع التخلص من صورة جسد أزومي العاري، وحلمتيها الصلبتين، خصلة شعر عانتها وفخذيها الناعمين. أخيراً لم يعد بإمكاني التحمل أكثر من ذلك. اشتريت بعض السجائر من آلة وعدت إلى الحديقة حيت تكلمنا وأشعلت سيجارة لأرتاح.

لو لم تأت خالتي لآلت الأمور إلى الأفضل. لو لم تزعجنا، لكان وداعنا ساراً، ولكنا أسعد حالاً. لكن حتى لو لم تأت خالتي، لكان شيء من هذا القبيل قد حدث يوماً ما، إن لم يكن اليوم فغداً. كانت المشكلة الكبرى أنني لا أستطيع إقناعها بأن هذا أمر لا مناص منه، لأني لم أكن قد أقنعت نفسي.

صارت الرياح أشد برودة عند المغيب، والشتاء يدنو سريعاً. عندما تحل السنة الجديدة لن يكون هناك امتحانات دخول وستبدأ حياة جديدة. بالرغم من عدم ارتياحي، كنت أرنو إلى التغيير. كان قلبي وجسدي بحاجة ماسة إلى هذه الأرض المجهولة، هبة هواء عليلة. كانت تلك السنة التي احتل فيها الطلاب الجامعات اليابانية وعمت طوكيو عاصفة من المظاهرات. كان العالم يبدل نفسه أمام أعيننا، وكنت تواقاً لأصاب بعدوى هذه الحمى. حتى لو أرادتني أزومي أن أبقى ووافقت على أن تنام معي لتأكيد ذلك، كنت أعلم أن أيامي في هذه البلدة الناعسة معدودة. إذا عنى ذلك نهاية علاقتنا، فليكن. إذا بقيت هنا، شيء في داخلي سيفقد إلى الأبد- شيء

لا أقدر على خسارته. كان ذلك كحلم ضبابي، شهوة حارقة غير مشبعة. حلم من تلك النوعية التي يحلم الناس بها في سن السابعة عشر. لم يكن باستطاعة أزومي فهم هذا الحلم. كانت لها أحلامها الخاصة، رؤيا لمكان بعيد مختلف. عالم لا يشبه عالمي.

لكن حتى قبل أن تبدأ حياتي الجديدة، حلت أزمة مزقت علاقتنا إرباً.

4

أول فتاة نمت معها كانت طفلة وحيدة في العائلة. مثل أزومي لم تكن من النوع الذي يسحر الألباب، ومعظم الناس لم يعيروها اهتماماً. مع ذلك، أول ما وقعت عيناي عليها، أحسست كما لو كنت سائراً في شارع بعد ظهر يوم وضربتني صاعقة برق صامتة قوية على رأسي. دون إذا أو لكن، وقعت في الشرك.

مع بعض الاستثناءات القليلة، لا تثيرني النساء الجميلات عادة. أحياناً أكون سائراً في الشارع، فيلكزني صديق ويقول: «واو، هل رأيت هذه الفتاة؟» لكن من الغريب أني لا أستطيع أن أذكر شيئاً عن هذه الفتاة المفترضة، والممثلات الساحرات وعارضات الأزياء لا يثرن اهتمامي. لا أدري لماذا، لكن الأمر هكذا. بالنسبة لي كان الحد الفاصل بين العالم الحقيقي وعالم الأحلام دوماً ضبابياً، وكلما رفع جمال فاتن رأسه، لم يكن الوجه الجميل كافياً لإثارتي. وكان الأمر كذلك حتى في سنوات مراهقتي المبكرة.

لم أجذب دوماً لجمال خارجي قابل للقياس، بل لشيء أعمق، شيء مطلق. ومثلما يملك بعض الناس حباً خفياً للعواصف الماطرة والهزات الأرضية أو انقطاع النور

الكهربائي، أحببت ذاك الشيء غير المحدد والموجّه لي من قبل الجنس الآخر. إذا أردت كلمة أفضل فلتكن مغناطيسية. سواء أعجبك ذلك أم لم يعجبك، فإنها قوة توقعهم في الشرك وتجذبهم إليها.

قد تكون أقرب مقارنة هي قوة العطر. ربما لا يمكن حتى لأستاذ المزج نفسه تفسير كيف يصنع شذا له مغناطيسية خاصة. ولا يمكن للعلم بالتأكيد تفسير ذلك. مع ذلك، ثمة حقيقة تبقى قائمة أن مزيج أريج ما يمكن أن يأسر الجنس الآخر مثل رائحة حيوان في فترة التزاوج. قد يجذب عطر ما خمسين شخص من مئة، وعطر آخر يجذب الخمسين الآخرين. لكن هناك عطور أخرى يجدها شخص أو شخصان فقط مثيرة جداً. وأنا أملك المقدرة، من بعيد، على شم هذه العطور الخاصة. وعندما أفعل أريد أن أذهب إلى الفتاة التي تطلق هذا العبير وأقول: «انظري! لقد التقطتها، لم يفعل ذلك أحد سواي».

علمت في المرة الأولى التي رأيت فيها الفتاة أني أريد النوم معها. بدقة أكثر، علمت أنه يتوجب عليَّ النوم معها. وغريزياً، علمت أنها تشعر بالشيء نفسه. عندما كنت معها، ارتجف جسدي كله، كما يقال، وانتصب عضوي بقوة حتى صار من الصعب عليَّ السير. ربما شعرت بحركة هذا النوع من الجاذبية الأصيلة مع شيماموتو، لكني كنت أصغر من معرفة ذلك أو حتى تحديد نوعها. عندما قابلت هذه الفتاة كنت في

السابعة عشر، طالباً في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية، وكانت هي في العشرين وفي السنة الجامعية الثانية، ومن غريب الصدف أنها كانت ابنة عم أزومي. كان لديها صديقاً، لكن بالنسبة لكلينا لم يكن لذلك أهمية. كان من الممكن لها أن تكون في الثانية والأربعين ولها ثلاثة أطفال وتجدل شعرها في ضفيرتين خلف رأسها وما كنت لأعير ذلك اهتماماً. كان المغناطيس من القوة بحيث لا يسمح لي بترك هذه الفتاة تذهب بعيداً. لو فعلت لكنت قد ندمت على ذلك طوال عمري.

حدث أن كانت الفتاة التي فقدت عذريتي معها ابنة عم صديقتي، وليست مجرد ابنة عم، بل الأقرب إليها، حيث كانتا تزوران بعضهما بعضاً منذ الصغر. كانت ابنة العم في الجامعة في كيوتو وتعيش في شقة قرب البوابة الغربية لجوشو، القصر الإمبراطوري القديم. ذهبت وأزومي إلى كيوتو مرة، لذا اتصلنا بها وتناولنا الغداء معاً. كان ذلك بعد أسبوعين من المهزلة الصغيرة مع خالتي.

حين ابتعدت أزومي عنا بضعة دقائق، طلبت من ابنة عمها رقم هاتفها قائلاً إني أريد أن استفسر عن الجامعة. بعد يومين اتصلت بها وسألتها إن كان بإمكاني رؤيتها الأحد القادم. بعد لحظة صمت قالت لا بأس. شيء في نبرة صوتها جعلني واثقاً أنها تأمل في أن تنام معي. يوم الأحد ذهبت إلى كيوتو وحدي وقابلتها ومع حلول بعد الظهر كنا بالتأكيد في الفراش.

في الشهرين القادمين مارسنا الحب الشهواني بشكل

جعلني أظن أن عقلينا سيذوبان. لا مشاهدة أفلام ولا مشاوير ولا حديث موجز عن الروايات والموسيقى والحياة والحرب والثورة. كل ما فعلناه كان الجماع. بالطبع تكلمنا قليلاً لكني لا أذكر حول ماذا. كل ما أذكره صوراً قوية بتفاصيلها، الساعة المنبهة قرب الوسادة، الستائر على النوافذ، الهاتف الأسود على المنضدة، صور الرزنامة، ملابسها ملقاة على أرض الحجرة ورائحة بشرتها وصوتها. لم أطرح قط أي أسئلة وردت المعاملة بمثلها. مرة واحدة تساءلت فجأة ونحن مستلقيان في الفراش إن كانت ربما طفلة وحيدة في العائلة.

قالت بنظرة ساخرة: «هذا صحيح، لكن كيف عرفت؟»

«ليس عندي سبب معين، لقد أحسست بذلك فقط».

نظرت إلي قليلاً وقالت: «ربما أنت طفل وحيد أيضاً؟»

قلت: «هذا صحيح».

هذا كل ما أذكره من حديثنا.

نادراً ما توقفنا لنأكل أو نشرب، فما أن تقع عيوننا على بعض حتى نخلع ملابسنا دون تبادل كلمة وننطرح إلى السرير ونشرع في ممارسة الحب. كنت شرهاً لما أراه أمام عيني وكذلك كانت هي. كلما تقابلنا كنا نمارس الحب أربع أو خمس مرات حتى يجف حرفياً سائل عصيري وينتفخ رأس عضوي ويؤلمني. بالرغم من الشهوة والانجذاب العنيف الذي شعرنا به، لم يحدث قط وأن فكر أحدنا أننا نريد أن نصبح عاشقين مدة طويلة. كنا وسط دوامة ستخمد مع مرور الأيام.

معرفة أن كل مرة نتقابل فيها قد تكون المرة الأخيرة، ألهبت جذوة شهوتنا أكثر.

لم أكن مغرماً بها، ولم تكن مغرمة بي. لم تكن للمسألة، بالنسبة لي، صلة بالغرام. ما كنت أسعى إليه هو الشعور بأن قوة هائجة متوحشة تثور وفي وسطها شيء حاسم تماماً. لم تكن عندي فكرة عنها، لكني أردت أن أقحم يدي داخل جسدها وألمسه، مهما كان.

كنت أميل لأزومي كثيراً، لكني لم أشعر بهذه القوة غير العاقلة معها. لم أعرف الكثير عن هذه الفتاة الأخرى، مع ذلك كان تأثيرها عليّ عميقاً. لم نتكلم بجد قط حول أي موضوع لأننا لم نر جدوى من ذلك. لو كنّا نملك طاقة كافية للحديث لكنا استخدمناها في دورة أخرى بين ملاءات السرير.

في السير الطبيعي للأحداث كان من الممكن أن تختم علاقتنا دون التوقف للراحة بضعة أشهر، ثم يذهب أحدنا بعيداً، والسبب أن ما كنا نقوم به كان عملاً ضرورياً وطبيعياً، عمل لا يترك مجالاً للشك. منذ البداية لم تكن هناك إمكانية لحلول الحب أو الشعور بالذنب أو أفكار حول المستقبل.

لو لم تكتشف علاقتنا (يبدو عدم كشف ذلك كان أمراً غير واقعياً، لكني كنت منغمساً تماماً في الجنس معها) لاستمرت صداقتي وأزومي مدة أطول، وكنا خرجنا معاً كلما جاءت العطلة الصيفية. من يدري كم كانت ستدوم الصداقة! لكن بعد بضع سنوات، كان على أحدنا أن يرحل. كنا مختلفين

تماماً والزمن فقط كفيل بتضخيم اختلافاتنا. حين أعيد النظر الآن يبدو كل ذلك أوضح. لكن حتى لو ذهب كل منا في سبيله، لو لم أنم مع ابنة عمها، لكنا افترقنا كأصدقاء وانتقلنا إلى المرحلة التالية من الحياة بشكل أسلم.

لم نقدر على فعل ذلك، حسبما آلت إليه الأمور.

في الواقع، لقد قمت بتحطيم أزومي بشكل يتعذر إصلاحه. لم يَحتجْ الأمر إلى كثير لمعرفة مقدار الأذى الذي سببته لها. كان بإمكانها بمعدلات علاماتها المدرسية الالتحاق بجامعة مرموقة، لكنها سقطت في امتحان الدخول وانتهت بالالتحاق بجامعة صغيرة للبنات من الدرجة الثالثة. رأيت أزومي مرة واحدة بعد أن انكشفت علاقتي مع ابنة عمها. تكلمنا طويلاً في مقهى كان مكان لقاء معتاد لنا. حاولت أن أشرح لها ما جرى بأمانة قدر المستطاع، وحاولت اختيار كلماتي بحرص باذلاً جهد للتعبير عن عواطفي. قلت إن ما حدث بيني وبين ابنة عمك لم يكن مدبراً، بل قوة جسدية عصفت بنا ولم تترك عندي حتى شعوراً بالذنب لخيانتي لك، الأمر الذي تتوقعي أن يبدر مني. لم يكن لذلك علاقة بتاتاً بنا.

بالطبع لم تستطع أزومي فهم ما قصدت، ونعتتني بالكاذب القذر. كانت محقة، فلقد نمت مع ابنة عمها من خلف ظهرها، دون كلمة، وليس مرة أو مرتين، بل عشرة أو عشرين مرة. لقد خنتها من البداية. لو تصرفت بشكل مناسب، لما كانت هناك حاجة للخداع! أردت أن أقول لأزومي: أردت النوم مع ابنة عمك، أردت مضاجعتها حتى يحترق دماغي،

ألف مرة في كل وضع يمكن تخيله. ولا دخل لذلك بما بيننا. كان عليَّ تأكيد ذلك منذ البداية، لكني لم أستطع، ولهذا كذبت عليها مراراً. كنت أختلق الأعذار لإلغاء المواعيد معها، ثم أهرع إلى كيوتو لأضاجع ابنة عمها. لم يكن هناك من سبيل للالتفاف على ذلك- كنت الملام.

اكتشفت أزومي الأمر في نهاية شهر يناير/كانون الثاني، بعد عيد ميلادها الثامن عشر بوقت قصير. في شهر فبراير/شباط تقدمت لكل امتحانات الدخول وكنت ذاهباً إلى طوكيو في نهاية شهر مارس/آذار. اتصلت بها قبل مغادرتي عدة مرات، لكنها لم تجب. كتبت لها رسائل طويلة وانتظرت تلقي رد دون جدوى. لم يكن بإمكاني المغادرة هكذا. فكرت أنني لا أستطيع المغادرة وتركها هنا، لكني كنت عديم الحيلة، ولم تكن أزومي تريد أي صلة بي.

في القطار السريع إلى طوكيو، حدقت بكسلٍ في المناظر الخارجية وفكرت في نفسي- من أكون. نظرت إلى يديّ وانعكاس وجهي في النافذة. من أنا بحق الجحيم؟ تساءلت متعجباً. انبعث فيّ كره داخلي شديد لأول مرة في حياتي. كيف يمكن لي فعل شيء من هذا القبيل؟ لكني عرفت السبب. لو أعيد الأمر لفعلت الشيء نفسه مرة أخرى. حتى لو كان عليَّ الكذب على أزومي، كنت سأنام مع ابنة عمها مهما سبب ذلك من ألم لها. أعلم أن ذلك مؤلماً، لكن هذه هي الحقيقة.

لم تكن أزومي الوحيدة التي لحق بها الأذى، فلقد سببت الأذى لنفسي بعمق، وإن لم تكن لدي فكرة آنذاك عن

مدى عمق ذلك الأذى. كان عليَّ تعلم أشياء كثيرة من هذه التجربة، لكن حين أعيد النظر فيها أجد أن كل ما جنيته كان حقيقة واحدة لا يمكن نكرانها، وهي أنني في المحصلة الأخيرة شخص يمكنه القيام بأعمال شريرة. لم أحاول قط إيذاء شخص متعمداً، بالرغم من النوايا الحسنة، حين تقتضي الحاجة يمكنني أن أصبح أنانياً تماماً وحتى قاسياً. كنت من تلك النوعية التي يمكنها، باستخدام عذر مقبول ظاهرياً، أن توقع بشخص يهمها أمره، جرحاً لن يندمل أبداً.

نقلتني الجامعة إلى بلدة جديدة، حيث حاولت مرة أخرى إعادة تكوين نفسي. أن أصبح شخصاً جديداً يمكنه تصحيح أخطاء الماضي. في البدء كنت متفائلاً: كان بإمكاني النجاح، لكن في النهاية ومهما كان المكان الذي ذهبت إليه، لم يكن بوسعي التغير أبداً. اقترفت الخطأ نفسه مراراً وتكراراً، إلحاق الأذى بالآخرين وبنفسي.

راودتني، بعد أن أصبحت في العشرين من عمري بقليل، فكرة: ربما فقدت الفرصة لأن أصبح إنساناً محترماً. ربما كانت الأخطاء التي اقترفتها جزءاً من تكويني الأساسي، جزءاً لا يمكن الفرار منه في وجودي. بلغت القاع وكنت أدري ذلك.

5

كانت الأربع سنوات التي قضيتها في الجامعة مضيعة للوقت. اشتركت في السنة الأولى في بعض المظاهرات وحتى عاركت رجال الشرطة. خرجت في الإضرابات الطلابية وساهمت في التجمعات السياسية. قابلت بعض الشخصيات المتمردة في ذلك الدرب، لكن قلبي لم يكن يوماً متعلقاً بالسياسة، تشابك ذراعي مع أذرع غرباء في المظاهرات لا يشعرني بالراحة، كما سألت نفسي عندما كان علينا رجم رجال الشرطة بالحجارة إن كان ذلك حقاً أنا. هل هذا ما أريد؟ تساءلت. لم أستطع الشعور بالتضامن المطلوب مع من حولي، وسرعان ما فقدت شعارات اليوم القوية ورائحة العنف المهيمن على الشوارع معانيها. صار الوقت الذي قضيته مع أزومي أكثر قيمة في ذهني، لكن لم يكن هناك سبيل للتراجع، فلقد قلت وداعاً لذلك العالم. كانت معظم دروسي مملة جداً ولا شيء يثير اهتمامي. بعد فترة انشغلت بوظيفتي المؤقتة خلال جزء من النهار، فلم أعد أذهب إلى الجامعة. الحظ وحده سمح لي بالتخرج في أربع سنوات. عندما كنت في السنة الأولى، كان عندي صديقة عشت معها ستة شهور. لكن الصداقة لم تنجح. لم تكن عندي أدنى فكرة عما كنت أريد من الحياة.

ما عرفته بعد ذلك أن فصل السياسة قد ولّى. مثل راية منكسة في يوم عديم الريح، ابتلع عالم شاحب دنيوي مبتذل الأمواج الهائلة المزلزلة التي هزت المجتمع بعنف فترة من الزمن.

ساعدني صديق بعد أن تخرجت في الحصول على وظيفة محرر في دار تنشر كتب تعليمية. قصصت شعري ولمعت حذائي واشتريت بذلةً. لم تكن شركة كبيرة، لكن الوظائف المتوفرة لخريج آداب كانت قليلة وصعبة المنال في تلك السنوات، ومع أخذ تقديري السيء وندرة المعارف المؤثرين، رضيت بما توفر لي.

كانت الوظيفة مملة، مع أن الشركة نفسها ليست مكاناً سيئاً للعمل، لكن تحرير الكتب المدرسية لم يكن كافياً لجعل يومي سعيداً بأي شكل من الأشكال. في البدء فكرت: حسناً، سأفعل كل ما بوسعي، وأحاول أن أجد شيئاً له قيمة في عملي. وعليه، قضيت نصف سنة أعمل بأقصى ما عندي من طاقة. هب العمل كل ما لديك ولابد أن يحدث أمراً جيداً. صحيح؟ لكني استسلمت، إذ مهما كانت نظرتك إلى العمل، لم تكن الوظيفة تصلح لي. شعرت كما لو أن نهاية حياتي كانت تحدق في وجهي. كانت الشهور والسنوات تتساقط واحدة إثر أخرى وأنا مصاب بملل شديد. كانت أمامي ثلاث وثلاثون سنة حتى سن التقاعد، وأنا مربوط بسلاسل كل يوم إلى مكتب أحدق في صفحات التصحيح وأحصي السطور وأراجع الإملاء. قد أتزوج فتاة لطيفة وأنجب أطفالاً، ثم

أحصل على العلاوة المعتادة كل سنتين، النقطة المضيئة في وجود متعب. تذكرت ما قالته أزومي لي مرة: «أعلم أنك ستكون شخصاً رائعاً عندما تكبر. ثمة شيء خاص فيك». يؤلمني هذا القول كلما تذكرته. شيء خاص فيَّ يا أزومي؟ إنسِ ذلك. لكني أعرف أنكِ تعلمين ذلك الآن. اللعنة! الجميع يقترفون الأخطاء.

قمت بالعمل الذي كلفت به بشكل ميكانيكي، وقضيت أوقات فراغي أقرأ أو أستمع للموسيقى. العمل إلزام ممل. قررت أن أستغل وقتي حين لا أكون أعمل على أفضل وجه يمكنني فيه إمتاع نفسي. لذا لم أخرج لتناول الشراب مع زملائي الآخرين في العمل، ليس لأنني لا أنسجم معهم، بل لأنني لم أبذل جهداً للتعرف على زملائي على مستوى شخصي. قررت أن يكون وقت فراغي ملكاً لي.

مرت أربع أو خمس سنوات بسرعة البرق. تعرفت على عدة صديقات لكن لم تدم واحدة منهن معي طويلاً. خرجت مع واحدة عدة أشهر، ثم بدأت أفكر: ليس هذا ما أريد. لم أستطع العثور في هذه النساء على شيء كنت في انتظاره. نمت مع اثنتين منهما، لكن لم يكن ذلك شيئاً مهماً. اعتبر هذه المرحلة الثالثة في حياتي - اثنا عشر سنة بين بدء الدراسة الجامعية وبلوغ سن الثلاثين. سنوات خيبة الأمل والوحدة. والصمت. سنوات متجمدة، حين كتمت مشاعري في باطني. انطويت على نفسي. أتناول الطعام وحيداً، أسير وحيداً، أذهب للسباحة والحفلات الموسيقية والسينما وحيداً. لم أشعر بالأذى

أو الحزن. كثيراً ما فكرت في شيماموتو وأزومي وأتساءل أين هما الآن وماذا تفعلان. كل ما قدرته أنهما متزوجتان ولديهما أطفالاً. أدفع أي ثمن لقاء رؤيتهما والحديث معهما ولو حتى ساعة واحدة. مع شيماموتو وأزومي يمكنني أن أكون مخلصاً. أرهقت ذهني من كثرة التساؤل كيف يمكنني العودة إلى أزومي، وكيف أرى شيماموتو ثانية. تصورت روعة ذلك. لم أفعل أي شيء لتحقيق ذلك، لكنهما اختفتا إلى الأبد، وعقارب الساعة تسير في اتجاه واحد. رحت أتكلم مع نفسي وأشرب في الليل وحدي. كنت متأكداً أنني لن أتزوج أبداً.

ذهبت بعد سنتين من بدء العمل مع فتاة تعرج قليلاً. رتب زميل في العمل لقاءً مزدوجاً لي وله. قال لي على مضض: «ثمة مشكلة في أحد ساقيها. لكنها جميلة وشخصيتها عظيمة. أعلم أنك ستحبها. ولن تلاحظ الساق التي تجرها قليلاً».

أجبت: «ليست هذه مشكلة «في الواقع لو لم يذكر ساقها العرجاء لكنت قد رفضت عرضه، فلقد سئمت المواعيد المزدوجة واللقاءات المفاجئة دون معرفة مسبقة، لكن حين سمعت عن ساقها لم أرفض.

لا تلاحظ الساق التي تجرها قليلاً.

كانت الفتاة صديقة صاحبة صديقي، حيث إنهما صديقتان من أيام المدرسة الثانوية: كانت صغيرة الحجم جميلة الهيئة. جمال مكبوت يذكرني بحيوان صغير في أعماق غابة لا يظهر وجهه إلا نادراً. ذهب أربعتنا إلى السينما في صباح يوم أحد ثم تناولنا الغداء معاً. لم تنبس بالكاد ببنت شفة. حاولت

جهدي الاختلاء بها جانباً لكني فشلت. ابتسمت ثم لاحقاً افترقنا عن الآخرين. ذهبت وإياها للسير في حديقة هيبيا، حيث شربنا بعض القهوة. جرت ساقها اليمنى وليس اليسرى مثل شيماموتو. طريقة لفها كانت مختلفة أيضاً، ففي الوقت الذي كانت شيماموتو تدير ساقها قليلاً عند الحركة إلى الأمام، كانت هذه الفتاة تصوب رأس قدمها إلى الجانب قليلاً وتجرها بخط مستقيم إلى الأمام. مع ذلك، كانت طريقة السير متشابهة بشكل كبير. كانت ترتدي كنزة ذات ياقة مرتفعة وسروال جينز وحذاءً صحراوياً عالي الساق. لم تكن تضع مساحيق تجميل وشعرها مربوط في ضفيرة ذيل حصان. بالرغم من قولها إنها في السنة الجامعية الأخيرة، إلا أنها بدت أصغر سناً. لم أستطع معرفة إن كانت هادئة أو أنها عصبية بسبب مقابلة شخص أول مرة. ربما لم يكن لديها ما تقوله.

أيا كان، لم يمكن لي أن أدعو مقابلتنا المبدئية حديثاً. كل ما استطعت معرفته منها أنها كانت تدرس علم العقاقير في جامعة خاصة.

سألت: «علم العقاقير؟ هل هذا موضوع مثير للاهتمام؟» كنا في مقهى الحديقة نشرب القهوة.

احمر وجهها خجلاً.

قلت: «نعم، لا بأس. ليس تحرير الكتب المدرسية أفضل نشاط مثير في العالم أيضاً. العالم مليء بالأشياء المملة. لا تقلقي».

فكرت قليلاً وأخيراً فتحت فمها لتقول: «ليس موضوعاً مثيراً للاهتمام. لكن والداي يملكان صيدلية».

«هل يمكنك أن تعلميني شيئاً عن علم العقاقير؟ لا أعرف شيئاً عنه. لا أظن أني تناولت حبة واحدة من أي عقاقير!»

«إذاً أنت في صحة جيدة».

قلت: «ولا تصيبني آثار متخلفة من الماضي. عندما كنت صغيراً كنت كثير المرض، وأتناول أدوية عديدة. كنت طفلاً وحيداً ووالديّ يبالغان في وقايتي من الأمراض».

أومأت برأسها وحدقت في فنجان قهوتها للحظة. مرّ وقت طويل قبل أن تتكلم ثانية.

قالت: «علم العقاقير ليس أكثر المواضيع إثارة. لابد أن هناك ملايين الأشياء أكثر مرحاً من حفظ مقادير مكونات الأدوية. إنه ليس موضوعاً رومانسياً مثل علم الفلك، ولا درامياً مثل أن تصبح طبيباً. لكن هناك شيء حميمي فيه، شيء أشعر بأني قريبة منه. شيء قريب من الحياة».

قلت: «حقاً!» يمكنها الكلام إذن. كل ما في الأمر أن العثور على الكلمات يستغرقها وقتاً أطول.

سألت: «هل لديك أي أخوة وأخوات؟»

«أخوان أكبر مني. واحد متزوج».

«إذن أنت تدرسين علم العقاقير لأنك ستديرين محل العائلة؟»

تورد وجهها ثانية. صمتت للحظات طويلة: «لا أدري. أخواي لديهما وظائف، ربما سينتهي بي الأمر لإدارة المحل. لكن لم يتقرّر شيء بعد. إذا لم أحب الأمر، لا بأس، أبي يقول. سيدير المحل قدر استطاعته، ثم يبيعه».

أومأت برأسي وانتظرتها لتكمل.

«لكن أعتقد أني سأدير المحل. بهذه الرجل من الصعب عمل شيء آخر».

وهكذا تكلمنا وقضينا بعد الظهر معاً، بوقفات عديدة وانتظار طويل لأن تكمل حديثها. كانت تحمرّ وتخجل كلما سألتها سؤالاً. استمتعت بحديثنا، الذي بدا لي آنذاك إنجازاً. شعرت وأنا جالس هناك معها بشيء قريب من الحنين ينبعث في داخلي. بدأت تبدو كشخص عرفته طوال عمري.

ليس لأني انجذبت لها، فلم يحدث ذلك. كانت فتاة لطيفة واستمتعت بالوقت الذي قضيته معها. كانت فتاة جميلة وكما قال صديقي تبعث السرور في النفس. لكن بالرغم من كل هذه النقاط الحسنة، عندما سألت نفسي إن كان هناك فيها ما يعصف بي وينطلق بسرعة هائلة ليدلف قلبي، كان الجواب لا. لا شيء.

شيماموتو فقط فعلت ذلك بي. هاك أنا، أستمع إلى هذه الفتاة وأفكر طوال الوقت في شيماموتو. أعرف أنه لا ينبغي فعل ذلك، لكن هذا ما جرى. مجرد التفكير في شيماموتو جعل كل جسدي يرتعش، بعد كل هذه السنوات. إثارة حمّى

خفيفة، كما لو دفعت باباً عميقاً في داخلي بلطف. كان ذاك الشعور بالارتعاش مفقوداً أثناء السير مع هذه الفتاة الجميلة العرجاء في حديقة هيبيا. ما شعرت به نحوها كان نوعاً من الشفقة والسكون.

كان بيتها - أي الصيدلية - في كوبيناتا. صحبتها إلى هناك في الحافلة. جلست بجانبها وبالكاد نطقت كلمة.

بعد أيام، جاء صديقي في العمل وأخبرني أنه يبدو إن الفتاة قد مالت لي. قال: «في إجازتنا المقبلة، لم لا نذهب نحن الأربعة إلى مكان معاً؟» اختلقت عذراً وانسحبت. ليس لأنني لا أريد رؤيتها والحديث معها ثانية. في الواقع، أردت أن أتحدث معها في فرصة أخرى. في ظروف أخرى قد نصبح أصدقاء. لكن اللقاء كان عبر موعد مزدوج الهدف منه العثور على رفيق حياة. لذا لو طلبت منها الخروج معي ثانية، لكنت تحملت مسؤولية ما. والتسبب في جرح مشاعرها كان آخر ما أردت. كل ما كان بوسعي فعله الرفض.

لم أرها ثانية في حياتي.

6

ظهرت في تلك الفترة امرأة أخرى تعرج، في مصادفة غريبة لا أفهم معناها حتى اللحظة. كنت في الثامنة والعشرين عندما حدثت.

كنت سائراً في شيبويا بين جموع آخر السنة، عندما رأيت امرأة تجر ساقها مثلما كانت تفعل شيماموتو تماماً. كانت ترتدي معطفاً طويلاً أحمر اللون وتضع حقيبة يد جلدية سوداء لامعة تحت ذراعها، وفي معصمها الأيسر ساعة فضية أقرب إلى سوار. كان كل شيء فيها يوحي بالثراء. كنت في الجهة المقابلة من الشارع عندما لمحتها، فأسرعت إلى نقطة التقاطع في شوارع مكتظة بالحشود لدرجة جعلتني أتساءل من أين يمكن لها أن تأتي، لكن اللحاق بها لم يستغرقني طويلاً. كانت تسير ببطء بسبب عرجها، وتماماً مثل شيماموتو تدير ساقها اليسرى أثناء جرها. لم أستطع رفع عيني عن الانحناء الأنيق المرسوم على ساقيها الجميلين بالجوارب، تلك الأناقة التي يمكن لمراس سنوات طويلة إظهاره.

تبعتها مدة طويلة تاركاً مسافة بيننا. لم يكن من السهل حفظ إيقاع السير معها بين الحشود في الجهة المقابلة. عدلت من إيقاع خطواتي أحياناً بالتوقف للنظر في واجهات المحلات

أو التظاهر بالبحث عن شيء في جيوبي. كانت ترتدي قفازات جلدية سوداء وتحمل كيس مجمّع تجاري أحمر اللون. بالرغم من يوم الشتاء الملبد بالغيوم، كانت ترتدي نظارات سوداء. من الخلف كان كل ما باستطاعتي تبينه شعرها الجميل المصفف بأناقة، والمجعد إلى الخارج على طول كتفها، وظهرها المغطى في ذلك المعطف الأحمر الناعم الدافئ. بالطبع لو أردت أن أرى إن كانت شيماموتو، لكنت قد درت إلى الأمام وألقيت نظرة متفحصة لمعرفة إن كانت هي وكيف سأتصرف؟ ربما لن تتذكرني وكنت بحاجة لوقت لجمع شتات أفكاري. أخذت نفساً عميقاً لأصفي ذهني.

حرصت على عدم تجاوزها وداومت على متابعتها. لم تنظر خلالها قط إلى الخلف أو تتوقف، ونادراً ما كانت تنظر حولها. بدا أنها تتجه إلى مكان ومصممة على بلوغه بأسرع ما يمكن. مثل شيماموتو، كانت تسير منتصبة القامة ورأسها مرتفعاً. بالنظر إليها من فوق خصرها، لا يمكن لأحد أن يشك أن شيئاً غير طبيعي في ساقها. كانت تسير أبطأ من الناس، هذا كل ما في الأمر. كلما أمعنت النظر فيها أكثر، كلما تذكرت شيماموتو أكثر. إن لم تكن شيماموتو، فلابد أنها توأمها.

خرجت المرأة من بين الحشود أمام محطة شيبويا واتجهت صاعدة المرتفع إلى أوياما. قلل التل من سرعة سيرها، مع أنها قطعت مسافة لا بأس بها، تساءلت لماذا لم تأخذ عربة أجرة. كانت المسافة طويلة حتى بالنسبة لإنسان سليم. مع ذلك استمرت في سيرها، تجر ساقها وأنا أتبعها

تاركاً مسافة معتبرة بيننا. لم يشد عينيها أي شيء في واجهات المحلات. بدلت حقيبتها وكيس تسوقها عدة مرات من اليد اليمنى إلى اليسرى، باستثناء ذلك استمرت في سيرها، دون أي تبديل في إيقاع خطواتها.

أخيراً تركت الشارع الرئيسي المزدحم. بدا أنها تعرف المنطقة جيداً. خطوة واحدة بعيداً عن منطقة التسوق الصاخبة تدخل المرء شارعاً سكنياً هادئاً. تبعتها مع الحرص أن لا أفقدها بين جموع الناس الأقل اكتظاظاً.

لابد أني تبعتها مدة أربعين دقيقة. هبطنا الشارع الخلفي، ودرنا حول بضع زوايا ودلفنا الشارع العام الرئيسي مرة أخرى، لكنها لم تنضم إلى انسياب المارة. عوض ذلك، دخلت مباشرة مقهى يبيع أيضاً الكعك والحلوى، كما لو أنها خططت لذلك مسبقاً. قضيت عشر دقائق أو ما يقارب ذلك أتمشى ذهاباً وإياباً، ثم تبعتها إلى الداخل.

كان الدفء خانقاً في الداخل، وقد جلست وظهرها إلى الباب دون أن تخلع معطفها الثقيل. لم يكن من الممكن عدم ملاحظة معطفها الأحمر. جلست بعيداً عن المدخل وطلبت فنجاناً من القهوة. أخذت صحيفة ملقاة على المنضدة وتظاهرت بالقراءة، وأنا أراقب ما تفعله. بقي فنجان القهوة على الطاولة دون تمسه طوال مراقبتي لها. أخذت سيجارة من حقيبتها اليدوية وأشعلتها بولاعة ذهبية، باستثناء ذلك جلست دون حركة تحدق في الخارج عبر النافذة. ربما كانت تأخذ قسطاً من الراحة، أو لعلها كانت مستغرقة في تفكير عميق في مسألة

مهمة. بدوري قرأت المقالة نفسها عشر مرات وأنا أحتسي قهوتي.

بعد وقت طويل وقفت بشكل مفاجيء واتجهت صوبي. حدث الأمر بشكل مباغت حتى خلت أن قلبي قد توقف عن النبض. غير أنها لم تكن قادمة صوبي، إذ مرت بي وذهبت إلى الهاتف، حيث وضعت فيه بعض القطع النقدية واتصلت برقم ما.

لم يكن الهاتف بعيداً عن المكان الذي أجلس فيه، لكن مع كل أصوات الحديث المرتفعة وأغاني عيد الميلاد التي تبثها مكبرات الصوت لم أسمع ما كانت تقول. تكلمت مدة طويلة. بردت قهوتها التي لم تلمسها. عندما مرت بي، رأيت وجهها من الأمام، لكني لم أكن متأكداً إن كانت شيماموتو أو لا. كانت مساحيق وجهها كثيفة ونصف وجهها مخفي بتلك النظارات الشمسية. من الواضح أن جفونها مرسومة وشفتاها اللامعتان مشدودتان معاً بقوة. ذكرني وجهها بشيماموتو في صغرها، لكن لو قال شخص إنها ليست هي، من الممكن أن أصدقه. على كلٍ، آخر مرة رأيت فيها شيماموتو كانت عندما كان كلانا في الثانية عشر، ولقد مرت أكثر من خمس عشرة سنة على ذلك. كل ما بوسعي قوله يقيناً إن هذه امرأة شابة جذابة في العشرين من عمرها عرجاء وترتدي ملابس فاخرة.

نضح العرق وانزلق على جسدي حتى بلل قميصي الرياضي. خلعت معطفي وطلبت فنجان قهوة آخر. سألت نفسي: «ماذا تظن نفسك فاعلاً؟» كنت قد فقدت قفازي

وخرجت إلى شيبويا لشراء غيره. لكن ما أن رأيت هذه المرأة حتى تبعتها مثل شخص مسكون. معظم الناس قد يذهبون إليها مباشرة ويقولون: «عذراً، ألست الآنسة شيماموتو؟» لكني لم أفعل. لم أقل شيئاً، وتبعتها. أخيراً، وصلت إلى نقطة اللاعودة.

بعد الانتهاء من مكالمتها الهاتفية، عادت المرأة إلى مقعدها، ومثل المرة السابقة أدارت ظهرها لي، وراحت تحدق في المشهد الخارجي. جاءت النادلة وسألت إن كان بإمكانها أخذ قهوتها الباردة. لم أسمع ما قالته، لكن أظن أن هذا ما جرى. التفتت المرأة وأومأت برأسها. يبدو أنها طلبت فنجاناً آخر من القهوة، لم تلمسه أيضاً عندما جُلب لها. داومتُ على النظر في الصحيفة. كررت رفع معصمها لترى الوقت في ساعتها الفضية، كما لو أنها تنتظر أحداً بفارغ الصبر. لعل هذه فرصتي الأخيرة، قلت في سريرتي. إذا جاء الشخص الآخر، لن أتمكن قط من الحديث معها. غير أني بقيت مزروعاً في مقعدي.

لا بأس قلت في سري، لا داعي للتسرع.

لم يحدث شيئاً لمدة ربع أو ثلث ساعة. بقيت تحدق في الشارع الخارجي. فجأة ودون سابق إنذار، وقفت بهدوء، وضعت حقيبة يدها تحت إبطها وحملت كيس التسوق في يدها. يبدو أنها سئمت الانتظار، أو ربما لم تكن في انتظار أحد أصلاً. راقبتها وهي تدفع الحساب وتغادر المقهى. وقفت عندئذ بهدوء، دفعت حسابي وخرجت خلفها. كان بإمكاني

رؤية معطفها الأحمر يشق طريقه بين الحشود. تبعتها وأنا أشق طريقي في الزحام.

رفعت يدها في محاولة لإيقاف عربة أجرة. أخيراً، أطفأت عربة نورها وتوقفت قرب حافة الرصيف. فكرت أن عليَّ أن أنادي عليها. سينتهي كل شيء إذا ركبَت العربة. حين خطوت إلى الأمام أمسك شخص بمرفقي بقوة حَبَسَتْ أنفاسي. لم تؤلم لكن شدة القبضة أوقفتني. التفت لأرى وجهاً لرجل متوسط العمر يحدق بي.

كان الرجل أقصر مني بمقدار إنشين، لكنه قوي البنية وفي منتصف الأربعينات من عمره على ما أعتقد. كان يرتدي معطفاً داكناً بني اللون ووشاحاً من الكشمير، كلاهما يبدو باهظ الثمن. كان مفرق شعره في غاية الدقة ويلبس نظارات مصممة من عظم ظهر سلحفاة. كانت بشرته التي لوحتها الشمس توحي بأنه رياضي. تزلج على الجليد، تساءلت، أو ربما كرة مضرب. تذكرت كيف أن بشرة والد أزومي، الذي أحب كرة المضرب كانت من هذه النوعية. بدا الرجل مثل مدير مؤسسة ثرية أو ربما مثل موظف مهم. كانت عيناه تنمان عن رجل اعتاد على إعطاء الأوامر .

سأل بهدوء: «هل تريد بعض القهوة؟»

تبعت الرجل بعيني. أثناء انحنائها لركوب العربة، ألقت نظرة عبر نظارتها في اتجاهنا. على الأقل بدا لي أنها نظرت صوبنا. أقفل باب العربة واختفت عن الأنظار. تُركت مع هذا

الرجل القوي متوسط العمر.

قال الرجل بنبرة صوت هادئة: «لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً». لم يكن غاضباً ولا مثاراً. داوم على القبض على ذراعي بقوة كما لو كان يفتح باباً لشخص ما. «لنشرب بعض القهوة ونتحدث!» كان بإمكاني الذهاب وقول إنني لا أريد أي قهوة وليس هناك ما أتحدث عنه معك. أولاً، لا أعرف من تكون وعذراً أنا في عجلة من أمري. لكنني لزمت الصمت وحدقت به. أخيراً، أومأت برأسي وفعلت ما طلبه. تبعته إلى المقهى. ربما كنت خائفاً من هذه القبضة القوية. كان بإمكاني الشعور بقوة غريبة ثابتة فيها، قوة آلة أكثر من قوة إنسان. كانت قبضة محكمة لا يضعف ضغطها. ماذا كان من الممكن أن يفعل لي لو رفضت اقتراحه؟ لم أقدر على تصور ذلك. لكن حب استطلاعي عَادَلَ خوفي. أردت أن أعرف ماذا يمكن أن يقول لي. ربما سيقود ذلك إلى بعض المعلومات عن المرأة. الآن وقد اختفت، صار هذا الرجل الصلة الوحيدة لي بها. علاوة على ذلك، لن يقوم الرجل بضربي في مقهى، أليس كذلك؟

جلسنا متقابلين دون أن ننطق كلمة حتى جاءت النادلة، وطلب الرجل فنجانين من القهوة.

سألني بأدب: «لماذا، إذا سمحت لي بالسؤال تبعتها طويلاً؟»

لم أستطع الإجابة.

رمقني بعيون خالية من التعبير وبقوة للحظات.

قال: «أعرف أنك كنت تتبعها طوال الطريق من شيبايو. إذا تبعت شخصاً كل هذه المسافة، من المؤكد أنه سيلاحظ ذلك».

لم أجب. لقد عرفت أني كنت أتبعها وذهبت إلى المقهى لتتصل بهذا الرجل.

«إذا كنت لا تود قول أي شيء، لا بأس. أعرف دون أن تخبرني بذلك».

كان يمكن أن تكون مشاعره ثائرة، لكن من الصعب معرفة ذلك من طريقته المؤدبة الهادئة في الحديث.

قال: «هناك عدة خيارات وأنا لا أمزح. صدقني أن كل ما أشعر بفعله يمكنني القيام به».

بعد ذلك صمت وداوم على النظر إليَّ. كما لو أنه يريد إبلاغي رسالة أنه ليس بحاجة إلى تفسير، حيث إنه يسيطر على الوضع. كالسابق لم أقل شيئاً. قال: «لكني لا أريد أن تخرج الأمور من اليد. لا أريد عمل مشكلة. هل تفهمني؟ هذه المرة فقط؟» رفع يده اليمنى، التي كانت على الطاولة ومدها داخل جيبه وأخرج مغلفاً أبيض اللون. ترك يده الأخرى طوال الوقت على الطاولة. لم يكن المغلف مميزاً، مجرد مغلف أبيض، «خذ هذا ولا تقل كلمة، أعلم أن شخصاً طلب منك فعل ذلك، أود أن أنهي المسألة حبياً. لا كلمة عما جرى. لم يحدث لك شيئاً غير عادي هذا اليوم، ولم تقابلني قط. هل

تفهم؟ إذا بحت بأي كلمة، كن على ثقة بأني سأجدك واهتم بالمسألة. لذا، أريدك أن تنسى اللحاق بها. لا أحد منا يريد مشاكل. صحيح؟»

وضع الرجل المغلف أمامي ووقف. التقط الفاتورة ودفع الحساب وخرج من المقهى. جلست هناك مصعوقاً. أخيراً، أخذت المغلف عن الطاولة ونظرت داخله. كانت هناك عشرة أوراق مالية من فئة العشرة آلاف ين. أوراق مجعدة وأخرى جديدة. جف فمي. وضعت المغلف في جيبي وغادرت المقهى. نظرت حولي لأتأكد أن الرجل لم يكن في الجوار، ثم أشرت إلى عربة أجرة وعدت إلى شيبايا، إلى حيث بدأت الورطة .

بعد سنوات، كان المغلف ما يزال مع أموالي دون أن أفتحه مرة أخرى، وضعته في درج في مكتبي. أرى وجه الرجل في الليالي التي يجافيني فيها النوم. كان وجهه يطفو في ذهني بوضوح مثل هاجس سيء الطلعة. من كان الرجل بحق الجحيم؟ وهل كانت المرأة شيماموتو؟ توصلت إلى عدة نظريات. كانت أحجية دون حل. أفكر في فرضية ثم أتخلى عنها. كان أكثر تفسير مقنع أن هذا الرجل عشيق المرأة، وظن أنني تحرٍ خاص استأجره زوجها لمعرفة تحركاتها. ظن الرجل أنه يمكن أن يشتري سكوتي بالمال. ربما فكر كلاهما أني رأيتهما يغادران فندقاً حيث كانا متواعدين. بدا ذلك منطقياً، لكن حتى لو صح ذلك، كان إحساسي الداخلي يقول عكس ذلك، وبقيت أسئلة عديدة دون إجابات. قال لو أراد فإن هناك عدة أشياء بإمكانه فعلها، لكن ما هي الأشياء التي عناها؟

لماذا استطاع القبض على ذراعي بهذه الطريقة غير المتوقعة؟ لو عرفت المرأة أني كنت أتبعها لماذا لم تأخذ عربة أجرة في الحال؟ كان بإمكانها الهرب في دقيقة، ولماذا ألقى لي هذا الرجل بمغلف مليء بالنقود دون أن يعرف من أكون؟

بقي ذلك لغزاً. أحياناً أفكر أن المسألة برمتها كانت وهماً من البداية حتى النهاية، مجرد خيال اختلقته في ذهني، أو ربما حلم واقعي طويل خُلط بطريقة ما بالواقع. لكن هذا حدث بالفعل، إذ إن في داخل الدرج مغلفاً أبيض فيه عشرة أوراق مالية من فئة العشرة آلاف ين، مما يثبت أن ذلك لم يكن حلماً. لقد حدث هذا فعلاً. أحياناً أضع المغلف فوق مكتبي وأحدق به. لقد حدث هذا بالفعل.

7

تزوجت عندما كنت في الثلاثين من عمري. قابلت زوجتي أثناء عطلة صيفية كنت أسافر فيها وحدي. كانت تصغرني بخمس سنوات. كنت أمشي في طريق في الريف حين بدأ المطر في الهطول. تواريت في أقرب مكان وجدته تجنباً للعاصفة، وكانت هناك مع صديقة لها. كان ثلاثتنا قد أصابه البلل حتى العظم ورحنا نتكلم ونحن في انتظار توقف المطر. لو لم تمطر آنذاك، لو كانت معي مظلة (وهو ما كان ممكن تماماً حيث إني فكرت في الأمر قبل خروجي من الفندق) لما كنت قد قابلتها. ولو لم أقابلها لما زلت أعمل كعبد عند ناشر الكتب المدرسية، وما زلت متكئاً على الحائط في شقتي في الليل، وحيداً أشرب وأثرثر مع نفسي. جعلني ذلك أدرك كم هي محدودة إمكانياتنا.

انجذبنا أنا ويوكيكو بعضنا إلى بعض منذ البداية. صديقتها كانت أجمل كثيراً، لكنني أعجبت بيوكيكو فقط. جذبتنا قوة غير معقولة معاً. كنت قد نسيت الإحساس بتلك النوعية من المغناطيسية. كانت تعيش في طوكيو أيضاً، لذا بعد عودتنا خرجنا مع بعضنا، وكلما قابلتها أكثر كلما ملت إليها أكثر. كانت بسيطة وليست من النوع الذي يجذب الرجال إليها

أينما حلت. لكن كان هناك شيء في وجهها خلق لي وحدي. كنت أمعن النظر فيها جيداً كلما تقابلنا. وأحببت ما رأيت .

كانت تسأل: «لماذا تحدق بي؟»

فأجيب: «لأنك جميلة»

فتقول: «أنت أول من يقول لي ذلك!»

أخبرها: «أنا الوحيد الذي يدري، وصدقيني أني أعرف!»

في البدء لم تصدقني. لكنها اقتنعت لاحقاً.

كنا نذهب إلى مكان هادىء ونتكلم، حيث كنت قادراً على إخبارها أي شيء بصراحة ودون تحفظ. كان بمقدوري الإحساس بوزن كل ما فقدته في السنوات العشر الماضية، كل تلك السنوات التي ذهبت هباء منثوراً، كانت تثقل كاهلي. كان عليَّ استعادة بعضها قبل أن تفوت. شعرت وأنا أحضن يوكيكو بحركة بإثارة وحنين مر منذ أمد بعيد، عاد يسري في عروقي. وعندما نودع بعضنا بعضاً، أشعر بأني ضائع مرة أخرى. كانت الوحدة تؤلمني والصمت يغضبني. قبل أسبوع من بلوغي الثلاثين وبعد خروجنا معاً لثلاثة أشهر، تقدمت لها.

كان والدها رئيس شركة بناء متوسطة الحجم، وعصامي حقاً. بالكاد دخل المدرسة، مع ذلك حقق نجاحاً - عدواني قليلاً قياساً لذوقي. مع ذلك، دهشت لنظرته الفريدة إلى الحياة. لم أقابل شخصاً مثله من قبل. كان يتنقل في طوكيو في سيارة مرسيدس يقودها سائق، لكنه لم يكن قط مغروراً. عندما ذهبت

لمقابلته وطلب يد ابنته، كان كل ما قاله: «أنتم لستم أطفالاً، لذا إذا كنتما تحبان بعضكما بعضاً فهذا أمر يعود لكما». . لم أكن صيداً سميناً كعريس، موظف بلا قيمة في شركة بلا قيمة، لكن ذلك لم يزعجه.

كان ليوكيكو أخاً أكبر وأختاً أصغر منها. كان الأخ نائب رئيس شركة البناء وسيصبح الرئيس. لم يكن سيئاً، لكن والده كان مسيطراً عليه. الأخت الصغرى كانت الوحيدة بين الثلاثة التي تدرس في الجامعة والأكثر انفتاحاً والمعتادة على فعل ما تريد. ربما كان من الممكن أن تكون رئيساً للشركة أفضل من أخيها.

بعد ستة أشهر من زواجنا طلب مني والد يوكيكو زيارته. سمع من زوجتي أنني لست سعيداً في عملي في شركة النشر، وأراد أن يعرف إن كنت أخطط لترك عملي.

قلت: «ليست عندي مشكلة في الاستقالة. المشكلة ماذا سأفعل لاحقاً».

سألني: «ما رأيك بالعمل لصالحي؟ سأقوم أنا بالعمل الصعب، ولن يستحق عملك ما سأدفعه لك».

قلت بصدق: «حسناً، أعلم أني لم أخلق للعمل في تحرير الكتب المدرسية، لكن لا أعتقد أن العمل في شركة بناء يصلح لي أيضاً. أقدر عرضك لكن هذا العمل لا يثير اهتمامي، وسينتهي الأمر برمته غلى وضع أكثر إزعاجاً مما يستحق».

أجاب: «ربما أنت محق. لا ينبغي إجبار الناس على فعل ما لا يريدون». بدا كأنه توقع هذه الإجابة. كنا نحتسي بعض الشراب. ابنه بالكاد لمس الكحول، لذا كنت وإياه نشرب أحياناً معاً. «بالمناسبة، شركتي تبني بناء في أوياما وسينتهي الشهر المقبل. الموقع جيد وسيكون مكاناً معتبراً. الآن هو خارج المنطقة النشطة، لكن المنطقة في مرحلة النمو. كنت أفكر ربما يمكنك أخذ محل هناك. المكان ملك الشركة، لذا عليك دفع الدفعة الأولى والأجر، إذا أحببت ذلك، يمكنك أن تستدين مني قدر ما تريد».

فكرت للحظة، كانت الاحتمالات مثيرة للاهتمام.

وهكذا فتحت بار موسيقى جاز في الطابق السفلي من بناية جديدة في أوياما. كنت قد عملت في بار في الجامعة، لذا كانت مهنة إدارة بار مألوفة لي - أي نوع من الطعام والشراب ينبغي تقديمه، الموسيقى والأجواء، نوعية الزبائن الذين ترمي لجذبهم وما إلى ذلك. تكفلت شركة والد زوجتي بالديكور الداخلي. جلب شركة ديكور داخلي من الطراز الأول للقيام بذلك. كان سعرهم ويا للدهشة معقولاً، وعندما انتهى العمل في البار كان شيئاً يشد النظر.

فاق نجاح البار أقصى أحلامي، وفي غضون سنتين فتحت باراً آخر في أوياما أيضاً. كان الثاني أكبر حجماً وتعزف فيه فرقة ثلاثية موسيقى الجاز حية. اقتضى ذلك كثيراً من

الوقت والجهد ناهيك عن المبالغ الكبيرة، لكني حصلت على بار مشهور وفريد من نوعه. قمت بعمل معقول بالفرصة التي أتيحت لي وشعرت في النهاية بأنني قادر على الراحة. لم يكن مولد ابنتي الأولى مجرد صدفة. في البدء كنت أساعد في عمل البار حيث أقوم بمزج الكوكتيل، لكن بعد افتتاح البار الثاني أصبحت مشغولاً بالأعمال الجانبية. كان عليَّ التأكد أن كل شيء يسير على ما يرام، ومناقشة الأسعار واختيار العمال ومسك دفاتر الحسابات. كما أضفت بنسين على قائمة الأسعار. من المدهش أني لم أكن سيئاً في مثل هذا النوع من الأعمال. أحببت عملية البدء من نقطة الصفر وخلق شيء ورؤيته حتى يصبح كاملاً تماماً. كان ذلك باري وعالمي الصغير. هل يمكنك العثور على هذا النوع من السعادة في تحرير الكتب المدرسية؟ من غير الممكن.

كنت أهتم بالأعمال خلال النهار، وفي الليل أقوم بجولة على البارين لأتفحص الكوكتيل وأرى أن طعمه جيد، وأراقب رد فعل الزبائن وأتأكد أن عمالي على قدر تحمل المسؤولية. وكنت استمع للموسيقى. كل شهر أدفع لوالد زوجتي جزءاً من ديني له، ومع ذلك كنت أحقق أرباحاً جيدة. اشتريت ويوكيكو شقة من أربع غرف نوم في أوياما وسيارة BMW320، ورزقنا بابنة ثانية. قبل أن أدري ما حدث لي أصبحت والداً لبنتين.

حين أصبحت في السادسة والثلاثين، اشتريت كوخاً في هاكوني وسيارة جيب شيروكي ليوكيكو للتسوق وأخذ الفتاتين للتنزه. كان بإمكاني فتح بار ثالث بأرباح البارين، لكني لم

أرغب في التوسع. مراقبة تفاصيل بارين كان كافياً، وأكثر من ذلك كان سيصيبني فتح بار آخر بالإرهاق. كان يجهدني العمل في البارين. ناقشت ذلك مع والد زوجتي فاقترح وضع بعض المال الفائض في البورصة والعقار. أمر لا يحتاج إلى وقت وجهد، كما أخبرني. لكني كنت لا أعرف شيئاً عن البورصة أو تجارة الأراضي. قال لي: «اترك التفاصيل لي. إذا فعلت ما أشير به عليك، سيكون كل شيء على ما يرام. وبالتأكيد في فترة قصيرة جنيت ربحاً كبيراً .

سألني: «الآن فهمت الأمر، صحيح؟ هناك براعة خاصة في الاستثمار. يمكن أن تعمل مئة سنة في شركة ولن تحقق نجاحاً. تحتاج لكي تنجح إلى الحظ والعقل. هذه هي الأساسيات، لكنها ليست كافية. تحتاج إلى رأس المال، قليل من رأس المال وتصبح يداك مغلولتين. لكن أهم من كل شيء أنت بحاجة إلى البراعة، التي بدونها كل هذه الأمور الأخرى لن توصلك إلى مكان».

قلت: «أعتقد أنك على صواب. علمت ما كان يرمي إليه. كانت البراعة التي يتحدث عنها هي النظام الذي ابتكره. نظام متماسك معقد يولد مبلغاً كبيراً من المال ببناء شبكة علاقات ضخمة، وجمع معلومات حيوية والاستثمار على هذا الأساس. الدخول في شبكة القوانين والضرائب، تغيير مظهرها في العملية، يتضخم الربح المتولد على هذا النحو بإفراط.

لو لم أقابل حماي، لبقيت محررَ كتب مدرسية، يعيش في شقة صغيرة حقيرة في نيشيوجيكوبو، وأقود عربة تويوتا

كورونا مستعملة بمكيف تبريد على وشك الخراب. الآن، وبالرغم من قلة الوقت أجد نفسي مالك بارين في أرقى مناطق المدينة، ويعمل لحسابي أكثر من ثلاثين شخصاً وأكسب أكثر مما جنيت كل حياتي - أو حتى حلمت بكسبه. كان العمل يجري بشكل جيد حتى أن محاسبي استغرب من ذلك. كان للبارين سمعة حسنة. لا أقول إني الوحيد الذي كان بإمكانه فعل ذلك. دون رأسمال حماي وبراعته لما كنت حققت شيئاً.

لكني لم أكن مرتاحاً تماماً لما يجري. شعرت بأني أشرع في السير في طريق قصير غير شريف واستخدم وسائل غير عادلة لأصل إلى ما وصلته. فلقد كنت جزءاً من جيل أواخر الستينات وأوائل السبعينيات الذي أنجب حركة الطلاب المتطرفة. كنا أول من صاح صرخة «كلا «المدوية ضد منطق الرأسمالية المعاصرة، التي التهمت أي مثاليات متبقية من فترة ما بعد الحرب. كانت مثل انفجار حمى والبلد يقف في نقطة تحول حاسمة. وهذا أنا بنفسي، يبتلعني منطق الرأسمالية نفسه واستمتع بموسيقى «رحلات شتوية «لشوبرت وأنا أقود عربة «بي. إم. دبيلو». منتظراً تبدل ضوء إشارة المرور عند تقاطع طرق في أوياما. كنت أعيش حياة شخص آخر وليس حياتي. كم من هذا الشخص الذي أدعوه أنا هو في الواقع نفسي؟ وكم منه ليس أنا؟ هاتان اليدان اللتان تمسكان بالمقود - كم النسبة التي يمكن أن أدعوها ملكي؟ المنظر في الخارج - كم منه كان حقيقياً؟ كلما فكرت ملياً في الأمر أكثر كلما بدا فهمي أقل.

لم أكن غير سعيد ولم أتذمر. كانت يوكيكو امرأة لطيفة مراعية للمشاعر فأحببتها. حين زاد وزنها بعد الولادة بدأت في إتباع حمية وممارسة التمارين الرياضية بجدية. زيادة قليلة في الوزن لم تكن لتزعجني، فلقد كنت أعتبرها مع ذلك جميلة. أحببت صحبتها وأحببت النوم معها. كان فيها شيء يبعث على السكينة. مهما كان الأمر، سأكون ملعوناً لو عدت يوماً إلى نمط الحياة التي كنت أعيشها حين كنت في العشرين - أيام الوحدة والعزلة. الآن، هذه هي الحياة التي أنتمي إليها. هنا أشعر بالحب والحماية، حيث يمكنني حب وحماية الآخرين - زوجتي وأطفالي. كان ذلك الوضع اكتشاف غير متوقع، تجربة جديدة تماماً.

كل صباح أصحب ابنتي الكبرى إلي مدرسة الروضة الخاصة في عربتي، حيث يغني كلانا طوال الطريق مع شريط أغاني أطفال يبثه ستيريو السيارة. قبل الذهاب إلى المكتب الصغير، الذي استأجرته في الجوار، مع ابنتي الصغرى. في الصيف، نقضي عطلات نهاية الأسبوع في كوخنا في هاكوني، حيث نشاهد الألعاب النارية ونبحر في البحيرة ونسير في التلال.

حين كانت زوجتي حامل قمت ببعض المغامرات العاطفية، لكن لا شيء منها جدي. لم أنم مع امرأة واحدة أكثر من مرة أو مرتين. حسناً، ثلاث مرات على الأكثر. لم أشعر قط بإقامة علاقة جدية. كل ما أردته امرأة أنام معها، مثل شركائي. تجنباً للمشاكل، اخترت رفيقات سريري بحذر. ربما

كنت أختبر شيئاً بالنوم معهن، محاولة رؤية ما يمكنني العثور عليه فيهن، وما يمكن أن يجدنه فيَّ.

بعد ولادة طفلتي الأولى وصلتني بطاقة من بيت والداي. كانت بطاقة جنازة واسم امرأة مكتوب عليها. ماتت وعمرها ست وثلاثون سنة. لكنني لم أعرف صاحبة الاسم. كانت البطاقة مرسلة من ناجويا، حيث لا أعرف أحداً هناك. بعد فترة عرفت المرأة الراحلة، كانت ابنة عم أزومي التي كانت تقطن في كيوتو. كنت قد نسيت اسمها تماماً. كان بيت والديها، كما ظهر في البطاقة، في ناجويا.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل معرفة أن أزومي نفسها من أرسلت البطاقة. لا يمكن لشخص آخر فعل ذلك. في البدء، بدا السبب غامضاً، لكن بعد قراءة البطاقة بضع مرات صار بإمكاني معرفة البرودة غير المغفورة التي اتسمت بها. لم تنس أزومي ما فعلت، ولم تسامحني. لابد أنها تعيش حياة بائسة - لا يمكن لامرأة راضية أن ترسل هذه البطاقة، لو كانت كذلك لكتبت كلمة تفسير أو كلمتين.

عادت ذكريات ابنة العم وكل ما يتعلق بها سريعاً: حجرتها، جسدها والجنس الشهواني الذي تقاسمناه. لكن الصفاء التام لهذه الذكريات بالنسبة لي كان قد اضمحل مثل دخان تذروه الرياح. لم أقدر على تصور سبب موتها. ست وثلاثون سنة، عمر غير طبيعي. كان اسمها العائلي على حاله، ما يعني أنها لم تتزوج - أو تزوجت وطلقت.

عرفت المزيد عن أحوال أزومي ومكانها من صديق قديم في المدرسة الثانوية. كان قد قرأ عن «دليل بارات طوكيو «في مجلة «بروتس «ورأى صورتي وعرف أنني أدير بارين في أوياما. جاء في أمسية إلى حيث كنت جالساً في البار وقال: «مرحباً، كيف الحال؟» لا تلميح إلى أنه جاء خصيصاً لزيارتي. صدف وأن كان يشرب مع بعض أصدقائه وجاء ليقول مرحباً. قال: «جئت إلى هذا البار عدة مرات. إنه قريب من مكتبي، لكني لم أعرف أنك المالك. يا له من عالم صغير!»

كنت في المدرسة الثانوية غريباً، وكان هو حاصل على تقدير جيد ويمارس الرياضة ومن النوع الذي تجده في مجلس هيئة الطلاب. كان لطيفاً وليس متطفلاً. رجل ظريف، يلعب في فريق كرة القدم، ضخم الجثة، لكن وزنه قد زاد كثيراً: ذقن مزدوج وطقم من ثلاث قطع مشدود عليه. قال مفسراً: «إن ذلك بسبب الولائم ودعوات الزبائن طوال الوقت. الشركات الكبرى جحيم متحرك. عمل ساعات إضافية، دعوات زبائن، الانتقال في العمل، من يرتكب زلة يرفس على قفاه، ومن ينجز مهمته يترقى. عمل لا يقوم به المحترمون». ظهر أن مكتبه كان في أوياما وقريب من آخر الشارع. تحدثنا عن الأشياء المتوقع الحديث عنها بين أصدقاء الدراسة عندما لا يرون بعضهم بعضاً مدة ثماني عشرة سنة - العمل، الزواج، عدد الأطفال، المعارف المشتركين الذين صادفناهم، هنا ورد ذكر أزومي.

«كانت هناك فتاة تخرج معك آنذاك. كنتما دوماً معاً،

أوهارا أو شيء من هذا القبيل!»

قلت: «أزومي أوهارا »

قال: «صحيح، صحيح. أزومي أوهارا. أتدري لقد رأيتها منذ مدة ليست طويلة».

سألت بدهشة: «في طوكيو؟»

«كلا، ليس في طوكيو. في تويوهاشي».

قلت بدهشة أعظم: «تويوهاشي! تعني تويوهاشي في مقاطعة أيشي؟»

«نعم!»

«لا أفهم، لماذا قابلت أزومي في تويوهاشي؟ ماذا كانت تفعل هناك؟»

بدا أنه أحس بقسوة وجفاف صوتي، تجرأ على القول: «لا أعلم لماذا. كل ما في الامر أني رأيتها، وليس هناك ما أخبرك به. لست متأكداً تماماً أنها هي».

طلب ويسكي آخر بالثلج وأنا كنت أشرب الفودكا.

«لا أهتم إن لم يكن هناك كثير لتخبرني. أود أن أعرف».

قال متردداً: «حسناً، ... ما أعني أني أشعر أحياناً إن هذا لم يحدث بالفعل. شعور غريب كما لو كان حلماً، لكنه حقيقي. كما تعلم يصعب تفسير ذلك».

سألت: «لكنه حدث بالفعل؟»

قال: «نعم !»

«أخبرني إذن!»

أومأ وأخذ وضعاً آخر ورشف قليلاً من شرابه.

«ذهبت إلى تويوهاشي لأن أختي الصغرى تعيش هناك. كنت في رحلة عمل في يوم جمعة، لذا قررت قضاء الليلة في شقتها. هناك قابلت أزومي في مصعد بناية أختي. فكرت إن هذه المرأة صورة طبق الأصل من الفتاة أوهارا، ثم فكرت إن هذا غير ممكن. ليس هناك من سبيل لمقابلتها في مصعد بناية أختي في تويوهاشي. كان وجهها مختلفاً، لم أفهم كيف عرفت أنها هي. بالغريزة ربما».

«لكنها أزومي، أليس كذلك؟»

أومأ برأسه «حدث وأن كانت تسكن في الطابق نفسه الذي تسكن فيه أختي. غادرنا المصعد معاً وسرنا في الرواق في الاتجاه نفسه. ذهبت إلى الشقة التي تسبق شقة أختي ببابين. ثار حب استطلاعي فنظرت إلى الاسم الموجود على الباب، كان أوهارا».

«هل عرفتك؟»

هز رأسه بالنفي. «كنا في الفصل نفسه، لكننا لم نتبادل الحديث قط. علاوة على ذلك، زاد وزني أربعين رطلاً إنجليزياً. لم يكن من الممكن أن تعرفني».

«عجباً، هل كانت فعلاً أزومي؟ اسم أوهارا اسم شائع، ولابد أن هناك من يشبهها»

«سألت السؤال نفسه، لذا سألت أختي أي نوع من النساء هذه الأوهارا! عرضت عليَّ قائمة بأسماء المستأجرين. كما تعلم القائمة التي يضعونها عندما يريدون تقسيم تكاليف الصيانة أو ما شابه. كانت أسماء كل المستأجرين فيها. هناك كان اسم أزومي أوهارا. اسم أزومي مكتوب بالكاتاكانا وليس بالرموز الصينية. بالطبع ليس هناك عدداً كبيراً بهذين الاسمين معاً، أليس كذلك؟»

«ما يعني أنها ما زالت عزباء».

قال: «لم تعرف أختي شيئاً عنها. كانت أزومي أوهارا المرأة اللغز في البناية. ولقد علمت أن لا أحد تكلم معها مرة. إذا ألقيت عليها التحية خلال مرورها بالرواق، تتجاهل ذلك ولا ترد، ولا تجيب إن قرع عليها الباب. لم تكن أكثر قاطني البناية شعبية».

ضحكت وهززت رأسي: «لا يمكن أن تكون هي. أزومي ليست من هذا النوع. طالما كانت منفتحة ودائمة الابتسامة».

قال: «حسناً، ربما أنت على صواب. ربما كانت شخصاً آخر بالاسم نفسه. دعنا نغير الموضوع!»

«لكن هل كانت أزومي أوهارا تعيش وحدها هناك؟»

«أعتقد ذلك. لم ير أحد أي رجل يدخل شقتها، ولا أحد يعلم كيف تعيش. إنها لغز مبهم».

«حسناً، ما رأيك؟»

«في ماذا؟»

«فيها، في أزومي أوهارا التي قد تكون أو لا تكون شخصاً بالاسم نفسه. رأيت وجهها في المصعد. ماذا تظن؟ هل بدت على ما يرام؟»

فكر برهة وأجاب: «حسناً، أعتقد ذلك!»

«ماذا تقصد، حسناً؟»

هز كأس الويسكي، فانبعث صوت خشخشة.

«بالطبع تقدمت في العمر قليلاً. إنها في السادسة والثلاثين، مثلي ومثلك، الميتابولزم يصبح أبطأ، ويزداد الوزن. لا يمكن أن تبقى طالب مدرسة ثانوية إلى الأبد!»

قلت: «أتفق معك»

«لم لا نغير الموضوع؟ لا بد أنها شخص آخر».

تنهدت، وضعت ذراعيَّ على طاولة البار ونظرت إلى وجهه «أنظر، أريد أن أعرف. يجب أن أعرف. بعد أن تركنا المدرسة مباشرة أزومي وأنا افترقنا. كان ذلك أمراً بشعاً. لقد قمت بعمل مشين وآذيت شعورها كثيراً. لم أعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين. ليست لدي فكرة عن مكانها أو ماذا تعمل. لذا أخبرني الحقيقة بكل بساطة دون زخرفة. كانت أزومي، أليس كذلك؟»

هز رأسه: «إذا كان الأمر كذلك، نعم. من المؤكد أنها هي. آسف لإخبارك بذلك».

«بصراحة، كيف حالها؟»

صمت برهة: «أولاً، أريدك أن تعرف شيئاً. كنت في الفصل نفسه معها وكنت أظن أنها جذابة. كانت فتاة لطيفة وشخصيتها محببة وحلوة. لم تكن باهرة الجمال، بل جذابة كما تعلم. هل أنا محق في قولي؟»

أومأت برأسي.

«هل تريد حقاً أن أخبرك الحقيقة؟»

قلت: «تفضل!»

«لكن لن تحب ذلك!»

أخذ رشفة أخرى من الويسكي: «كنت أحسدك كونك معها دوماً. أردت صديقة مثلها أيضاً. الآن بإمكاني إخبارك ذلك. لم أنسها قط. كان وجهها مطبوعاً في ذاكرتي. لذا أن أقابلها صدفة في مصعد - حتى بعد ثمان عشرة سنة - عرفتها في الحال. ما أرمي إليه هو التالي: ليس لدي سبب لأقول شيئاً سيئاً عنها. كانت صدمة لي أيضاً. لقد كان صعباً عليّ أن أقر بذلك. دعني أعبر عنها بالشكل التالي: لم تعد جذابة».

عضضت شفتي: «ماذا تعني؟»

«معظم الأطفال الذين يعيشون في الحي يخافونها».

كررت: «يخافونها؟» نظرت إليه دون أن أفهم ما يقول. لابد أنه اختار الكلمات الخاطئة.

«ماذا تعني يخافونها؟»

«لم لا نتوقف الآن. لا أريد حقاً الخوض في ذلك».

«انتظر لحظة - ماذا تفعل؟ هل تقول شيئاً للأطفال؟»

«لا تقول شيئاً لأي كان كما أسلفت».

«إذن يخافون وجهها؟»

قال: «هذا صحيح».

«هل هناك جرح أو شيء من هذا القبيل؟»

«لا جروح»

«حسناً، ماذا يخافون إذن؟»

أنهى شرابه ووضع الكأس على القاطع. حدق بي طويلاً. بدا مهتاجاً وأكثر من مجرد مرتبك. غير أن شيئاً آخر كان في تعبير وجهه. كان بإمكاني رؤية مسحة على وجهه كما كان الحال في أيام المدرسة. نظر إلى أعلى للحظة، ثم في البعد كما لو يراقب سيلاً دافقاً في مد وجزر. أخيراً، تكلم: «لا يمكنني تفسير ذلك، علاوة على ذلك لا أريد، لذا لا تسألني أكثر. ينبغي أن ترى ذلك بأم عينك لتفهم. من لم ير ذلك بالفعل لا يمكنه أن يفهم».

أومأت برأسي ولم أتكلم، بل داومت على شرب الفودكا. كانت نبرته هادئة، لكن مزيد من الاستفسار قد يوصلنا إلى طريق مسدود.

راح يتكلم عن السنتين اللتين قضاهما في العمل في البرازيل، قال: «لن تصدق لكني صادفت زميلاً من المدرسة

الثانوية في سان باولو، يعمل مهندساً في شركة تويوتا».

ضرب كتفي حين غادر قائلاً: «حسناً، تَغيَّر السنوات الناس بطرق كثيرة، صحيح؟ ليست لدي فكرة عما جرى بينك وبينها سابقاً. لكن مهما كان، لم يكن ذلك خطأ منك. إلى حد ما، كلنا مررنا بهذا النوع من التجارب. حتى أنا، لا هزار. لقد مررت بالتجربة نفسها، وليس هناك ما بإمكانك فعله إزاء ذلك. حياة الآخرين شأنهم. لا يمكنك تحمل المسؤولية. يشبه هذا كما لو كنا نعيش في صحراء، وعليك أن تعتاد على ذلك. هل رأيت فيلم ديزني في المدرسة الابتدائية - الصحراء الحية - ؟

أجبت «نعم».

«عالمنا مثل ذلك بالضبط. يسقط المطر وتزهر الزهور. ينحبس المطر، تذبل وتيبس الزهور والسحالي تأكل الحشرات، والطيور تأكل السحالي. وفي النهاية كلهم يموتون ويجفون. يموت جيل ويأتي آخر، هكذا تسير الحياة. ثمة طرق عديدة للعيش. في النهاية لا يوجد فرق أبداً. كل ما يبقى هي الصحراء».

ذهب إلى بيته وبقيت أشرب في البار وحيداً. بعد أن أقفل البار تلك الليلة، وبعد أن ذهب كل الزبائن، وحتى بعد أن نظف العمال المكان وغادروا، جلست وحيداً. لم أرغب في العودة إلى البيت مباشرة. اتصلت بزوجتي وأخبرتها أن عليَّ أن أهتم ببعض الأعمال وسأتأخر. أطفأت الأضواء وجلست

في العتمة أشرب الويسكي دون ثلج لأن جلب الثلج كان متعباً.

داوم الجميع على الاختفاء، بعض الأشياء تختفي كما لو أنها تود الهرب، وأخرى تخبو ببطء في الضباب الرقيق، ولا يبقى سوى الصحراء.

عندما غادرت البار قبل السَحَر، كان مطر ناعم يتساقط على الشارع الرئيس في أوياما. كنت متعباً. بصمت راح المطر يبلل صفوف العمارات الشاهقة الارتفاع المنتصبة هناك مثل شواهد القبور. تركت سيارتي في موقف البار وسرت إلى البيت على الأقدام. جلست في الطريق على درابزين لأراقب غراباً ضخماً ينعق من فوق أضواء إشارة مرور. بدا شارع الساعة الرابعة صباحاً قذراً رديئاً. وقد ظهر الانحلال والتفسخ في كل مكان، وكنت جزءاً منه، مثل ظل يتوهج على جدار .

8

ما يقارب عشرة أيام بعد ظهور المقالة التي ذكر اسمي ونشرت صورتي فيها في مجلة «بروتس «جاء المعارف القدامى إلى البار لزيارتي ، أصدقاء المدرسة الثانوية. كنت أتساءل حتى اللحظة من يمكن أن يقرأ كل هذه المجلات المتراكمة أمام كل المكتبات. لكن حين ظهرت في واحدة، اكتشفت أن هناك مدمنون على قراءة المجلات أكثر مما أتصور: في صالونات الحلاقة، البنوك، المقاهي، القطارات، وكل مكان يمكن تصوره. هناك أناس أمامهم مجلات مفتوحة كما لو كانوا مسكونين. ربما يخشى الناس أن ليس عندهم ما يقتلون به الوقت، لذا يأخذون أي مجلة تقع تحت أيديهم. لقد كان ذلك أكثر مما تصورت.

على كلٍ، لا يمكنني النظر إلى هذه الوجوه من الماضي كأكثر شيء مثير في العالم. ليس لأنني لم أحب الحديث معهم، إذ إن هذا أصابني بحالة مسرة من الحنين، وبدا أنهم سُرّوا لرؤيتي. لكن بصراحة لم أكترث بالمواضيع التي تحدثوا عنها. كيف تغيرت بلدتنا القديمة، وماذا يفعل زملاء الدراسة الآخرون الآن. كما لو أن هذا يثير اهتمامي. كنت منفصلاً تماماً عن المكان والزمان، علاوة على ذلك، أعاد كل ما

تحدثوا عنه ذكريات تطال أزومي. كل ذكر لبلدتي يجعلني أتصورها وحيدة في شقة كئيبة. قال أصدقائي إنها لم تعد جميلة والأطفال يخافون منها. لم أستطع التخلص من هاتين الجملتين وحقيقة أن أزومي لم تسامحني.

أردت أن أعمل دعاية للبار بالمجان، لكن ليس بعد ظهور المقالة. بدأت أشعر بالندم على السماح للمجلة بكتابة التقرير. آخر ما أردته أن ترى أزومي المقالة. ماذا ستشعر إن رأتني أعيش ببهجة حياة سعيدة دون خشية ظاهرة من الماضي؟

مع ذلك تلاشى قدوم أصدقائي بعد شهر. أظن أن هذه نقطة في صالح المجلات إذ إنها توفر لحظة شهرة للمرء ثم بوف، وينسى. تنفست الصعداء، لكن أزومي لم تأت. لم تكن مشتركة في مجلة «بروتس». بعد أسبوعين، وبعد أن تلاشى كل ضجيج للمقالة، جاء آخر الأصدقاء.

شيماموتو.

كان ذلك في مساء أول يوم اثنين من شهر نوفمبر/تشرين الثاني. هناك على قاطع «عش روبن» (اسم نادي الجاز واسم لحن قديم أحبه) جلست بهدوء ترشف شراب ديكري. كنت أجلس على القاطع نفسه على بعد ثلاثة مقاعد منها غافلاً تماماً حقيقة أنها هي. لاحظت أن امرأة بالغة الجمال قد دخلت البار، لكن هذا كل ما في الأمر. حسبت أنها زبونة جديدة. لو رأيتها من قبل لتذكرتها من فرط جمالها. فكرت أن من تنتظره سيأتي أي كان، ليس لأن النساء لا يشربن وحدهن في البار.

تتوقع بعض النساء أن يأتي الرجال إليهن، وتأمل أخريات أن يأتي الرجال إليهن. كنت أميز بين النوعين دوماً. لم تكن هذه المرأة من النوع الذي يثار بقدوم الرجال إليهن، فهذا يسبب لها إزعاجاً. لهذا السبب لم أولِها اهتماماً. بالطبع ألقيت عليها نظرة فاحصة حين جاءت وكنت أنظر إليها بين فينة وأخرى. كانت تضع مسحة من مساحيق التجميل وترتدي ملابس فاخرة - ثوب حريري أزرق، مع سترة من الكشمير رمادية اللون، تبدو ناعمة كورق البصل. ووضعت على القاطع حقيبة يد تنسجم مع ثوبها تماماً. لم أستطع تقدير عمرها. كل ما بوسعي قوله إنه عمر مناسب.

كان جمالها يأخذ بالألباب، لكني لم أعتقد أنها نجمة سينمائية أو عارضة أزياء، اللاتي كثيراً ما يأتين إلى باري، لكن بالإمكان دوماً معرفة أنهن واعيات لكونهن في عرض عام، الأنا غير المحمولة الملتصقة بالأجواء المحيطة بهن. غير أن هذه المرأة كانت مختلفة. كانت في حالة استرخاء تام ومرتاحة تماماً مع ما حولها. أراحت ذقنها بين يديها على القاطع، هائمة في موسيقى الفرقة الثلاثية، وراحت ترشف الكوكتيل طوال الوقت كما لو كانت تقضي الوقت متأملة في جملة جميلة محكمة. كانت تنظر صوبي بين فينة وأخرى. شعرت بذلك مع أني كنت متأكداً أنها لا تنظر حقاً إليَّ.

كنت أرتدي ملابسي المعتادة - طاقم لوشيانو سوبراني، قميص وربطة عنق أرماني، وحذاء روسيتي. صدق أو لا تصدق لم أكن من النوع الذي يهتم بملابسه. كانت قاعدتي الرئيسة أن

أنفق الحد الأدنى على الملابس. خارج العمل كان الجينز والكنزة كافيين. كانت فلسفتي الخاصة في إدارة عملي أن أرتدي الملابس التي أود أن يرتديها زبائني. وجدت أن هذا يبعث النشاط في العاملين ويخلق جواً رفيعاً أرنو إليه. لذا كلما جئت إلى البار، أكون متأكداً تماماً أنني ألبس طاقماً أنيقاً وربطة عنق.

جلست هناك لأتأكد من أن الكوكتيل يمزج بشكل صحيح، وأراقب الزبائن واستمع إلى موسيقى البيانو. في البدء كان البار مزدحماً، لكن بعد التاسعة بدأ المطر يتساقط فتضاءل عدد الزبائن. بحلول العاشرة لم تبق سوى بضع طاولات مشغولة. لكن المرأة التي على القاطع بقيت وحيدة مع شرابها. ربما لا تنتظر أحداً، ولم تنظر إلى ساعتها مرة واحدة ولا إلى المدخل.

أخيراً أخذت حقيبة يدها وقامت عن مقعدها المرتفع. كانت الساعة تشير إلى قرابة الحادية عشر. إذا أرادت أخذ قطار الأنفاق لتعود للبيت، هذا هو الوقت المناسب. ببطء وبشكل عادي اتجهت نحوي وجلست على المقعد المحاذي لي. شممت أريج عطرها. بعد جلوسها على المقعد أخذت علبة سجائر سيلمز من حقيبتها ووضعت لفافة في فمها. رأيت كل ذلك من طرف عيني.

قالت لي: «يا له من بار جميل!»

رفعت نظري عن الكتاب الذي كنت أقرأه ونظرت إليها

دون استيعاب، ثم فجأة شعرت كأن هواء يضغط على صدري بثقل.

قلت: «شكراً «لابد أنها عرفت أنني المالك «يسرني أنه أعجبك».

نظرت ملياً في عيوني وابتسمت «يعجبني كثيرا». ابتسامة رائعة. فتحت شفتاها بشكل عريض وتشكلت خطوط فاتنة في زوايا عينيها. أثارت ابتسامتها ذكريات عميقة - لكن ما هي؟

أشارت إلى البيانو: «أحب هذه الموسيقى أيضاً. هل معك ولاعة؟» سألت.

لم تكن معي لا ولاعة ولا ثقاب. ناديت على النادل لجلب علبة ثقاب وأشعلت لفافتها.

قالت: «شكراً».

نظرت إليها وأخيراً فهمت.

قلت بانفعال: «شيماموتو!»

قالت بعد برهة ونظرة ضاحكة في عينيها: «استغرق ذلك وقتاً طويلاً. ظننت أنك لن تلاحظ أبداً!»

جلست دون أن أنطق كلمة، أحدق فيها كما لو كنت في حضرة آلة تقنية عالية الدقة سمعت إشاعات عنها فقط. كانت شيماموتو أمامي حقاً، لكنني لم أستطع استيعاب حقيقة الأمر. كنت أفكر فيها منذ مدة طويلة حتى أصبحت على يقين أني لن أراها أبداً.

قالت: «أحب بزتك، إنها جميلة».

أومأت برأسي دون كلمة. لم تستطع الكلمات أن تنساب من فمي.

«هل تعلم شيئاً هاجيمي. أنت أوسم مما كنت وأفضل بنية».

أخيراً استطعت القول: «أسبح كثيراً. بدأت في المدرسة الثانوية، ولم أتوقف حتى الآن».

«السباحة ممتعة. طالما فكرت في ذلك».

قلت: «نعم! لكن من يتدرب يمكنه التعلم، كما تعلمين!»

تذكرت ما أن خرجت الكلمات من فمي ساقها. «ما الذي تتكلم عنه بحق الجحيم؟» ساءلت نفسي. كنت مهتاجاً مرتبكاً أبحث عن الشيء المناسب لقوله، لكن الكلمات عصت على لساني. بحثت في جيوب طقمي عن علبة سجائر، ثم تذكرت أني توقفت عن التدخين قبل خمس سنوات.

راقبتني شيماموتو بصمت. رفعت يدها وطلبت شراباً آخر بابتسامة عريضة. ابتسامة جميلة حقاً. تلك النوعية من الابتسامة التي تود أن تحتفظ بصورتها إلى الأبد.

قلت: «ما زلت تحبين اللون الأزرق، كما أرى».

«نعم أحببته دوماً. ذاكرتك قوية».

«أذكر كل شيء عنك: طريقة بريك لأقلام الرصاص،

عدد قطع السكر التي تضعينها في الشاي».

«كم عددها؟»

«قطعتان »

أغمضت عينيها قليلاً ونظرت صوبي.

بادرتني: «أخبرني شيئاً، هاجيمي. قبل ثمان سنوات - لماذا تبعتني؟»

تنهدت: «لم أكن متأكداً إن كنت أنت أم لا. طريقة سيرك كانت نفسها. لكن شيئاً في المرأة لم يكن يشبهك. تبعتك لأني لم أكن متأكداً. تبعتك ليست الكلمة الصحيحة. كنت في انتظار اللحظة المناسبة للحديث معك».

«لماذا لم تقم بذلك؟ لماذا لم تأت مباشرة وترى إن كنت أنا أم لا؟ كان ذلك أسرع».

أجبت: «لا أدري، منعني شيء من فعل ذلك. صوتي لم يطاوعني».

عضت شفتها قليلاً «لم ألاحظ آنذاك أنه أنت. كل ما فكرت فيه أن شخصاً يتبعني وخفت. حقاً خفت. لكن حين ركبت في عربة الأجرة وهدأت تساءلت هل يمكن أن يكون ذلك هاجيمي؟»

«سيدة شيماموتو، أعطاني شخص شيئاً آنذاك. لا أعرف صلته بك، أعطاني ..».

وضعت سبابتها على شفتيها وهزت رأسها قليلاً.

«دعنا لا نتكلم عن ذلك، هل يمكن؟» بدا أنها تقول «من فضلك، لا تفتح هذا الموضوع ثانية».

سألتني كي تغير الموضوع: «أنت متزوج؟»

أجبت: «لدي طفلتان. بنتان، ما زالتا صغيرتين».

«هذا جميل. أعتقد أن البنات يلائمنك. لا أستطيع تفسير لماذا، لكنهن يلائمنك».

«أعجب من ذلك».

«نعم - إلى حد ما. على الأقل ليس لديك طفلة وحيدة «قالت مبتسمة.

«لم أخطط لذلك. هذا ما حدث».

«أتساءل كيف يشعر من لديه ابنتان؟» قالت.

«بصراحة، أمر غريب. أكثر من نصف أطفال روضة البنات طفلات وحيدات».

لقد تغير العالم منذ أن كنا صغاراً. في المدينة أصبح الطفل الوحيد هو القاعدة وليس الاستثناء».

«أنت وأنا ولدنا قبل الأوان».

قلت: «ربما العالم يدنو منا. أحياناً حين أراهما تلعبان معاً في البيت أدهش. طريقة أخرى مختلفة تماماً في تربية الأطفال. حين كنت طفلاً، كنت ألعب وحدي دوماً. حسبت أن كل الصغار يلعبون هكذا».

أنهى الثلاثي الموسيقي عزف توزيعهم للحن «كوركوفادو

«وصفق الحضور. كالعادة وحين يكون الليل في آخره يبدأ عزف الفرقة أكثر دفئاً وحميمة. بين الوصلات يشرب عازف البيانو نبيذاً أحمر، في حين يدخن عازف البيس.

رشفت شيماموتو رشفة من شرابها «هل تعلم يا هاجيمي، لم أكن متأكدة في البدء من قدومي إلى هنا. فكرت في ذلك مدة شهر تقريباً. علمت عن بارك من مجلة كنت أقلبها. حسبت أن هناك خطأ ما. أنت تدير باراً! لكن اسمك كان مذكوراً وكذلك صورتك منشورة. هاجيمي الصديق القديم المخلص من الحي القديم. سررت لرؤيتك ثانية حتى ولو في صورة، لكني لم أكن متأكدة أن مقابلتك شخصياً فكرة جيدة أم لا. ربما أفضل لكلانا أن لا نتقابل. ربما يكفي معرفة أنك سعيد وناجح في عملك».

أصغيت إليها بصمت.

«لكن حيث إني عرفت مكانك، شعرت أن من مضيعة الوقت عدم القدوم لرؤيتك مرة، وهذا أنا. جلست هناك وراقبتك. إذا لم يلاحظني ربما سأغادر دون كلمة. لكني لم أستطع تحمل المزيد. لقد أعدت لي كثيراً من الذكريات وتوجب أن أقول مرحباً».

سألتها: «لماذا؟ أعني لماذا فكرت أن من الأفضل أن لا نتقابل؟»

لمست حد كأسها بإصبعها وتاهت في التفكير: «فكرت إن قابلتك فإنك ستريد معرفة كل شيء عني. هل أنا متزوجة

وأين أعيش، ماذا أفعل، هذه النوعية من الأسئلة. هل أنا محقة؟»

«حسناً، أنا متأكد أن هذه النقاط سترد في حديثنا».

«طبعاً»

«لكنك تفضلين عدم الخوض فيها؟»

ابتسمت بحيرة وأومأت برأسها. كانت تملك مليون نوع من الابتسامات المختلفة. «هذا صحيح. لا أريد الحديث عن هذه الأمور. من فضلك لا تسألني لماذا. لا أريد الحديث عن نفسي. أعلم أن هذا غير طبيعي، كما لو أني أتظاهر بأني سيدة ليل غامضة أو ما شابه ذلك. لذا فكرت أن عليَّ أن أراك. لا أريدك أن تفكر أني امرأة غريبة مغرورة. هذا أحد أسباب عدم رغبتي في القدوم إلى هنا».

«والثاني؟»

«لم أود أن يخيب أملي».

نظرت إلى الكأس في يدها. حدقتُ بها، في شعرها الطويل حتى الكتف وشفتيها النحيلتين الجميلتين، وفي عينيها السوداوين العميقتين بلا نهاية. خط صغير فوق جفنها جعلها تبدو مفكرة متأملة. جعلني الخط أتصور أفقاً بعيداً.

«كنت أميل إليك كثيراً، لذا لم أود أن أقابلك ويخيب أملي».

«وهل خيبت أملك؟»

هزت رأسها قليلاً. «راقبتك من هناك. في البدء بدوت شخصاً آخر. كنت أكبر وأضخم في الطقم، لكن عندما أمعنت النظر، صار بإمكاني التعرف على هاجيمي الذي عرفته. هل تعلم أن حركاتك بالكاد تغيرت منذ أن كنت في الثانية عشر».

«لم أعرف ذلك «حاولت الابتسامة لكني لم أقدر.

«طريقة تحريك يديك، عينيك، نقرك دوماً شيئاً برؤوس أصابعك، طريقة تقطيب حاجبيك، كما لو أنك غير مسرور من شيء - كلها لم تتغير قيد أنملة. تحت طقم أرماني أنت هاجيمي القديم نفسه».

صلحتها: «ليس أرماني. القميص وربطة العنق نعم، لكن الطقم لا».

ابتسمت.

قلت: «سيدة شيماموتو! تعلمين أني أردت رؤيتك منذ أمد بعيد. أن أتكلم معك. هناك أشياء كثيرة أردت أن أخبرك بها».

قالت: «أردت أن أراك أيضاً. لكنك لم تأت أبداً. تدرك ذلك، أليس كذلك؟ بعد ذهابك إلى الجامعة في بلدة أخرى، انتظرتك. لماذا لم تأت؟ حزنت حقاً. فكرت أنك تعرفت على أصدقاء جدد في مكانك الجديد ونسيتني».

هرست شيماموتو سيجارتها في طفاية السجائر. كان تلميع (ورنيش) واضحاً على أظافر يديها. كانت كعمل يدوي متقن، لامع بخفة.

قلت: «كنت خائفاً. هذا هو السبب».

سألت: «خائفاً؟ من ماذا؟ مني؟»

«كلا، ليس منك. كنت خائفاً من الصد. كنت لا أزال طفلاً، ولم أتصور أنك في الواقع تنتظرينني. كنت مرتعباً من صدك لي. أن آتي إلى بيتك لزيارتك ولا تكترثين بي. لذا أحجمت عن المجيء. إذا كانت مشاعري ستجرح فضلت عدم الذهاب والعيش مع الذكريات الجميلة عندما كنا معاً».

مالت يدها قليلاً وأدارت بها حبة بندق: «لا تسير الأمور بسهولة، أليس كذلك؟»

«كلا!»

«لكن كان من المفروض أن نكون أصدقاء مدة طويلة. بقيت في المدرسة المتوسطة والثانوية وحتى الجامعة دون صديق. كنت دوماً وحيدة. تصورت كم من الرائع أن تكون بجانبي. إذا لم تقدر على أن تكون هنا، بإمكاننا تبادل الرسائل على الأقل. لقد اختلفت الأمور كثيراً. كان بإمكاني مواجهة الحياة بشكل أفضل». صمتت للحظات «لا أدري لماذا بالضبط لكن بعد دخول المدرسة الثانوية، ساءت الحياة المدرسية وهذا جعلني أكثر انطواءً على نفسي. يمكنك أن تسميها دائرة فاسدة».

أومأت برأسي.

«في المدرسة الابتدائية كنت على ما يرام، لكن بعد ذلك صار الوضع مرعباً، كما لو أني سجنت داخل بئر».

عرفت الإحساس، هكذا شعرت خلال ثمان سنوات من حياتي بين الجامعة والزواج بيوكيكو. شيء خاطىء ، كل بيت الورق ينهار ولا سبيل يمكنني عبره من تحرير نفسي، حتى يأتي شخص ويخلصني منه.

«كانت ساقي عرجاء ولم أستطع فعل ما يفعله الآخرون. كنت أقرأ الكتب وأبقى وحيدة. صمدت. في المظهر أعني. هكذا فكر معظم الناس أني امرأة غريبة الأطوار ومتغطرسة. ربما هذا ما أصبحت عليه».

قلت: «أنت فاتنة!» وضعت سيجارة أخرى بين شفتيها. أشعلت عود ثقاب وأشعلت لفافتها.

سألت: «هل تعتقد حقاً أني جميلة؟»

«نعم، لكن لابد أنك تسمعين ذلك طوال الوقت».

ابتسمت شيماموتو: «ليس صحيحاً. في الواقع لا أعير وجهي عناية كبيرة. لذا أنا سعيدة أنك قلت ذلك. من سوء الحظ، النساء الأخريات لا يملن إليَّ كثيراً. وكثيراً ما أفكر بهذا: لا أريد أن يقول الناس إني جميلة. أريد أن أكون فتاة عادية ولي أصدقاء مثل كل الآخرين».

مدت يدها ومست برفق قاطع البار.

«لكني سعيدة أنك تستمتع بالحياة».

لزمت الصمت.

سألت: «أنت سعيد، أليس كذلك؟»

«لا أدري. على الأقل لست غير سعيد. لكني وحيد».

ثم أضفت بعد لحظة «لكن أحياناً أفكر أن أسعد أوقات حياتي كانت حين كنا معاً في حجرة معيشتكم نستمع للموسيقى».

«هل تعلم. ما زلت أحتفظ بتلك الاسطوانات، نات كينج كول، بينج كروسبي، روسيني وكل الاسطوانات الأخرى، كل واحدة منهن، ذكرى والدي الراحل. اعتنيت بها وحتى الآن ليس فيها خدش واحد. تذكر كم كنت أعتني بهذه الاسطوانات».

«إذن والدك توفي؟»

«قبل خمس سنوات. سرطان القولون. عذاب كبير بالرغم من أنه كان دوماً في صحة جيدة».

قابلت والدها عدة مرات. دهشت كونه قوياً صلباً مثل شجرة بلوط في حديقتهم .

سألت: «وهل أمك على قيد الحياة؟»

«أظن ذلك».

أزعجتني نبرة صوتها: «لا تنسجمين معها ؟»

أنهت شيماموتو شرابها ووضعت الكأس على القاطع ونادت على النادل: «هل عندكم كوكتيل خاص بالمحل توصي به؟»

قلت: «عندنا عدة أنواع كوكتيل أصيلة. أكثرها شعبية

«عش روبن «على اسم البار. شيء ابتدعته بنفسي، رم مع فودكا كأساس. شربه سهل لكنه يضرب بقوة».

«يبدو جيداً لخطب ود النساء».

«حسبت أن هذا المقصود من الكوكتيل».

«حسناً، سأجرّبه».

عندما وضع الكوكتيل أمامها، نظرت إلى اللون ثم أخذت رشفة لتجربه. أغمضت عينيها وتركت النكهة تهيمن عليها. قالت: «طعمه حاد جداً، أليس كذلك؟ ليس حلو المذاق بالضبط ولا لاذع. خفيف وبسيط لكن مع شخص آخر. لم أعرف أنك موهوب جداً».

«لا أستطيع عمل رف بسيط، وليست لدي فكرة عن تغيير فلتر زيت السيارة، لا يمكنني حتى لصق طابع بريد على مغلف بشكل مستقيم. ودائماً اتصل في الهاتف بالرقم الخطأ، لكني ابتكرت بعض أنواع الكوكتيل الأصيلة يبدو أن الناس تحبها».

وضعت كأسها على المنضدة المتحركة ونظرت إليها. حين قلبت الكأس ارتجف انعكاس الأضواء العليا عليها قليلاً.

«لم أر أمي منذ مدة طويلة. تشاجرنا قبل عشر سنوات تقريباً ولم أرها بعد ذلك إلا قليلاً، في جنازة والدي بالطبع».

انتهى الثلاثي الموسيقى من عزف مقطوعة بلوز أصيلة وبدأوا في عزف مقدمة «عشاق نجم عابر». عندما أكون في البار، يقوم عازف البيانو بعزف هذه الأغنية لعلمه أنها مفضلة

عندي، سمعتها مرة وضربت على وتر حساس فيَّ . لم تكن واحدة من أفضل قطع الينجتون، ولم ترتبط بذكريات معينة. كنت أعيد الاستماع إليها في المساء، منذ أيام الجامعة إلى أيام النشر الكئيبة، إضافة إلى البوم من أمثال «مثل هذا الرعد الحلو «وشريط «عشاق مارون بنجمة»، حيث توجد لجوني هودجز أغنية حساسة وجميلة يؤديها بمفرده. كلما استمعت إلى هذا اللحن البطيء والجميل، تعود تلك الأيام لي. لم تكن التي أصفها بالأيام السعيدة في حياتي، لما كانت حياتي عليه، كمية مشوشة من الرغبات غير المشبعة. كنت أصغر وأكثر جوعاً ووحدة. لكني كنت نفسي، مكتفٍ بالحد الأدنى من الأساسيات. كان بإمكاني الإحساس أن كل حرف موسيقي، كل سطر اقرأه ينساب عميقاً في داخلي. كانت أعصابي حادة مثل حد الشفرة وعيناي تشعان بضوء خارق. وكلما سمعت هذه الموسيقى أتذكر عيني آنذاك، تحدق بوهج بي من المرآة.

قلت: «أتعلمين! مرة حين كنت في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية جئت لزيارتك. شعرت بوحدة لم أعد أتحملها. حاولت الاتصال بك، لكن لم أتلقَّ إجابة. أخذت القطار إلى حيث كنتِ، لكني وجدت اسماً آخر على جرس الباب.

«انتقل والدي بعد سنتين من مغادرتك إلى فوجيساوا قرب اينوشيما. وهناك مكثنا حتى ذهبت إلى الجامعة. أرسلت لك بطاقة بعنواننا الجديد، هل استلمتها؟»

هززت رأسي: «لو استلمتها لكنت قد أجبت. غريب،

لابد أن هناك خطأ في مكان ما».

قالت: «أو ربما نحن غير محظوظين. كثير من الأخطاء وينتهي بنا الأمر إلى عدم اللقاء. لكن، أريد أن أسمع أخبارك. كيف كانت حياتك؟»

قلت: «ستشعرين بملل شديد».

«لا أهتم، ما زلت أريد سماع ذلك».

قدمت لها موجزاً عن حياتي. كيف كانت عندي صديقة في المدرسة الثانوية آذيت مشاعرها كثيراً. تحفظت على التفاصيل المثيرة السيئة. شرحت كيف حدث شيء وآذيت الفتاة. وانتهيت بأن آذيت نفسي. كيف ذهبت إلى الجامعة في طوكيو وعملت لصالح ناشر كتب تعليمية. كيف كانت سنوات عمري في العشرينات دون أصدقاء ووحيدة. كيف منذ أن تركت المدرسة الثانوية حتى قابلت يوكيكو وتزوجت، لم أحب أي شخص حقاً. كيف فكرت بها كثيراً وكم رائع سيكون لو تمكنا من رؤية بعضنا بعضاً، حتى لساعة ونتكلم. ابتسمت شيماموتو.

«فكرت بي؟»

«طوال الوقت!»

قالت: «وأنا أيضاً، فكرت فيك، كلما شعرت بسوء. كنت الصديق الوحيد الذي عرفته، هاجيمي». وضعت ذقنها على راحة يدها المستندة على قاطع البار، أغمضت عينيها كما لو أن كل قوتها تبخرت من جسدها. لم تكن تلبس أي خواتم. أخيراً فتحت عينيها ببطء ونظرت إلى ساعتها. نظرت إليها

أيضاً. كان الوقت قد قارب منتصف الليل.

أخذت حقيبة يدها وهبطت عن المقعد المرتفع. «ليلة سعيدة. سعدت برؤيتك!»

سرت معها إلى الباب. «هل أطلب لك تاكسي؟ المطر يهطل، لذا قد يصعب أن تجدين تاكسي الآن، إذا كنت تفكرين بالذهاب بتاكسي».

هزت شيماموتو رأسها. «كل شيء على ما يرام. لا تزعج نفسك. يمكنني تدبّر أمري».

سألت: «حقاً لم يخب ظنك؟»

«فيك؟»

«نعم »

ابتسمَتْ «كلا، استرح. لكن هذا الطقم - أرماني، أليس كذلك؟»

لم تجر ساقها كما كانت تفعل سابقاً. لم تتحرك بسرعة وإذا أمعنت النظر ترى شيئاً اصطناعياً في مشيتها، رغم أنها تبدو بشكل عام طبيعية جداً.

قالت معتذرة إلى حد ما: «أجريت عملية قبل أربع سنوات. لا أقول إنها ناجحة مئة بالمئة، لكنها ليست سيئة كما كانت. كانت عملية كبيرة مع تكسير عدد من العظام وترميمها معاً. لكن الأمور سارت على ما يرام».

قلت: «هذا عظيم. ساقك تبدو جيدة الآن».

قالت: «نعم، ربما كان ذلك قراراً جيداً. بالرغم من انتظاري وقتاً طويلاً على ذلك».

جلبت معطفها من حجرة المعاطف وساعدتها في ارتدائه. لم تكن طويلة جداً حين وقفت بجانبها. بدا ذلك غريباً. عندما كنا في الثانية عشر، كنا بنفس الطول.

«سيدة شيماموتو، هل سأراك ثانية؟»

أجابت: «ربما!» وارتسمت ابتسامة على فمها. ابتسامة مثل هبة دخان هائمة بهدوء صوب السماء في يوم عديم الرياح. «ربما!»

فتحت الباب وخرجت. بعد خمس دقائق صعدت إلى الشارع. كنت قلقاً حول عثورها على عربة أجرة. كان المطر ما يزال يهطل، وشيماموتو لا تبدو في الجوار. كانت الشوارع مهجورة، وأضواء العربات العابرة تلطخ الرصيف المبتل بألوانها.

ربما كان ذلك وهماً، فكرت. وقفت هناك طويلاً أحدق في الشوارع التي غسلها المطر. مرة أخرى، أصبحت صبياً في الثانية عشر يحدق ساعات في المطر. أُنْظُرْ إلى المطر مدة كافية، دون أفكار في ذهنك، ستشعر تدريجياً بأن جسدك يرتخي، ويهز حقائق العالم بحرية. للمطر قوة التنويم المغناطيسي.

غير أن هذا لم يكن وهماً. حين عدت إلى البار، كان كأس وطفاية سجائر موجودين حيث كانت، وعقبي سجائر في

المطفأة، على كل منهما أحمر شفاه خفيف. جلست هناك وأغمضت عيني. تلاشت أصداء الموسيقى بعيداً وخلفتني وحيداً. في تلك العتمة اللطيفة، استمر المطر في الهطول دون صوت.

9

لم أر شيماموتو بعد ذلك لمدة طويلة. كنت أجلس كل ليلة على قاطع بار «عش روبن» لقضاء الوقت في قراءة الكتب ملقياً نظرة على الباب الأمامي بين فينة وأخرى. لكنها لم تأت. خشيت أني قلت شيئاً غير مناسب أزعجها. راجعت كل كلمة قلتها، كلمة كلمة، فلم أجد شيئاً خاطئاً. ربما خاب رجاء شيماموتو. إمكانية بعيدة مشكوك فيها. كانت في منتهى الجمال وساقها شفيت. ماذا يمكن لامرأة مثلها أن تجد في رجل مثلي؟

اقتربت السنة من نهايتها، جاء عيد الميلاد وذهب كما جاءت السنة الجديدة. حل عيد ميلادي السابع والثلاثين، ورحل شهر يناير/كانون الثاني فجأة. تخليت عن فكرة انتظارها ونادراً ما صرت أذهب إلى «عش روبن» لأن الذهاب إلى هناك يذكرني بها ويجعلني أتفحص وجوه الزبائن دون جدوى. جلست في باري الثاني أقلب صفحات الكتب شارداً في تأملات تائهة.

لم أستطع التركيز، كما لو كانت حياتي متوقفة على ذلك.

قالت لي إنني الصديق الوحيد الذي عرفته في حياتها. أسعدني ذلك وبعث فيَّ الأمل في أن نعود أصدقاء مرة أخرى. أردت أن أتحدث معها حول مواضيع عدة وأسألها عن رأيها فيها. لا أكترث إذا لم ترغب في الحديث عن نفسها. رؤيتها والحديث معها كانا كافيين.

لكنها لم تأت. فكرت ربما كانت مشغولة جداً ولم تجد وقتاً لزيارتي. لكن ثلاثة أشهر فترة طويلة، حتى لو لم يكن بوسعها زيارتي بإمكانها على الأقل الاتصال هاتفياً. كان ذلك مؤذياً للمشاعر، كما لو أن ثقباً فتح في قلبي. لم تقل قط إنها قد تعود ثانية. وعود مثل هذه لا تنسى حتى لو كانت مبهمة.

لكن في بداية فبراير/شباط، وفي ليلة ماطرة أيضاً مرة أخرى، جاءت. كان المطر هادئاً وبارداً كالجليد. لأمر ما كنت في «عش روبن» أبكر من الوقت المعتاد. حملت مظلات الزبائن عبق المطر البارد، وكان عازف سيكسفون تينور قد انضم إلى فريق البيانو الثلاثي لعزف بعض القطع الموسيقية. كان معروفاً مما بعث هياجاً في الحضور. كالعادة، جلست في ركني على مقعد طويل في البار أقرأ. جاءت شيماموتو وجلست بجانبي بهدوء.

قالت: «مساء الخير».

وضعت الكتاب ونظرت إليها، لكن لم أصدق عيني.

«كنت متأكداً أنك لن تأتين أبداً».

قالت: «سامحني. هل أنت غاضب؟»

«لست غاضباً. لا أغضب على أشياء من هذا القبيل. هذا بار يأتي الناس إليه حين يريدون ويغادرون وقت يشاؤون. وظيفتي أن أجلس وانتظرهم».

«على كلٍ أنا آسفة. ليس بوسعي تفسير ذلك، لكني لم أقدر على القدوم».

«مشغولة؟»

أجابت بهدوء: «كلا، لست مشغولة، لكني لم أقدر على المجيء».

كان شعرها مبتلاً، والتصقت جديلتان على جبينها. طلبت من النادل أن يجلب لها منشفة.

قالت: «شكراً «وجففت شعرها. أخذت سيجارة وأشعلتها بولاعتها. ارتعشت أصابعها المبتلة والباردة بفعل المطر قليلاً.

«كان المطر خفيفاً ففكرت في القدوم بعربة أجرة، لذا لبست معطف مطر، لكني شرعت في السير وانتهى بي الأمر لأن أسير مسافة طويلة».

سألت: «ما رأيك بشراب ساخن؟»

حَدَّقَتْ عميقاً في عينيَّ وابتسمَتْ «شكراً! أنا على ما يرام».

في لحظة أنستني تلك الابتسامة الشهور الثلاثة. أشارت إلى الكتاب: «ماذا تقرأ؟»

عرضت عليها الكتاب. تاريخ النزاع الحدودي بين الصين وفيتنام بعد الحرب الفيتنامية. تصفحته على عجل وأعادته لي.

«لم تعد تقرأ الروايات؟»

«أقرأ، لكن ليس كما اعتدت. لا أعرف شيئاً عن الروايات الجديدة. اقرأ القديمة فقط، غالباً روايات من القرن التاسع عشر، التي قرأتها من قبل».

«ما السيء في الروايات الحديثة؟»

«أخشى أن تخيب أملي. قراءة الروايات الرديئة تشعرني بإضاعة الوقت. كنت بالرغم من معرفتي أنها سيئة، أعتقد أن شيئاً جيداً قد يتمخض عنها. الآن اختلف الأمر. لابد أني قد تقدمت في العمر».

«نعم، صحيح أننا كبرنا». قالت وابتسمت ابتسامة شيطانية.

سألت: «وأنت؟ هل ما زلت تطالعين كثيراً؟

«نعم، طوال الوقت. كتب حديثة وكتب قديمة، روايات وكل أنواع الكتب الأخرى. كتب رديئة وكتب جيدة. ربما أنا على النقيض منك - أقرأ لقتل الوقت».

طَلَبَتْ من النادل كوكتيل «عش روبن»، وطلبت بدوري الشيء نفسه. أخذت رشفة من شرابها وأومأت برأسها قليلاً ثم وضعت الكأس على البار.

«هاجيمي، لماذا الكوكتيل هنا أفضل من أي مكان آخر؟»

أجبت: «لأننا نبذل قصارى جهدنا لعمله كذلك. فبدون جهد، لا نتيجة».

«أي جهد تعني؟»

قلت: «خذي ذلك على سبيل المثال «وأشرت إلى ساقي البار الشاب الوسيم، الذي كان منهمكاً بكل جدية وتركيز على كسر قطع الجليد. «أدفع له راتباً كبيراً، أخفيه سراً عن الموظفين الآخرين. يعود سبب هذا الراتب الكبير إلى موهبته في مزج المشروبات. معظم الناس لا يدركون ذلك، لكن الكوكتيل الجيد يتطلب موهبة. يمكن لأي شخص أن يمزج شراباً مقبولاً بقليل من الجهد. بتدريب بضعة أشهر يصبح بإمكانهم مزج شراب معقول - من النوع الذي يقدم عادة في البارات، لكن لكوكتيل مميز ينبغي أن تحصل على حاسة تمييز خاصة، مثل العزف على البيانو والرسم وعدو المئة متر. أعتقد أن بإمكاني مزج كوكتيل جيد. درست ومارست ذلك، لكني لا أستطيع منافسته، إذ إنني أضع كمية الكحول نفسها وأهز الوعاء المدة عينها، كما أن مذاقها ليس بجودة ما يمزجه. لا أدري لماذا! كل ما يمكنني قوله إنها موهبة مثل الفن. ثمة خط يمكن لقليل من الناس تجاوزه. لذا عندما نجد شخصاً موهوباً، من الأفضل الاهتمام به وعدم التخلي عنه. مع عدم إغفال الدفع له جيداً.

هذا الساقي شاذ، لذا يأتي أحياناً الرجال من أمثاله ويجتمعون في البار. إنهم هادئون ولا يزعجونني. أعجب بالساقي الشاب وهو يثق بي ويعمل بجدٍ ونشاط .

قالت شيماموتو: «ربما لديك موهبة أكبر مما تظن في إدارة الأعمال».

قلت: «أخشى عدم ذلك. لا أعتبر نفسي في الحقيقة رجل أعمال. حدث وأن أصبحت مالكاً لبارين، ولا أخطط لفتح بار آخر. لا يمكن وصف ما أفعله موهبة. هل تعلمين أني أتصور أحياناً أشياء وأتظاهر أنني زبون. لو كنت زبوناً، إلى أي بار أذهب، وأي نوع من الطعام والشراب أود تناوله. لو كنت أعزب في العشرينات من عمري، إلى أي نوع من الأمكنة سأصطحب صديقتي؟ كم سأنفق؟ أين سأعيش وإلى أي وقت يمكن أن أبقى في الخارج؟ كل أنواع السيناريوهات. كلما فكرت في سيناريوهات أفضل، كلما أصبحت فكرتي المتصورة عن البار أكثر تركيزاً.

كانت شيماموتو ترتدي كنزة سماوية عالية الياقة وتنورة زرقاء نيلية، ويلمع في أذنيها قرط صغير. كانت الكنزة الضيقة تظهر شكل صدرها. وجدت أن التنفس صعب.

«استمر «قالت، ومرة أخرى عادت الابتسامة السعيدة إلى شفتيها.

«حول ماذا؟»

قالت: «فلسفتك في العمل. احب أن أسمعك تتحدث هكذا».

تورد وجهي قليلاً، شيء لم يحصل معي منذ وقت طويل. «لا أقول إن هذه فلسفة عمل. تدرين إنني أقوم بهذه

العملية كلها منذ أن كنت صغيراً! أفكر في كل الأشياء، وأترك العنان لخيالي. أشيّد مكاناً خيالياً في ذهني وأضيف إليه التفاصيل رويداً رويداً. تغيير هذا أو ذاك يلائمني. كما أخبرتك بعد الجامعة، عملت مدة طويلة لصالح ناشر كتب تعليمية. كان العمل مملاً للغاية. لا مكان فيه لأعمال المخيلة. سئمت منه، ولم أتحمل الذهاب إلى العمل. شعرت بأني أختنق، كما لو كنت أتقلص وفي يوم ما سأختفي تماماً».

رشفت رشفة من شرابي وألقيت نظرة على مجمل البار. حشد لطيف، يتأملون في المطر. كان عازف الساكسفون يعيد آلته إلى حقيبتها. استدعيت النادل وطلبت منه أن يأخذ زجاجة ويسكي إلى العازف ويسأله إن كان يريد بعض الطعام.

أكملت: «لكن ثمة فرق هنا. ينبغي على المرء أن يستخدم مخيلته ليعيش، ويمكنه وضع أفكاره في مجال العمل مباشرة. لا اجتماعات، ولا مديرين. لا أسبقيات تقلق أو تعليمات وتوجيهات من دائرة التعليم يجادل فيها. صدقيني هذا عظيم. هل عملت مرة في شركة؟»

ابتسمت وهزأت رأسها «كلا»

«اعتبري نفسك محظوظة. أنا والشركات لا ننسجم معاً. لا أعتقد أنك ستجدين ذلك مختلفاً. ثمان سنوات من العمل هناك أقنعتني بذلك. ثمان سنوات ذهبت هباءً. سنوات عشرينات عمري - أفضل السنوات. أحياناً أتساءل كيف تحملت ذلك طوال تلك المدة. أظن أن هذا ما كان عليَّ

المرور به حتى أصل إلى ما أنا عليه الآن. أحب عملي الحالي. كما تعلمين أحياناً يبدو الباران مثل أماكن خيالية خلقتها في ذهني. قلاع في الهواء. زرعت زهوراً هنا، عمرت نافورة هناك، صممت كل شيء بعناية فائقة. يأتي الناس، يشربون، يستمعون للموسيقى، يتكلمون ثم يذهبون إلى بيوتهم. مستعدون لدفع مبالغ كبيرة من النقود ليأتوا إلى هنا ويشربون شيئاً - هل تعلمين لماذا؟ لأنهم جميعاً يبحثون عن الشيء نفسه: مكان خيالي، قلعتهم الخاصة في الريح وركنهم الخاص فيها».

أخذت شيماموتو سيجارة سيليم من حقيبتها الصغيرة. قبل أن تخرج ولاعتها قدحتُ عود ثقاب وأشعلتُ لفافتها. أحب أن أشعل سجائرها وأشاهد عينيها تغمضان قليلاً وهي تحدق في اللهب المتأرجح.

قالت: «لم أعمل يوماً واحداً طوال حياتي».

«ولا حتى مرة واحدة؟»

«ولا حتى مرة واحدة، ولا حتى وظيفة جزئية. العمل غريب تماماً بالنسبة لي. لهذا السبب أحسدك. أنا دوماً وحيدة أقرأ الكتب. وأي فكرة تخطر لي يجب أن تتعلق بإنفاق النقود وليس كسبها». مدت ذراعيها أمامي. كانت تلبس سوارين من الذهب النحيل في ذراعها الأيمن، وساعة باهظة الثمن في الذراع اليسرى. تركت ذراعيها أمامي مدة طويلة كما لو كانت تعرض بضاعة للبيع. أخذت يدها اليمنى في يدي وحدقت في

السوارين الذهبيين. تذكرت إمساكي بيدها عندما كنا في الثانية عشر. أذكر تماماً كيف شعرت، وكيف أثارني ذلك».

«لا أدري... لعل التفكير في سبل إنفاق النقود هو الأفضل!» قلت تاركاً يدها وشعرت بأني على وشك الذهاب بعيداً. «حين يخطط المرء دوماً في سبل كسب المال، يشعر كأن جزءاً منه قد فقد».

«لكنك لا تعرف مدى الفراغ الذي يشعر به المرء لعدم قدرته على إبداع أي شيء».

«أنا على يقين أنك أبدعت أشياء أكثر مما تظنين».

«أي نوع من الأشياء؟»

أجبت: «أشياء لا يمكنك أن تريها». نظرت في يدي بتفحص ثم أرحتها على ركبتي.

حَمَلَتْ كأسها ونظرت إليَّ طويلاً، «تقصد مثل المشاعر؟»

قلت: «نعم. كل شيء يختفي يوماً ما. مثل هذا البار، لا يمكن أن يبقى إلى الأبد. أذواق الناس تتبدل وتذبذب ضئيل في الاقتصاد كل ما يحتاجه الأمر حتى تهبط الأشياء. رأيت حدوث ذلك، لا يستغرق الأمر طويلاً. الأشياء التي لها شكل ستزول كلها. لكن بعض المشاعر تبقى إلى الأبد».

«لكن تعلم يا هاجيمي أن بعض المشاعر تسبب لنا الألم لأنها تبقى. ألا تعتقد ذلك؟»

جاء عازف السكسفون ليشكرني على الويسكي. أثنيت على أدائه.

شرحت لشيماموتو: «عازفو الجاز هذه الأيام في غاية الأدب. عندما كنت في الجامعة، لم يكن الحال كذلك. كانوا جميعاً يتعاطون المخدرات ونصفهم على الأقل كانوا منهكي القوى. لكن أحياناً كنا نسمع أداءً يأخذ بالألباب. كنت دوماً استمع إلى الجاز في النوادي في شينجوكو، ودائم البحث عن الأداء الجيد».

«تحب هذه النوعية من البشر، أليس كذلك؟»

قلت: «أظن ذلك. الناس يريدون أن يُفْتَنُوا بشيء خاص. تسع من عشر مرات تذهب إلى النسيان، لكن تلك المرة العاشرة، هذه التجربة القمة، ما يريده الناس. هذا ما يمكنه أن يحرك العالم. هذا هو الفن».

نظرتُ ثانية إلى يديَّ المستريحتان على ركبتيّ. ثم نظرت إليها. انتظرت أن استمر في الكلام.

«الأمور مختلفة الآن. أنا مدير بار ووظيفتي أن استثمر رأسمال وأحقق أرباحاً. لست فناناً ولا مبدعاً. لست حتى راعٍ للفنون. سواء أحببت ذلك أم لا، هذا ليس مكان للفن. وأسهل كثيراً لمدير المحل أن يكون رواد باره من المحترمين المؤدبين على أن يكونوا حشداً كبيراً من جمهور تشارلي باركر.!»

طَلَبَتْ كوكتيلاً آخر، وأشعلَتْ لفافة ثانية. صمتنا برهة، بدا أنها سارحة في أفكارها. استمعت إلى عازف البيس الطويل

المنفرد يعزف قطعة «أنت الجديرة بالعناق». أضاف عازف البيانو الوتر المصاحب عند الحاجة، بينما جفف عازف الطبول عرقه وتناول مشروباً. كان العزف عادياً فداومنا على الحديث.

قالت شيماموتو بعد صمت طويل: «هاجيمي، هل تعرف أي أنهار هي الجيدة؟ نهر جميل في وادٍ، ليس كبيراً، نهر ينساب بهدوء نوعاً ما ويصب في البحر؟»

نظرت إليها وقد أُخِذْتُ على حين غرة «نهر؟» عن ماذا تتكلم؟ كان وجهها عديم التعبير. كانت هادئة كما لو كانت تحدق في منظر طبيعي بعيد. ربما أنا الذي كان بعيداً عن عالمها، على الأقل ثمة مسافة غير متخيلة تفصل بيننا. أصابني التفكير في ذلك بالكآبة. ثمة شيء في عينيها يبعث على الحزن.

سألت: «لماذا هذا النهر فجأة؟»

أجابت: «خطر ببالي إن كنت تعرف نهراً مثل ذلك؟»

سافرت في البلاد، عندما كنت طالباً، مع حقيبة نوم مطوية، لذا رأيت عدداً لا بأس به من الأنهر اليابانية. لكني لم أستطع التفكير في نهر كالذي وصفته .

قلت بعد تفكير طويل: «أظن أن هناك نهراً مثل هذا على ساحل بحر اليابان. لا أذكر اسمه، لكني متأكد أنه يقع في مقاطعة أشيكاوا. ليس من الصعب العثور عليه. لعله الأقرب إلى ما تبحثين عنه».

تذكرت النهر الآن جيداً. ذهبت إلى هناك في الخريف حين كنت في السنة الأولى أو الثانية الجامعية. كانت أوراق

النبات جميلة، والجبال المحيطة تبدو كما لو أنها مصبوغة بالدم. تنحدر الجبال إلى البحر، واندفاع المياه كان فاتناً، وأحياناً يمكنك سماع صيحة غزال في الغابة. السمك الذي أكلته هناك كان لذيذاً للغاية.

سألت شيماموتو: «هل تعتقد أن بإمكانك أخذي إلى هناك؟»

قلت بصوت جاف: «إنه في آخر طريق إشيكاوا، يمكنني رؤية اينوشيما، لكن علينا السفر بالطائرة، ثم الذهاب بالسيارة مدة ساعة، ونبقى هناك ليلة. لكن هذا شيء لا أستطيع فعله الآن».

تحركت شيماموتو ببطء فوق مقعدها وأدارت وجهها نحوي: «هاجيمي، أعلم أنه لا ينبغي أن أطلب هذا المعروف منك. أعلم ذلك، صدقني وأدرك أنه عبء عليك، لكن ليس هناك من أستطيع طلب ذلك منه سواك. ينبغي أن أذهب إلى هناك ولا أريد الذهاب وحدي!»

حدقت في عينيها. كانتا مثل نبع عميق في ظل منحدرات حادة لا يمكن لنسيم بلوغه، لا حركة فيهما، كل شيء ساكن. انظر عن مقربة ويصبح بإمكانك البدء في رؤية المشهد منعكساً على سطح الماء.

ابتسمت كما لو أن كل القوة ذهبت منها: «سامحني. من فضلك أن لا تظن أني جئت هنا خصيصاً لذلك. أردت أن أراك وأتكلم معك فقط. لم أخطط لذكر ذلك».

قمت بعملية حساب ذهنية سريعة: «إذا غادرنا في وقت مبكر ورجعنا بالطائرة يمكن أن نعود في وقت غير متأخر من الليل. طبعاً، يعتمد ذلك على المدة التي سنقضيها هناك».

قالت: «لا أظن أن هذا سيستغرق طويلاً. هل يسعفك الوقت للطيران معي والعودة حقاً؟»

فكرت ملياً: «أعتقد ذلك، لا أستطيع تأكيد ذلك بعد، لكن ربما يمكنني ذلك. اتصلي بي مساء الغد هنا، لا بأس؟ سأكون هنا في مثل هذه الساعة. سأفكر بخطة، ما هو برنامجك؟»

«ليس عندي برنامج. أي وقت مناسب لك مناسب لي».

أومأت برأسي.

قالت: «آسفة حقاً. ربما ما كان عليَّ أن أقابلك ثانية. أعلم أني سأفسد كل شيء في النهاية».

غادرت قبل الحادية عشر بقليل. رفعت مظلة فوقها وأشّرت لعربة أجرة. كان المطر ما يزال يهطل.

قالت: «وداعاً، وشكراً».

قلت: «وداعاً». عدت إلى البار وإلى المقعد نفسه في الركن. كان كأس الكوكتيل الخاص بها في مكانه، وكذلك الطفاية بأعقاب سجائر سيليم المهروسة. لم أطلب من النادل رفعها. حدقت في لون أحمر الشفاه الباهت على الكأس والسجائر مدة طويلة.

كانت يوكيكو في انتظاري عندما عدت. كانت تلقي بسترة من الصوف فوق بيجامتها وتشاهد فيديو فيلم «لورنس العرب». كان المشهد حين يصل لورنس بعد كل الأوضاع الصعبة والمحن وعبور الصحراء قناة السويس. كانت قد شاهدت الفيلم ثلاث مرات من قبل. فيلم عظيم قالت لي، يمكنني مشاهدته مرات ومرات عديدة. جلست بجانبها وشربنا نبيذ ونحن نشاهد نهاية الفيلم.

أخبرتها أن هناك حفلة في نادي السباحة الأحد القادم. كان أحد الأعضاء يملك يختاً كبيراً أبحرنا فيه عدة مرات للصيد والشراب. كان الجو بارداً للإبحار في شهر فبراير/ شباط، لكن زوجتي لم تكن تعرف شيئاً عن القوارب، لذا لم تحتج. من النادر أن أغادر البيت في أيام الأحد، واعتقدت أن من الجيد لي أن أخرج وأقابل بعض الناس العاملين في حقول أخرى.

قلت: «سأغادر مبكراً في الصباح، وسأعود في الثامنة على ما أعتقد، لتناول العشاء في البيت».

قالت: «حسناً، أختي قادمة هذا الأحد، إذا لم يكن الجو بارداً ربما يمكننا القيام بنزهة إلى شينجوكو جوين. نحن الفتيات الأربعة فقط».

قلت: «جيد»

في بعد ظهر اليوم التالي ذهبت إلى وكالة سفر وحجزت في الطائرة واستأجرت سيّارة. كانت هناك رحلة تعود إلى

طوكيو الساعة السادسة والنصف مساءً. بدا أنني سأتناول عشاءً متأخراً. ثم ذهبت إلى البار وانتظرت مكالمة شيماموتو. اتصلت الساعة العاشرة. أخبرتها: «أنا مشغول قليلاً ، لكن ربما يمكنني الذهاب. هل الأحد القادم مناسب؟»

أجابت: «مناسب بالنسبة لي».

أخبرتها عن وقت الرحلة وأين نلتقي في مطار هانيدا.

قالت: «شكراً جزيلاً».

بعد إعادة السماعة جلست في البار برهة ومعي كتاب. ضجيج الزبائن أزعجني، مع ذلك لم أستطع التركيز. ذهبت إلى حجرة إيداع المعاطف وغسلت وجهي ويدي بماء بارد. حدقت في انعكاس صورتي في المرآة. لقد كذبت على يوكيكو، قلت بيني وبين نفسي. بالطبع كذبت عليها من قبل، عندما نمت مع نساء أخريات. لكنني لم أشعر أنني كنت أخدعها. كانت تلك مجرد زلات غير مؤذية. لكن هذه كانت خطأ. لم أخطط للنوم مع شيماموتو، لكن حتى مع ذلك، لم يكن ذلك صحيحاً. لأول مرة منذ مدة طويلة حدقت عميقاً في عينيَّ في المرآة. لم تخبرني تلك العيون شيئاً عن نفسي وما كنت عليه. وضعت كلتا اليدين على المغسلة وتنهدت بعمق.

10

انساب النهر بخفة عابراً المنحدرات، مشكلاً شلالات صغيرة في بعض الأماكن، ومتوقفاً في أماكن أخرى ليكون برك ماء تنعكس الشمس الواهنة على سطحها بخفة. ثمة جسر معدني فوق مجرى النهر. كان من الضيق بحيث لا تكاد تعبره عربة إلا بصعوبة. غاص هيكله الأسود الجامد عميقاً في صمت شهر فبراير/ شباط البارد كالجليد. كان نزلاء الفندق وموظفوه الوحيدين الذين يعبرون الجسر، علاوة على العاملين المسؤولين عن الغابة. حين عبرنا لم يكن أحد يسير في الاتجاه المعاكس، وبالنظر إلى الخلف لم نرَ أحداً. كانت شيماموتو ترتدي معطفاً من الصوف الثقيل، رفعت ياقته ولفت وشاحاً حولها يصل حتى الأنف. لم يكن لديها ملابس بسيطة تختلف عما تلبسه عادة تصلح للسير في الجبال. كان شعرها مربوطاً إلى الخلف وفي رجليها حذاء عالياً يبدو كأحذية العمال. تدلت حقيبة نايلون خضراء على كتفها. بدت في لباسها هذا كطالبة مدرسة. كانت بقع الثلج ما تزال على ضفتي النهر. وجثم غرابان على قمة الجسر، راحا يحدقان النهر في الأسفل ، ويطلقان بين كل فينة وأخرى نعيقاً مزعجاً. كان لنعيقها الحاد رجع صدى في الغابة المغطاة بالورق، عبر النهر ودويّ مزعج في آذاننا.

حاذى درب ضيق غير مرصوف الضفة البعيدة، درب صامت تحوطه الرهبة مهجور يفضي إلى حيث لا نعلم. لا أثر لبيوت قربه، بل مجرد حقل عارٍ. أخاديد مغطاة بالثلج ترسم خطوطاً ناصعة البياض عبر الأرض الجرداء. كانت الغربان في كل مكان، كما لو أنها تشير لرفاقها بقدومنا، وتطلق نعيقاً قصيراً حاداً أثناء مرورنا. عن قرب كان بإمكاني رؤية مناقيرها الحادة وبراثنها ناصعة الألوان.

سألت شيماموتو: «هل ما زال لديك وقتاً؟ هل يمكننا المسير أبعد؟»

نظرت إلى ساعتي: «لا بأس. يمكننا البقاء هنا ساعة أخرى».

قالت: «المكان هادىء جداً «ونظرت حولها ببطء. كان بخار تنفسها الأبيض يطير في الهواء كلما فتحت فمها.

«هل هذا النهر ما تبحثين عنه؟»

ابتسمت وأجابت: «كأنك كنت تقرأ أفكاري». مدت يدها المكسوّة بالقفاز وأمسكت بشيء مغطى بقفاز أيضاً.

قلت: «أنا سعيد. لو قطعنا كل هذه المسافة وقلت هذا ليس المكان، ماذا كنا فعلنا؟»

قالت: «ثق بنفسك أكثر. لا يمكنك أن ترتكب مثل هذا الخطأ. لكن هل تعلم إن سيرنا معاً هكذا يذكرني بالأيام الماضية، حين كنا نعود للبيت من المدرسة» .

«ساقك ليست كما كانت»

ابتسمت ابتسامة عريضة: «تبدو خائب الأمل إلى حد ما».

ضحكت: «ربما!»

«حقاً؟»

«أمزح، أنا في غاية السعادة لأن ساقك أفضل. مجرد نوبة من الحنين».

قالت: «هاجيمي، أتمنى أن تعلم كم ممتنة أنا لك لفعل ذلك!»

قلت: «لا تفكري في ذلك. هذا مثل الذهاب في نزهة. باستثناء أننا قدمنا بطائرة».

سارت شيماموتو قليلاً وهي تنظر أمامها: «لكن عليك أن تكذب على زوجتك!»

قلت: «أظن ذلك».

«وليس من الممكن لهذا أن يكون سهلاً. أنا على يقين أنك لم تكن تود الكذب عليها».

لم أدر كيف أجيب. أطلق غراب نعيقاً حاداً آخر من الغابة القريبة.

قالت شيماموتو بصوت ضعيف: «لقد أربكت حياتك، أعلم أني فعلت».

قلت: «لنتوقف عن الحديث في ذلك. قطعنا كل هذه المسافة، فلنتكلم عن شيء مبهج».

«مثل ماذا؟»

«في لباسك هذا تبدين مثل طالبة مدرسة».

قالت: «شكراً، أتمنى لو كنت كذلك».

سرنا ببطء على طول النهر. كنا صامتين ونركز على دربنا. لم يكن بوسعها السير سريعاً لكنها كانت قادرة على الحفاظ على إيقاع خطوات بطيئة ثابتة. أمسكت بيدي بقوة. كان الدرب صلباً مجمداً ونعل أحذيتنا بالكاد يحدث صوتاً.

كما لمحت، لو كنا قد سرنا هكذا في سنوات مراهقتنا، أو حتى في عشرينات العمر كم كان من الممكن أن يكون هذا رائعاً! بعد ظهر يوم أحد، وحدنا نسير على حافة نهر كهذا... كنت قد شعرت بالنشوة. لكننا لم نعد في المدرسة. لدي زوجة وأطفال ووظيفة، ويجب أن أكذب على زوجتي حتى يمكنني القدوم إلى هنا. عليَّ أن أقود العربة إلى المطار وأركب الطائرة التي تصل طوكيو الساعة السادسة والنصف، ثم أسرع عائداً إلى بيتي، حيث تنتظرني زوجتي.

أخيراً توقفت شيماموتو، فركت يديها في قفازيهما معاً وحدقت في ما حولها. نظرت إلى أعلى النهر ثم إلى أسفله. في الضفة الأخرى كانت سلسلة جبال وعلى الجانب الأيسر أشجار عارية. كنا وحدنا تماماً. اختفى فندق «الينابيع الحارة»، حيث تناولنا الغداء، والجسر المعدني في ظل الجبال. وبين فينة وأخرى كانت الشمس تظهر وجهها عبر فجوة في الغيوم كما لو أنها تذكرت واجبها. كل ما كان بوسعنا سماعه نعيق

الغربان وتدفق المياه. شعرت أني سأرى هذا المنظر يوماً في مكان ما. على نقيض رؤيتي السابقة لهذا المكان - لا أشعر الآن بأني قد رأيت ما حولي سابقاً، بل حدس بأني سآتي هنا يوماً ما. مد هذا الحدس يده الطويلة واستحوذ على فكري بشدة. كان بإمكاني الشعور بقبضته. هناك على رؤوس أصابعه كنت. أنا في المستقبل وقد تقدمت في العمر. بالطبع، بإمكاني رؤية كيف سأبدو.

قالت: «هذه البقعة مناسبة».

سألت: «لفعل ماذا؟»

ابتسمت ابتسامتها الواهنة المعهودة وأجابت: «لفعل ما أنا على وشك فعله».

هبطنا إلى ضفة النهر، حيث كانت بركة ماء صغيرة مغطاة بطبقة خفيفة من الجليد. في قاع البركة كانت هناك بضع أوراق ساقطة مثل سمك مسطح ميت. أخذت حجراً وأدرته في يدي. خلعت شيماموتو قفازها ووضعته في جيب معطفها. فتحت حقيبة ظهرها وأخذت حقيبة صغيرة من القماش الجميل. كان في داخل القماش جرة لحفظ رماد الموتى. فتحت الغطاء بعناية وفتحت الجرة، وحدقت برهة بما في داخلها.

وقفت بجانبها أراقب دون كلمة.

كان في الجرة رماد أبيض. بعناية فائقة، كي لا يندلق شيء منه، وضعت الرماد في راحة يدها اليسرى. لم يكن ما يكفي لمليء يدها. فكرت رماد ما بعد حرق جثة. كان بعد ظهر

يوم هادئ عديم الرياح فلم يتحرك الرماد. أعادت شيماموتو الجرة الفارغة إلى داخل حقيبتها، وضعت سبابتها في الرماد ثم في فمها ولعقته. نظرت إليَّ محاولة الابتسامة، لكنها لم تستطع. بقي إصبعها قرب شفتيها.

وقفت، أثناء انحنائها قرب النهر ونشرها الرماد، بجانبها. راقبتها، في لحظة انسابت كمية الرماد القليلة بعيداً. وقفت وإياها على الضفة نحدق في الماء. نظرت إلى راحتها ثم مسحت أخيراً ما تبقى من الرماد ولبست قفازها.

سألت: «هل ستصل إلى البحر؟»

قلت: «اعتقد ذلك «لكني لم أكن متأكداً. كان المحيط بعيداً، ربما سيستقر الرماد في مكان ما، لكن حتى لو حدث ذلك فإن بعضه سيصل أخيراً إلى البحر.

أخذت قطعة لوح خشبي كانت مُلقاة في الجوار وراحت تحفر في بقعة ناعمة من الأرض. ساعدتها. عندما حفرنا حفرة صغيرة دفنت الجرة الملفوفة بالقماش. نعقت الغربان في البعيد وهي تراقب ما قمنا به من البداية حتى النهاية. فكرت، فليكن انظري كما تشائين. لم نقم بفعل شيء مشين. كل ما فعلناه أنّا ألقينا رماداً محروقاً في النهر.

سألت شيماموتو وهي تدق الأرض بحذائها: «هل تظن أنها ستمطر؟»

نظرت إلى السماء وقلت: «أعتقد أنها ستتأخّر قليلاً».

«كلا، لم أقصد ذلك. ما عنيت هل سينساب رماد الطفل

إلى البحر ويمتزج بماء البحر ويتبخر ويصبح سحاباً ثم يسقط مطراً؟»

نظرت إلى السماء مرة أخرى، ثم إلى انسياب النهر.

أجبت: «لا أحد يعلم».

انطلقنا بسيارتنا المُستأجرة إلى المطار. كان الجو يزادا سوءاً بسرعة كبيرة، والسماء ملبدة بالغيوم الكثيفة، ولا أثر لزرقة فيها. بدا أن الثلج قد يبدأ في التساقط أي لحظة.

قالت شيماموتو كما لو أنها تخاطب نفسها: «كان ذلك رماد طفلي. الطفل الوحيد الذي أنجبته».

نظرت إليها ثم إلى الأمام. كانت الشاحنات تلقي بالثلج الطيني الذائب إلى أعلى مما أجبرني على استخدام المسّاحات.

قالت: «مات طفلي بعد يوم من ولادته. عاش يوماً واحداً فقط. لم أحمله بين يديَّ سوى مرتين. كان طفلاً جميلاً، في غاية النعومة... لم يعرفوا السبب، لكنه لم يستطع التنفس جيداً. حين مات أصبح لونه مختلفاً».

لم أقدر على نطق كلمة. مددت يدي ووضعتها فوق يدها.

«كانت بنتاً، ودون اسم».

«متى كان ذلك؟»

«مثل الآن من السنة الماضية. في شهر فبراير/شباط».

قلت: «المسكينة»

«لم أود دفنها في أي مكان. لم أستطع تقبل فكرة وضعها في مكان مظلم. أردت أن أبقيها بجانبي مدة، ثم أدعها تنساب إلى البحر وتتحول إلى مطر».

صمتت برهة طويلة، طويلة. داومت على القيادة دون أن أقول كلمة. ربما لم تود هي الكلام أيضاً، لذا فكرت أن من الأفضل تركها في حالها. لكن فجأة لاحظت أن في الأمر خطباً ما - بدا صوت تنفسها غريباً، خشخشة ميكانيكية. في البدء حسبت أن ذلك صوت محرك العربة، ثم أدركت أن الصوت قادم من جانبي. كان كما لو أن هناك ثقباً في قصبتها الهوائية والهواء يتسرب كلما تأخذ نفساً.

نظرت إليها وأنا في انتظار تبدل إشارة المرور. كانت بيضاء كملاءة ومتيبسة بشكل غريب. أراحت رأسها على مسند الرأس وحدقت أمامها. لم تحرك عضلة وعينها تطرف بين فينة وأخرى، كما لو أنها مجبرة على ذلك. قدت قليلاً ولم أجد مكاناً للتوقف - موقف عربات في زقاق تعلوه لوحة بولينج. كان فوق العمارة، التي بدت مثل حظيرة طائرات، لوحة إعلان ضخمة عليها رسم قطعة من أهداف البولينج الخشبية. كنا في موقف العربات الشاسع وحيدين كما لو أننا في براري موحشة على تخوم الحضارة.

التفت إليها: «سيدة شيماموتو، هل أنت على ما يرام؟»

لم تجب. جلست على المقعد ولا يخرج منها سوى ذلك الصوت الغريب. وضعت يدي على خدها، كان بارداً كالمنظر

المحيط بنا. لا أثر للدفء فيه. لمست جبهتها، لم تبد أي أثر للحمى. شعرت كما أني أختنق. هل كانت تحتضر هنا والآن؟ حين نظرت عميقاً في عينيها وجدتهما بلا حياة. لم أستطع رؤية شيئاً فيهما، إذ كانتا باردتين ومعتمتين كالموت.

«سيدة شيماموتو !» صحت دون أن أتلقى إجابة. كانت عيناها هائمتين بلا تركيز. ربما لم تكن واعية. ينبغي أخذها إلى المستشفى بسرعة. لا ريب أننا لن نلحق بطائرتنا، لكن لم يكن هناك وقت للقلق بخصوص ذلك. قد تموت شيماموتو ولا يمكنني ترك ذلك يحدث.

عندما أدرت محرك العربة ثانية، كانت تحاول أن تقول شيئاً. أوقفت المحرك ووضعت أذني على شفتيها، لكني لم أتبين كلماتها. كانت أقرب إلى ريح تصفر في شق في الجدار منها إلى كلمات. بأقصى جهدها كررت الكلمات مرة وأخرى. أخيراً، خرجت كلمة «الدواء».

سألت: «تريدين الدواء؟»

أومأت برأسها قليلاً، لكني رأيت ذلك. وكان كل ما استطاعَت قوله. بحثت في جيب معطفها. محفظة، منديل، حاملة مفاتيح معلقِ فيها عدة مفاتيح لكن لا دواء. فتحت حقيبة كتفها، حيث وجدت علبة صغيرة فيها أربع كبسولات. عرضتها عليها. «هل هذه هي؟»

هزت رأسها دون أن تفتح عينيها.

دفعت مقعدها إلى الخلف، فتحت فمها ووضعت

الكبسولة فيه. لكن فمها كان جافاً كالعظم ولا يبلع شيئاً. بحثت بجنون عن آلة بيع سوائل، لم أجد أياً منها، وليس هناك وقت للبحث. كان الثلج حولنا المصدر الوحيد للماء. شكراً لله أن كان كثير منه في الجوار. وثبت خارج العربة، أخذت بعض الثلج النظيف في يديَ من تحت إفريز بناية ووضعتها في طاقية شيماموتو الصوفية. رويداً، رويداً وضعت الثلج في فمي وأذبته. استغرق ذلك بعض الوقت وتخدر رأس لساني. فتحت فمها وتركت الماء ينساب من فمي إلى فمها. أمسكت بأنفها وأجبرتها على ابتلاع الماء. غصت قليلاً لكن بعد عملي ذلك مرتين، استطاعت ابتلاع الكبسولة.

نظرت إلى العلبة، لم يكن مكتوب عليها شيئاً، لا اسم الدواء ولا حتى طرق استخدامه. غريب، فكرت، آخذاً في عين الاعتبار أن مثل هذه المعلومات تتوفر عادة حتى لا يؤخذ الدواء بالخطأ، أو حتى يعرف الناس ماذا يفعلون. أعدت العلبة إلى حقيبتها وراقبتها بعض الوقت. لم تكن عندي فكرة عن الدواء ولا عن أعراض مرضها، لكن حيث إنها تحمل الدواء معها طوال الوقت، لابد أنه فعال. بالنسبة لها على الأقل، لم تكن النوبة غير متوقعة.

بعد عشر دقائق بدأ اللون يعود إلى وجهها. بلطف وضعت خدي على خدها، كان الدفء يسري. تنفست الصعداء وأجلستها ثانية على مقعدها. لن تموت الآن. وضعت ذراعي حول كتفها وفركت خدي بخدها. ببطء، ببطء شديد، كانت تعود إلى عالم الأحياء.

همست بصوت جاف: «هاجيمي»

سألتها: «ألا ينبغي أن نذهب إلى المستشفى؟ ربما علينا أن نجد أقرب قسم طوارىء».

أجابت: «كلا، لا داع لذلك. أنا بصحة جيدة. إذا أخذت دوائي أكون على ما يرام. أعود طبيعية في غضون دقائق. ما علينا أن نفكر به هل سنلحق بالطائرة في الوقت المناسب».

«لا تفكري بذلك بحق الله. سنبقى هنا حتى تتحسن صحتك».

مسحت فمها بمنديل. أخذت المنديل ونظرت إليه. «هل أنت دائماً لطيف مع الجميع هكذا؟»

قلت: «ليس مع الجميع. معك نعم. لا يمكنني أن أكون لطيفاً مع الجميع. هناك حدود للطفي. حتى معك. أتمنى لو لم تكن موجودة، حتى أفعل المزيد لك. لكني لا أستطيع».

أدارت وجهها والتفتت إليَّ ثم قالت بصوت ضعيف «هاجيمي، لم أفعل ذلك حتى لا نلحق بالطائرة».

نظرت إليها بدهشة: «بالطبع، لست بحاجة لقول ذلك. كنت مريضة، لا يمكنك فعل شيء آخر».

قالت: «آسفة»

«لا حاجة للاعتذار. لم تفعلي شيئاً خاطئاً».

«لكني أفسدت خططك».

مسست شعرها، انحنيت وقبلت خدها. كنت تواقاً لضم جسدها كله والشعور بدفئه. لكني لم أقدر. كل ما كان بوسعي فعله تقبيل خدها. كان دافئاً، ناعماً ومبتلاً. قلت: «لا تقلقي بخصوص أي شيء. سيكون كل شيء على ما يرام».

حين وصلنا إلى المطار وأعدنا السيارة، كان وقت الإقلاع قد مر. لكن من حسن الحظ، تأخرت طائرتنا. كانت ما تزال رابضة على المدرج والركاب ينتظرون في قاعة الانتظار. تنفس كلانا الصعداء. كانوا يجهزون الطائرة، أخبرنا موظف في المطار. قال: «لا نعلم كم سيستغرق ذلك، ليست لدينا أي معلومات إضافية».

راح الثلج يتساقط عندما وصلنا المطار، وأصبح الآن كثيفاً. قد تتأجل الرحلة بسبب كل هذا الثلج. سألتني شيماموتو: «ماذا ستفعل إذا لم نستطع العودة إلى طوكيو اليوم؟»

«لا تقلقي، ستقلع الطائرة». قلت دون أن أملك دليلاً. كانت فكرة عدم الإقلاع تصيبني بالكآبة، إذ ينبغي أن أختلق عذراً مقنعاً. لماذا ذهبت كل هذه المسافة إلى اشيكاوا؟ كفى، قلت لنفسي، دعنا نواجه هذه المشكلة عندما تحصل. ما كان عليَّ القلق بشأنه هي شيماموتو.

سألت: «وأنت؟ ماذا ستفعلين إذا لم نستطع العودة إلى طوكيو اليوم؟»

هزت رأسها وقالت: «لا مشكلة عندي ، أنت الذي

سيكون في ورطة».

«ربما. لكن لا تخافي، لم يقولوا إن الرحلة قد ألغيت بعد».

قالت كما لو كانت تحدث نفسها: «كنت أدري أن شيئاً من هذا القبيل سيحدث! حين يتعلق الأمر بي لا شيء يجري على ما يرام. يمكنك المراهنة على ذلك. إذا اشتركت في مسألة عندها يفسد كل شيء. تسير الأمور بسلاسة، ثم أدخل، بووم ! وتتساقط الأشياء وتتبعثر إلى شظايا».

جلست على مقعد في بهو المطار أفكر في المكالمة الهاتفية التي ينبغي أن أجريها مع يوكيكو إذا ألغيت الرحلة فعلاً. فكرت ملياً بالأعذار الممكنة، لكن كل ما جال ببالي بدا ضعيفاً. أقول إنني ذهبت لقضاء يوم الأحد معه أصدقائي في نادي السباحة ثم انتهى بنا الأمر إلى إِشيكاوا الثلجية. لا سبيل لشرح ذلك. قد أخبرها: «عندما غادرت البيت سيطرت عليَّ رغبة قوية لزيارة بحر اليابان، لذا ذهبت إلى مطار هايندا. اعمل معي معروفاً، إذا كان هذا أفضل ما عندك، حبذا لو تبقى صامتاً، أو الأفضل أن أقول الحقيقة. قبل ذلك بوقت طويل، أدركت بدهشة أنني في الواقع كنت أتمنى أن يسقط الثلج وتلغى الرحلة. في اللاوعي كنت أتمنى أن تعرف زوجتي عن قدومي هنا مع شيماموتو. أردت أن أضع حداً للأعذار والكذب. وأردت أن أبقى حيث أنا وشيماموتو بجانبي أكثر من أي شيء آخر، وليكن ما يكون.

أقلعت الطائرة أخيراً، بعد تأخر ساعة ونصف. مالت شيماموتو داخل الطائرة عليَّ ونامت. ربما أغمضت عينيها فقط. وضعت ذراعي على كتفها وضممتها إليَّ. أحياناً، بدا أنها تبكي. كانت صامتة طوال الوقت. تبادلنا أول كلمات قبل هبوط الطائرة.

«سيدة شيماموتو، هل أنت متأكدة أنك على ما يرام؟»

مستكينة بجواري أومأت برأسها: «أنا بخير، طالما تناولت الدواء، لذا لا تقلق! أسندت رأسها ثانية على كتفي. «لكن لا تسألني شيئاً. حسناً؟ لماذا حدث ذلك؟»

قلت: «فهمت. لا أسئلة».

قالت: «أشكرك شكراً جزيلاً على هذا اليوم»

«أي جزء منه؟»

«أخذي إلى النهر، إعطائك الماء لي بفمك، وتحملك لي».

نظرت إليها. كانت شفتاها أمامي مباشرة. الشفتان اللتان قبلتهما عندما أعطيتها الماء، ومرة أخرى بدا أن هاتين الشفتين تتوقان لي. كانتا منفرجتين قليلاً وأسنانها البيضاء الجميلة بالكاد بادية. كان بإمكاني الإحساس بلسانها الناعم الذي لمسته قليلاً وأنا أعطيها الماء. وجدت التنفس صعباً وعجزت عن التفكير. احترق جسدي. إنها تريدني فكرت، وأنا أريدها. لكن لسبب ما كبحت نفسي. كان عليَّ التوقف حيث أنا. خطوة أخرى ولن تكون هناك عودة.

اتصلت بالبيت من مطار هانيدا. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف. آسف على تأخري. أخبرت زوجتي. لم أستطع الاتصال. سأعود في غضون ساعة. قالت: «انتظرت طويلاً، ثم تناولت العشاء. لقد طهوت يخنة»

أوصلت شيماموتو بعربتي التي كنت قد تركتها في المطار. سألتها: «إلى أين أوصلك؟»

قالت: «يمكنك تركي في أوياما. سأعود بنفسي»

«هل ستكونين على ما يرام؟»

ابتسمت ابتسامة عريضة وأومأت برأسها. انطلقنا بصمت حتى وصلنا إلى الشارع الرئيس. كنت قد وضعت شريط كونشيرتو أورغان لهانديل بصوت خفيف. ضمت شيماموتو يديها معاً برشاقة في حجرها وراحت تنظر خارج النافذة. كان مساء يوم أحد والعربات من حولنا مليئة بالعائلات العائدة من الأماكن التي خرجت إليها. قدت العربة بسرعة.

قالت شيماموتو ونحن نقترب من أوياما: «هاجيمي، كنت أفكر كم كان من الرائع لو لم تقلع الطائرة».

كنت أفكر بالشيء نفسه، أردت أن أخبرها، لكني لزمت الصمت. كان فمي جافاً فلم تخرج الكلمات منه. أومأت برأسي ومددت يدي إلى يدها. في ركن من شارع أوياما، طلبَتْ أن أتوقف لتهبط.

سألتني بنعومة وهي تفتح الباب: «هل يمكن أن آتي لرؤيتك. هل ما زلت تحتمل أن تكون معي؟»

قلت: «سأنتظرك»

أومأت شيماموتو برأسها.

فكرت وأنا أنطلق بعيداً. إذا لم أراها قط، سأصاب بالجنون. ما إن غادرت العربة وذهبت حتى أصبح عالمي فجأة خاوياً عديم المعنى.

11

بعد أربعة أيام من رجوعي وشيماموتو من أشيكاوا، تلقيت مكالمة هاتفية غير متوقعة من والد زوجتي. قال إنه يريدني أن أسدي له معروفاً ودعاني إلى تناول الغداء معه في اليوم التالي. وافقت، مندهشاً بصراحة. في العادة يسمح برنامج عمله المشغول بدعوات غداء العمل فقط.

انتقلت شركته قبل ستة أشهر من يويوجي إلى عمارة جديدة مكونة من سبعة طوابق في يوتسويا. يحتل مكتبه الطابقين العلويين ويؤجر الطوابق الخمسة الأخرى لشركات أخرى، ومطاعم ومحلات تجارية. كانت تلك المرة الأولى التي أذهب فيها إلى هناك. كان كل شيء لامعاً جديداً رائعاً. أرضية البهو من الرخام والسقف ككاتدرائية والزهور تتراكم في مزهريات سيراميكية ضخمة. عندما خرجت من المصعد في الطابق السادس قابلتني موظفة استقبال بشعر في غاية الجمال كما لو كانت في دعاية تجارية للشامبو. اتصلت بوالد زوجتي لتخبره أنني قدمت. كان لديها هاتف رمادي غامق اللون من تقنية عالية ذكرني بملعقة صيدلي مربوطة بآلة حاسبة. ابتسمت ببهجة وقالت: «تفضل، الرئيس في انتظارك»، ابتسامة فاتنة وإن لم تكن من نفس مستوى ابتسامة شيماموتو.

كان مكتب الرئيس في الطابق العلوي حيث تعرض نافذة واسعة منظر المدينة. لم يكن منظراً يبعث الدفء في القلب، لكن الحجرة كانت مشرقة النور وواسعة، ولوحة انطباعية معلقة على الجدار، صورة منارة وقارب. بدت مثل لوحة لسورا، ومن المرجح أنها أصيلة.

قلت: «العمل مزدهر، كما أرى!»

أجاب: «ليس سيئاً». سار صوب النافذة وأشار للخارج. «ليس سيئاً بتاتاً، وسيكون حتى أفضل. هذا هو وقت جني بعض المال. بالنسبة لمن هم مثلي، فرصة كهذه تأتي مرة كل عشرين أو ثلاثين سنة. إذا لم تجني المال الآن، لن تجنيه أبداً. هل تدري لماذا؟»

«ليست لدي فكرة. البناء ليس حقلي بالضبط».

«انظر إلى طوكيو من هنا. هل ترى كل قطع الأرض الفارغة؟ مثل فم مليء بالأسنان المفقودة. إذا نظرت من مكان مرتفع كهذا، يصبح كل شيء واضحاً، لكن إذا سرت على الأرض لن ترى ذلك. كانت هناك بيوت قديمة وبنايات في هذه المساحات، لكنها هدمت. ارتفع سعر الأرض هنا بحيث لم تعد البنايات القديمة مربحة. لا يمكنك طلب أجرة مرتفعة ومن الصعب العثور على مستأجرين. لهذا السبب هم بحاجة إلى بنايات جديدة وكبيرة. والبيوت الخاصة في المدينة - حسناً، لا يمكن للناس دفع ضرائبها أو ضرائب الإرث. لذا يبيعونها وينتقلون إلى الضواحي. تشتري شركات البناء المحترفة هذه

البيوت القديمة، تهدمها وتعمر بنايات جديدة أكثر عملية مكانها. وعليه، تحلّ عمارات جديدة في الفراغ الشاغر سريعاً. في غضون سنتين لن تعرف طوكيو. ليس هناك نقص في رأس المال .الاقتصاد الياباني مزدهر والبورصة مرتفعة. والبنوك تضخ السيولة. إذا ملكت الأرض كعامل ملازم، تعطيك البنوك قروضاً قدر ما تريد. يفسر هذا سبب تعمير هذه البنايات واحدة تلو الأخرى. وهل تدري من يبنيها؟ رجال مثلي».

قلت: «فهمت، لكن إذا شيدت كل هذه البنايات، ماذا سيحدث لطوكيو؟»

«ماذا سيحدث؟ حسناً، ستصبح أكثر حيوية وفاعلية وأجمل. المدن تعكس مجريات الاقتصاد».

«كل ذلك جيداً، لكن طوكيو تختنق بالسيارات. مزيد من ناطحات السحاب، وستتحول الطرقات إلى موقف سيارات ضخم. وكيف سيتم التزود بالمياه إذا حدثت فترة جفاف؟ في الصيف عندما يشغل الناس جميعاً مكيفات الهواء، لن نستطيع توفير الكهرباء الكافية. محطات الكهرباء تعمل بالبترول القادم من الشرق الأوسط، أليس كذلك؟ ماذا سيحدث إن حدثت أزمة نفط أخرى؟ ماذا سنفعل ساعتها؟

«دع الحكومة تفكر في ذلك. أليس هذا سبب دفعنا ضرائب عالية؟ دع كل خريجي جامعة طوكيو يشحذون أدمغتهم. تراهم دائماً يسيرون وأنوفهم المتكبرة شامخة في الهواء ـ كما لو أنهم من يدير البلد. دعهم يضعون رؤوسهم

المدببة في العمل من أجل التغيير. لا أملك إجابة. أنا مجرد بنّاء بسيط. تأتي طلبات البناء فأقوم بها. هذا ما يدعى قوة السوق، هل أنا مصيب؟»

لم أقل شيئاً. لم آت إلى هنا من أجل مناقشة الاقتصاد الياباني.

قال: «على كلٍ، دعنا من كل هذه الأمور المعقدة ولنذهب لتناول الطعام، فأنا جائع».

في عربته المرسيدس الضخمة انطلقنا إلى مطعمه المفضل المتخصّص في شواء سمك الجريث في أكاساكا. أُخذنا إلى حجرة خاصة في الخلف، حيث جلسنا لتناول الطعام. كان النهار في منتصفه، لذا شربنا قليلاً من الساكي، لكن والد زوجتي راح يشرب كأساً تلو آخر.

سألت: «قلت إنك تريد الحديث معي بخصوص أمر ما!» فقد كنت أريد إذا كان خبراً سيئاً أن يخبرني به منذ البدء.

قال: «أريد أن أطلب منك معروفاً. ليس في الواقع كبيراً، أريد أن أستخدم اسمك فقط في شيء ما».

«اسمي؟»

«سأفتح شركة جديدة وأحتاج إلى استخدام اسم شخص كمؤسس. لست بحاجة إلى مؤهلات خاصة. اسمك فقط. أعدك أن لا يسبب لك ذلك أي متاعب، وسأجعله مربحاً لك».

قلت: «لا تفكر في ذلك. إذا كان يساعدك يمكن أن تستخدم اسمي كما تريد. لكن أي نوع من الشركات تتكلم

عنه؟ إذا كان اسمي سيذكر كمؤسس، ينبغي أن أعرف هذا على الأقل».

أجاب: «حسناً، في الحقيقة، ليست شركة حقيقية، بل بالاسم فقط. يجب أن أقول إنها في الواقع لا وجود لها».

«شركة مزيفة؟ بعبارة أخرى شركة وهمية».

«أظن أن بإمكانك أن تدعوها كذلك »

«ما الفكرة؟ هل هذا لتفادي الضريبة؟»

«ليس تماماً «قال على مضض.

تجرأت على القول: «رشاوى ؟ »

قال: «نوعاً ما. سأكون أول من يعترف أن هذا ليس أعظم شيء في العالم ليشترك الإنسان فيه. لكن في مهنتي، ينبغي فعل ذلك».

«حسناً، ماذا إذا نتج عن ذلك مشاكل؟»

«ليس هناك ما هو غير قانوني في تأسيس شركة».

«أعني ما تفعله الشركة».

أخذ سيجارة من جيبه وأشعلها بعود ثقاب. ونفث الهواء في الجو فوق رأسه.

«لن تكون هناك مشاكل. حتى لو حدثت، أي شخص بنصف ذكائي يمكنه أن يرى أنك أعرت اسمك للشركة. طلب والد زوجتك منك استخدام اسمك ففعلت. لا مسؤولية في ذلك».

لم أقل شيئاً برهة. «أين ستذهب كل هذه الرشاوى؟»

«من الأفضل لك عدم معرفة ذلك».

قلت: «أخبرني المزيد عن ما يسمى قوى السوق هذه. هل ستذهب إلى جيوب بعض السياسيين؟»

قال: «قليلاً »

«البيروقراطيين ؟»

أطفأ والد زوجتي لفافته في المطفأة. «سيكون هذا ابتزازاً، أليس كذلك؟. سأعتقل؟»

«لكن كل من في ميدان عملك يفعل ذلك، صحيح؟ »

قال: «أظن ذلك «ثم عَبَسَ وكشّر وأضاف «لكن ليس إلى حد أن يعتقلوا».

«ماذا عن الياكوزا؟ إنهم يمدون يد المساعدة حين يتعلق الأمر ببيع الأرض، أليس كذلك؟»

«لم أنسجم يوماً معهم. على كلٍ، لا أحاول أن أحرج السوق. هذا عمل مربح، لكني لا أقوم به. كما أسلفت أنا مجرد بنّاء بسيط».

تنهدت بعمق.

قال: «علمت أنك لن تحب ذلك».

«لا يهم إن أحببت ذلك أم لم أحببه، حيث إنك ضممتني إلى التسوية وشرعت في ذلك، مفترضاً قبولي، أليس كذلك؟».

ضحك ضحكة خفيفة: «أخشى أنك محق في ذلك».

تنهدت ثانية. «أبي، الحقيقية أني لا أحب هذا النوع من الأمور. لا أعني لأنها غير قانونية أو ما شابه، بل لأني مجرد رجل عادي يعيش حياة عادية. لذا أفضل عدم الخوض في صفقات الغرف الخلفية».

قال: «أنا مدرك لذلك. لذا دع الأمر كله لي. لن أتركك مدلى لتجف. إذا فعلت، ستكون يوكيكو والطفلتان مربوطتين بهذا أيضاً. ولن أدع ذلك يحدث. أنت تدري كم أحبّ ابنتي وحفيدتيّ وكم يعنون لي».

أومأت برأسي. لم أقدر على رفض طلبه، ذلك يسبب لي الكآبة. رويداً، رويداً قد أتورط في ذلك العالم. هذه هي الخطوة الأولى، أقول نعم مرة، ثم تمسي شيئاً آخر في وقت لاحق.

سأل فجأة: «كم عمرك الآن؟»

أجبت: «سبعة وثلاثون».

نظر إليّ بثبات.

قال: «سبعة وثلاثون هو العمر الذي يلعب فيه المرء كثيراً. العمل يجري على ما يرام والثقة تزداد. لذا تأتي النساء إليك، صحيح؟»

ضحكت وأنا أتفحص تعبير وجهه: «في حالتي أخشى أن هذا لا يحدث كثيراً». للحظة ارتبكت، وتيقنت أنه اكتشف علاقتي بشيماموتو، لهذا طلب مني القدوم إلى هنا اليوم. ولن

يثير زوبعة كبيرة حول ذلك.

«عندما كنت في سنك، لهوت قليلاً، لذا لا أقول لك لا تُقِم علاقات. غريب أن أقول ذلك لزوج ابنتي، لكني أعتقد أن مغامرة أو اثنتين على الهامش ليس أمراً سيئاً، وتعيد لك النشاط. جرب ذلك بين فينة وأخرى فتتحسن حياتك الزوجية، وسيكون بإمكانك التركيز أكثر في عملك. وعليه، إذا عاشرت النساء الأخريات، لن أتفوه بكلمة. اللهو عادي بالنسبة لي، لكن كن حذراً في اختيار رفيقاتك. أقم صلة مع شخص خاطئ تتكدر حياتك. رأيت ذلك يحدث مليون مرة».

أومأت برأسي. وفجأة تذكرت إن يوكيكو قالت إن أخاها، الذي هو أصغر مني، وزوجته غير متفاهمين. لدى أخوها صديقة ولم يعد يأتي إلى البيت. أتصور أن حماي قلق على ابنه الكبير ولهذا ذكر هذا الموضوع.

«على كلٍ، لا تتورط في شيء لا يستحق العناء. افعل ذلك وستجد أنك أصبحت بلا قيمة. أقم علاقة مع امرأة حمقاء، تصبح أحمقاً أنت أيضاً. تقِم علاقة مع امرأة من طبقة رفيعة المستوى. هذا يجعل من الصعب عليك العودة إلى بيتك. هل تفهم ما أرمي إليه؟»

أجبت: «أظن ذلك.»

«طالما حفظت بعض الأمور في ذهنك، ستكون على ما يرام. أولاً، لا تفتح بيتاً خاصاً للمرأة. هذا خطأ مؤكد. ثانياً، مهما حدث عد إلى بيتك قبل الثانية صباحاً. الساعة الثانية

صباحاً نقطة اللاعودة. أخيراً، لا تستخدم أصدقاءك كغطاء لعلاقتك، فقد تكشف. إذا حدث ذلك، حسناً، ليس هناك ما بوسعك القيام به. لكن لا حاجة لخسارة صديق جراء ذلك».

«يبدو أنك تتكلم عن خبرة».

قال: «صحيح، الرجل يتعلم من الخبرة فقط. هناك من لا يتعلم، أعلم أنك لست واحداً منهم. لديك عين مميزة، شيء لا تتعلمه إلا بالتجربة. زرت بارك مرتين فقط، لكن رؤية ذلك كان جلياً. تعرف كيف توظف العمال الجيدين وكيف تعاملهم جيداً».

لزمت الصمت حتى يستمر في الكلام.

«كما أن لديك عين مميزة لاختيار زوجة صالحة. يوكيكو سعيدة بالعيش معك. وطفلتاك رائعتان. أنا ممتن لك على ذلك».

كان ثملاً، فكرت. لكن لم أقل شيئاً.

«ربما لا تعرف أن يوكيكو حاولت الانتحار مرة. أخذت كمية كبيرة من الحبوب المنومة. أسرعنا بها إلى المستشفى ولم تسترد وعيها إلا بعد يومين. كنت متأكداً أنها لن تتعافى. كان جسمها بارداً وتتنفس بصعوبة. فكرت أنها سترحل، وشعرت أن العالم على وشك السقوط».

نظرت إليه: «متى حدث ذلك؟»

حين كانت في الثانية والعشرين. بعد التخرج من الجامعة مباشرة. كان ذلك بسبب رجل أحمق حقيقي تورطت معه. تبدو

يوكيكو هادئة لكنها في الداخل صلبة وذكية. لذا لا أدري كيف تورطت مع شخص كهذا». مال على عامود الحجرة التقليدية التي كنا فيها، ووضع سيجارة بين شفتيه، وأشعلها. «حسناً، كان ذلك رجلها الأول. يرتكب الجميع الأخطاء أول مرة. بالنسبة ليوكيكو كانت تلك صدمة عظيمة. لذا حاولت قتل نفسها. بقيت بعد ذلك مدة طويلة دون أي شيء يتعلق بالرجال. كانت دوماً منفتحة، لكنها توقفت عن الحديث مع الناس ومكثت في البيت. حين قابلتك، بدأت تبتهج. قامت بانعطاف كبير. أذكر أنكما تقابلتما في رحلة».

«هذا صحيح، في ياتسوجاتاكي».

«كان عليَّ أن أدفعها خارج الباب حتى تخرج. فكرت أن السفر قد يفيدها».

أومأت برأسي وقلت: «لم أعرف شيئاً عن الانتحار».

«فكرت أنه من الأفضل أن تدري، لم أذكر ذلك أبداً. لكن أزف الوقت لأن تعرف. ستبقيان معاً وقتاً طويلاً، لذا من الأفضل أن تعرف كل شيء - الجيد والرديء. علاوة على ذلك، حدث ذلك منذ زمن بعيد». أقفل عينيه ونفث الدخان في الهواء. «من الغريب أن أدلي بذلك وأنا والدها، لكنها امرأة صالحة. لهوت كثيراً ولدي نظرة في السيدات. سواء كانت ابنتي أم لا، يمكنني الحكم على السيدات بشكل جيد. ابنتي الأصغر أجمل منها بكثير، لكن يوكيكو أفضل. أنت حكم جيد على البشر».

لزمت الصمت.

«ليس لديك أخوة أو أخوات، أليس كذلك؟»

قلت: «كلا »

«هل تعتقد أني أحب أبنائي الثلاثة بالقدر نفسه؟»

«لا أدري »

«وأنت؟ هل تحب ابنتيك بالقدر نفسه؟»

«طبعاً »

قال: «لأنهما صغيرتان. انتظر حتى تكبران، في البدء ستحب هذه، ثم تميل نحو الأخرى. ستكتشف يوماً ما أعني».

قلت: «حقاً؟ »

«لم أقل ذلك لهم يوماً. لكن من بين أبنائي الثلاثة، يوكيكو هي الأحب إليّ. أشعر بالغصة حين أقول ذلك للآخرين. لكن يوكيكو وأنا منسجمان تماماً ويمكنني أن أثق بها».

أومأت برأسي.

«لديك نظرة جيدة في البشر، وهذه موهبة رائعة عليك الحفاظ عليها. أنا حالة ميئوس منها، لكني ربيت على الأقل ما هو غير ميؤوس منه».

ساعدت حماي الثمل الآن تماماً للصعود إلى عربته المرسيدس. غاص في المقعد الخلفي وفرش ساقيه على وسعهما وأغمض عينيه.

أوقفت سيارة تاكسي وعدت إلى البيت. أرادت يوكيكو أن تعرف ما الهدف من غدائنا ما أن وصلت إلى البيت.

قلت: «لا شيء مهم في الواقع. والدك يريد من يشرب معه. وانتهى به الأمر ثملاً. أعجب إن كان بإمكانه العودة إلى العمل على هذه الحالة».

ضحكت يوكيكو: «إنه دوماً كذلك. يتناول الشراب في الغداء، ثم يأخذ قيلولة لمدة ساعة على الأريكة في مكتبه. لم تصل الشركة إلى مرحلة التصفية بعد، فلا تقلق».

«لم يعد يشرب كما اعتاد».

«كلا، قبل أن تموت أمي، كان يشرب حتى الثمالة ولا يظهر عليه ذلك. كان قوياً، لكن الجميع يكبرون».

سخنت ركوة قهوة وجلسنا على مائدة الطعام لشربها. قررت عدم ذكر شيء عن الشركة الوهمية وطلب والدها. ستظن أنه يزعجني ولن تحب ذلك. من المؤكد أن يوكيكو ستقول: «صحيح أنك استدنت منه مالاً، لكن لا علاقة لذلك بهذا. أنت تدفع الدين مع الفائدة، أليس كذلك صحيح؟» لكن الوضع لم يكن بهذه البساطة.

كانت ابنتي الصغيرة نائمة في حجرتها. عندما انتهيت من شرب القهوة، جذبت يوكيكو إلى الفراش. خلعنا ملابسنا وضممنا بعضنا بعضاً في وهج الشمس. أخذت وقتي لأبعث الدفء فيها، ثم ولجتها. لكن طوال الوقت الذي كنت فيه في داخلها، كانت شيماموتو من أرى. أغمضت عيني وشعرت

بأنني أضم شيماموتو. وقذفت بقوة .

استحممت وعدت إلى الفراش لأنام. كانت يوكيكو مرتدية ملابسها، لكنها تسللت للفراش دلفت تحت الغطاء ووضعت شفتاها على ظهري. لزمت الصمت وعيني مغمضتان. مارست الحب معها وأنا أفكر طوال الوقت بامرأة أخرى، وكان الشعور بالذنب يؤرقني.

قالت يوكيكو: «هل تعلم، أنا بالفعل أحبك».

قلت: «نحن متزوجان من سبع سنوات ولدينا طفلتان. ألم يحن الوقت لأن تضجري مني، ألا تعتقدين ذلك؟»

«ربما، لكني ما زلت أحبك».

ضممتها أكثر وشرعت في خلع ملابسها، خلعت كنزتها وتنورتها وملابسها الداخلية.

سألت بدهشة: «أنت لا تخطط لما أعتقد أنك تخطط له، أليس كذلك؟»

قلت: «بالطبع »

قالت: «شيء خاص ليكتب في يومياتي اليوم».

حاولت هذه المرة أن لا أفكر في شيماموتو. ضممت جسد يوكيكو ناظراً إلى وجهها ومركزاً عليها فقط. قبلت شفتيها، رقبتها، صدرها، وقذفت داخلها. بعد ذلك ضممتها مدة طويلة.

سألت وعينها عليَّ: «هل أنت على ما يرام؟ هل حدث شيء بينك وبين والدي اليوم؟»

أجبت: «لم يحدث شيئاً. لا شيء، أشعر برغبة بالبقاء هكذا بعض الوقت».

قالت: «تفضل «وضمتني بقوة وأنا ما أزال داخلها. أغمضت عينيَّ وجذبتها إليَّ بشدة، كما لو أني لم أفعل لكنت قد طرت في الفراغ.

تذكرت محاولة الانتحار التي أخبرني والدها عنها وأنا أضمها. «كنت متأكداً أنها لن تتعافى. فكرت أنها سترحل». لو أن الأمور آلت قليلاً إلى خطأ، لما كنت أحضن جسدها هكذا. بلطف لمست كتفها وشعرها وصدرها. كانت دافئة وناعمة حقاً. كان بإمكاني الإحساس بحياتها تحت راحة يدي. لا أحد يعلم كم ستستمر هذه الحياة. كل ما يتشكل يمكن أن يختفي في دقيقة. يوكيكو، هذه الغرفة، هذه الجدران، هذا السقف، هذه النافذة. كلها قد تذهب قبل أن نعي ذلك. فجأة، خطرت أزومي ببالي. الرجل آذى مشاعر يوكيكو وأنا آذيت مشاعر أزومي. حدث وأن قابلتني يوكيكو بعد ذلك، لكن أزومي وحيدة.

قبلت عنق يوكيكو الناعم.

قلت: «سأنام قليلاً. وبعدها أذهب إلى مدرسة الروضة لجلب ابنتي».

ردّت: «نوماً هنيئاً».

لم أرقد إلا قليلاً. عندما فتحت عيني كانت الساعة قد جاوزت الثالثة بعد الظهر. من نافذة حجرة النوم كان بإمكاني رؤية مقبرة أوياما. جلست في كرسي قرب النافذة وحدقت بها لوقت طويل. كثير من الأشياء تبدو مختلفة الآن، منذ أن ظهرت شيماموتو في حياتي ثانية. كنت أسمع يوكيكو تحضر العشاء في المطبخ. كان الصوت يقرع بفراغ في أذنيَّ، كما الصوت المبثوث داخل أنبوب من عالم مرعب بعيد.

أخرجت سيارة «بي. إم. دبليو». من مرآب تحت الأرض وانطلقت في اتجاه المدرسة لجلب ابنتي. كان لديهم برنامجاً خاصاً ذلك اليوم، لذا كانت قد قاربت الرابعة حين وصلنا البوابات. يمكنك الرهان على رؤية عربات فاخرة لامعة باهظة الثمن هناك - «ساب، جاكوار وحتى ألفا روميو». الأمهات الشابات في معاطف ثمينة يخرجن من العربات ويأخذن أطفالهن، يضعنهم فيها وينطلقن. كانت ابنتي الوحيد التي يأتي والدها لأخذها. عندما رأيتها، لوحت لها بيدي. لوحت بيدها الصغيرة وجاءت إليَّ. رأت فتاة صغيرة تجلس في سيارة مرسيدسE 260 زرقاء، فركضت إليها صائحةً بشيء ما. كانت الفتاة الصغيرة ترتدي طاقية صوفية حمراء وتخرج رأسها من النافذة. كانت أم الفتاة ترتدي معطف كشمير أحمر اللون ونظارات شمسية كبيرة. عندما ذهبت أمسكت بيد ابنتي، التفتت المرأة إلي وابتسمت ابتسامة عريضة. رددت لها الابتسامة

بمثلها. المعطف الأحمر والنظارات الشمسية الكبيرة ذكرتني بشيماموتو. شيماموتو التي تبعتها من شيبيا إلى أوياما .

قلت: «مرحباً».

قالت: «مرحبا».

كانت المرأة في غاية الجمال. لا يمكن أن تكون قد جاوزت الخامسة والعشرين. كان ستيريو سيارتها يبث أغنية توكنج هيدز «إحراق البيت».

في المقعد الخلفي كيسا تسوق ورقيين من كينوكونيا. كانت ابتسامتها جميلة. همست ابنتي شيئاً لابنتها ثم ودعتها. قالت الفتاة «وداعاً «ثم أقفلت النافذة. أمسكت بيد ابنتي وسرنا إلى حيث أوقفت سيارتي.

سألت: «كيف كان يومك؟ هل حدث شيء جيد؟»

هزت رأسها بحزن: «لا شيء جيد إطلاقاً. كان يوماً فظيعاً».

قلت: «وقت صعب لكلانا «وانحنيت وقبلت جبينها. عبست مثل أصحاب المطاعم الفرنسية المتكبرين حين تقدم لهم بطاقة أميركان إكسبرس. أخبرتها: «أنا على يقين أن غداً سيكون أفضل».

أردت أن أصدق ذلك أيضاً. عندما أفتح عينيَّ غداً، سيكون العالم جديداً وتكون كل المشاكل قد حلت. لكني لم

أتقبل هذا السيناريو، إذ أن لدي زوجة وطفلتين وأحب امرأة أخرى.

قالت ابنتي: «أبي، أريد أن أركب حصاناً. هل يمكنك أن تشتري لي حصاناً يوماً ما».

قلت: «حسناً، يوماً ما».

«متى يوماً ما؟»

«حين يوفر الأب ما يكفي من النقود، عندها سيشتري لك حصاناً».

«هل لديك حصالة على شكل خنزير، يا أبي؟»

«نعم، حصالة كبيرة جداً. كبر هذه السيارة. إذا لم أجمع نقوداً كافية لتملأها لن أتمكن من شراء الحصان لك».

«إذا طلبنا من جدي، هل تعتقد أنه سيشتري لنا الحصان؟ جدي غني».

قلت: «هذا صحيح. جدك لديه حصالة كبر العمارة التي هناك، مليئة بالنقود. لكن من الصعب إخراج النقود منها».

فكرت ابنتي قليلاً.

«لكن هل يمكنني الطلب من جدي أن يشتري لي حصاناً يوماً ما؟»

«طبعاً، يمكنك طلب ذلك منه. من يدري، ربما يشتري واحداً لك».

تحدثنا عن الخيول طوال الطريق إلى البيت. أي لون من

الخيول تحب. أي اسم ستطلق عليه. أين تحب أن تمتطيه. أين يمكن أن ينام. وضعتها في المصعد وانطلقت في طريقي إلى العمل. ماذا يحمل الغد في طياته؟ لم اشعر أني في جسدي، ولم يكن جسدي سوى وعاءً وحيداً مؤقتاً حدث أني استعرته. ماذا سيحدث لي غداً لا أدري. شراء حصان لابنتي - أخذت الفكرة منحى ملحٍ غير متوقع. ينبغي أن أشتريه لها قبل أن تختفي الأشياء. قبلَ أن يتحطم العالم إلى شظايا.

12

منذ ذلك الوقت وحتى الربيع، كنت وشيماموتو نتقابل كل أسبوع تقريباً. كانت تأتي إلى أحد البارين، لكن تأتي أكثر إلى «عش روبن»، دائماً بعد التاسعة. تجلس على البار وتشرب كأسين من الكوكتيل وتغادر قرابة الحادية عشرة. كنت أجلس بجانبها ونتبادل الحديث. لم أدر ما كان يدور في ذهن الموظفين، ولم أكترث بذلك. كان ذلك كما كنا في المدرسة معاً ولم أدع ما يفكر به الزملاء بنا يؤثر عليَّ.

كانت تدعوني أحياناً لتناول الغداء معها. نذهب في معظم الأوقات إلى مقهى أميت ساندو. نتناول وجبة خفيفة ونتحدث مدة ساعتين أو ثلاثة. حين يحين موعد ذهابها كانت تنظر إلى ساعتها وتبتسم لي قائلة: «حسناً، يستحسن أن أذهب الآن». لم أقدر على قراءة أي من المشاعر خلف ابتسامتها. لم أدر إن شَعَرَت بالحزن أو لا على المغادرة، أو ربما بالفرج لتخلصها مني. لم يكن حتى بإمكاني معرفة إن كان عليها العودة إلى البيت حقاً.

على كلٍ، خلال الساعتين اللتين نقضيهما معاً بالكاد كنا نتوقف عن الحديث. مع ذلك لم تتلامس أجسادنا مرة. لم أضع يدي على كتفها مرة أو حتى أمسك بيدها.

حين نعود إلى شوارع طوكيو، كانت شيماموتو تبتسم ابتسامتها الهادئة الجذابة، وليس العواطف الجارفة العنيفة التي أظهرتها في ذلك اليوم من فبراير في اشيكاوا. ذهبت الحميمية الدافئة التي ولدت ذلك اليوم. لم نذكر رحلتنا القصيرة الغريبة كما لو تم ذلك باتفاقية غير معلنة. حين نسير جنباً إلى جنب، أتساءل عن العواطف التي في قلبها، وإلى أين ستفضي بها. أحياناً، أنظر عميقاً في عيونها، لكن كل ما أراه صمت لطيف. كالسابق، أعاد خط جفونها الأفق البعيد للذهن. أخيراً صار بإمكاني فهم وحدة أزومي حين كنا نخرج معاً. شيماموتو وعالمها الداخلي الصغير. عالم يخصها وحدها، عالم لا يمكنني دخوله. مرة، بدأ أن باب هذا العالم يفتح ثغرة، لكنه الآن موصد.

شعرت كأنني صبي في الثانية عشر مرتبك وعديم الحيلة. لم تكن لدي فكرة عما ينبغي فعله. حاولت كل ما بوسعي البقاء هادئاً واستخدام عقلي. لكن دون جدوى. كل ما كنت أقوله أو أفعله كان خاطئاً. كانت كل عاطفة تستوعب في تلك الابتسامة المتوهجة. «لا تقلق «كانت ابتسامتها تقول لي، «كل شيء على ما يرام».

لم أكن أعرف شيئاً عن حياة شيماموتو. لم أدر حتى أين تسكن، أو مع من تعيش. هل هي متزوجة أو كانت متزوجة. كل ما عرفته أنها أنجبت طفلاً في شهر فبراير الماضي، مات في اليوم التالي. وأنها لم تعمل أبداً. مع ذلك تلبس دوماً أغلى الملابس وأدوات الزينة، ما يعني أنها تملك مالاً كثيراً. هذا

كل ما أعرفه عنها. ربما كانت متزوجة عندما أنجبت الطفل، لكني لم أكن متأكداً. آلاف من الأطفال يولدون كل يوم خارج نطاق الزواج، أليس كذلك؟

مع مرور الوقت صارت شيماموتو تخبرني قليلاً عن المدرسة المتوسطة والثانوية. لم تكترث بالحديث عنها، حيث إنه ليس هناك صلة بين تلك الأيام والآن. اكتشفت مدى وحدتها. حين كبرت، حاولت أن تكون منصفة مع كل من حولها، ولا تختلق أعذاراً. أخبرتني: «ليس بوسعي أن أعيش تلك النوعية من الحياة». لكن الأمور لم تجر على ما يرام. نم سلوكها عن ظهور سوء فهم أحمق، ما آذى مشاعرها كثيراً. بثبات عزلت نفسها بعيداً. استيقظت في الصباح، تقيأت ورفضت الذهاب إلى المدرسة.

عرضت عليَّ صورة عندما بدأت المرحلة الثانوية. كانت تجلس على مقعد في حديقة، وعباد شمس متفتح حولها. كان ذلك في الصيف، وكانت ترتدي سروالاً قصيراً من القطن وقميصاً رياضياً أبيض اللون. كانت فاتنة الجمال تبتسم للكاميرا ابتسامة عريضة. مقارنة بابتسامتها الآن، كانت تبدو خجولة. مع ذلك كانت ابتسامة رائعة. تلك النوعية من الابتسامة، التي بسبب قلقها، يزداد تأثيرها على الناس أكثر. بالتأكيد ليست ابتسامة فتاة وحيدة تقضي كل يومها بائسة.

أخبرتها: «انطلاقاً من هذه الصورة، أقول إنك كنت أسعد فتاة في العالم».

هزت رأسها قليلاً، ظهرت خطوط ساحرة على زوايا عينيها، نظرت كما لو أنها تتذكر مشهداً بعيداً في الماضي. «هاجيمي، لا يمكنك أن تعرف شيئاً من الصور. إنها مجرد ظل. أنا الحقيقية بعيدة جداً، وهذا لا يظهر في صورة».

أشعرتني الصورة بألم في صدري. جعلتني أدرك كم من الوقت فقدت. سنوات ثمينة لا يمكن استرجاعها مهما حاولت. ذاك وجد في ذلك الزمان فقط، وفي ذلك المكان فقط. حدقت بالصورة مدة طويلة.

سألت: «ما المثير للاهتمام فيها؟»

أجبت: «أحاول ملء الفترة الزمنية. مرت خمس وعشرين سنة منذ أن رأيتك آخر مرة. أريد أن أملأ هذا الفراغ، حتى ولو قليلاً».

ابتسمت ونظرت إليّ متسائلة، كما لو أن شيئاً غريباً في وجهي. قالت: «غريب، تريد أن تملأ تلك الفترة الفارغة من الزمن، وأنا أريدها فارغة».

لم يكن لديها صديق حقيقي قط في المرحلتين الإعدادية والثانوية. كانت فتاة جميلة، لذا اهتم الفتية بها، لكنها لم تعرهم اهتماماً. خرجت مع بعضهم لكن ليس لمدة طويلة.

«من الصعب حب الفتية في تلك السن. أنت تفهم، يكون الفتية المراهقون فظين وأنانيين، وكل ما يفكرون به متى وكيف يدسون أيديهم تحت ملابس الفتيات. خاب أملي، أردت ما كنا نحن الاثنين نقوم به».

«نعم، لكن حين أصبحت في السادسة عشر، لم أكن مختلفاً. كنت فظاً وأنانياً وأحاول دس يدي تحت ملابس الفتيات. هكذا كنت باختصار».

قالت: «كان من الجيّد أني لم أقابلك آنذاك «ابتسمت وأردفت «الوداع في الثانية عشر واللقاء في السابعة والثلاثين ثانية... ربما هذا أفضل لنا».

«أعجب »

«الآن بإمكانك التفكير في أشياء غير ما تحت ملابس الفتيات، أليس كذلك؟»

قلت: «أشياء، لكن إذا كنت قلقة يمكنك ارتداء بنطال في المرة القادمة!» حدقت شيماموتو في يديها اللتان على المنضدة وضحكت. لم تكن تلبس خاتماً. سوار وساعة جديدة كلما تقابلنا. وأقراط، لكن لا خواتم».

داومت: «لم أود أن أكون عبئاً على أي فتى. تعلم ما أعني. كانت هناك أشياء كثيرة لم أستطع فعلها. الذهاب في رحلات المشي، السباحة، التزلج على الجليد، الانزلاق على أحذية، والرقص في ديسكو. كان السير صعباً. كل ما كنت قادرة عليه الجلوس مع شخص والحديث والاستماع إلى الموسيقى، أمر لا يتحمله الفتية في ذلك العمر طويلاً. وكرهت ذلك».

شربت بيرييه مع قطعة ليمون. كان بعد ظهر يوم في منتصف مارس/آذار، وبعض الشباب يمرون في الشارع

بقمصان نصف كم.

«لو خرجت معك آنذاك، أعلم أني كنت سأكون في النهاية عبئاً عليك. ولكنت قد ضجرت مني آجلاً أم عاجلاً. ربما كنت تريد أن تكون أكثر حيوية وتركض واثباً في العالم الخارجي الشاسع. ولما كنت قد تحملت ذلك».

قلت: «سيدة شيماموتو، هذا مستحيل. لا يمكن أن أفقد صبري معك. لديك شيء خاص جداً. لا أستطيع شرح ذلك بالكلمات، لكن هذا صحيح. شيء خاص ثمين».

نظرت إلي عن كثب، دون أن يتغير تعبير وجهها.

أردفت: «لست شخصاً عظيماً. لست شخصاً يُفتخر به. كنت فظاً، غير حساس ومتغطرس. لذا ربما ما كنت الشخص المناسب لك. لكن هناك شيء أنا متأكد منه. لا يمكن أن أشعر بالملل معك. هذا على الأقل، يجعلني مختلف عن الآخرين الذين كنت تعرفينهم. بهذا أنا بالفعل شخص خاص جداً بالنسبة لك».

انتقلت عينا شيماموتو ثانية إلى يديها على المنضدة. فرشت أصابعها قليلاً، كما لو كانت تحصي أنها عشرة.

بادرتني: «هاجيمي، الحقيقة المحزنة أن بعض الأشياء لا يمكن أن تعود إلى الوراء. حين تبدأ في السير إلى الأمام، لا يمكن أن تعود كما كانت. إذا انحرف شيء صغير، يبقى هكذا إلى الأبد».

اتصلت مرة بي لتدعوني إلى كونشيرتو بيانو لليست. كان

عازف البيانو من أمريكا الجنوبية ومشهوراً. نظمت برنامجي وذهبت معها إلى قاعة الموسيقى في أونو بارك. كان الأداء رائعاً، وتقنية العازف عظيمة، والموسيقى ناعمة وعميقة وأثار الموسيقى مشاعر الجمهور. مع ذلك، وحتى وعيني مغلقتان، لم تعصف الموسيقى بي، إذ بقيت ستارة رقيقة فاصلة بيني وبينها، ومهما حاولت لم أستطع الوصول إلى الجهة الأخرى. عندما أخبرت شيماموتو ذلك بعد الحفلة، وافقتني الرأي.

سألت: «لكن ما العيب في الأداء. فكرت أنه رائع».

قلت: «ألا تذكرين الأسطوانة التي كنا نسمعها في نهاية الحركة الثانية حيث يوجد خدش يمكن سماعه. إلى حد ما دون ذلك الخدش، لا يمكنني الاستمتاع بالموسيقى».

ضحكت شيماموتو: «لا أدعو هذا بالدقة تقديراً للفن».

«لا دخل لهذا بالفن. دعي صقراً أصلع يلتهم الفن، أمر لا يقلقني. لا أكترث لما يقوله أي شخص أحب ذلك الخدش».

أقرت: «لعلك على صواب. لكن لماذا صقر أصلع؟ الصقور العادية أعرفها - تأكل الجثث، لكن الصقور الصلعاء؟»

في القطار أثناء عودتنا شرحت الفروق بالتفصيل: الفرق في مكان مولدها، صوتها، فترات معاشرتها. «يعيش الصقر الأصلع على التهام الفن، بينما الصقور العادية تعيش على أكل جثث الناس غير المعروفين. هناك فرق كبير بينهما».

ضحكت: «أنت غريب». هناك في مقعد القطار، ببطء

شديد حركت كتفها حتى لمس كتفي. المرة الأولى والوحيدة في الشهرين الماضيين تلامس فيهما جسدينا.

مر شهر مارس وكذلك إبريل. بدأت ابنتي الصغيرة في الذهاب إلى مدرسة الروضة. والطفلتان خارج البيت، بدأت يوكيكو العمل التطوعي في الحارة، في مساعدة الأطفال المعوقين. كانت وظيفتي في معظم الأحيان أخذ البنتين من وإلى المدرسة. حين أكون مشغولاً، كانت زوجتي تقوم بذلك. مراقبة الطفلتين وهما تكبران، يوماً بعد يوم، كان يشعرني بالتقدم في السن. كانتا تكبران وحدهما دون أي اعتبار لتخطيط وضعته من أجلهما. أحببت بنتيّ بطبيعة الحال. كانت رؤيتهما وهما تكبران أسعد من أي شيء آخر. مع ذلك أحياناً، رؤيتهما تكبران كل شهر تصيبني بالكآبة. كان ذلك كما لو أن شجرة تنمو في جسدي، تمد جذورها وتنشر أغصانها، وتندفع عميقاً في أعضائي وعضلاتي وعظمي وجلدي، وتشق طريقها إلى الخارج. كان التفكير في ذلك خانقاً جداً إلى حد يحرمني النوم.

كنت أقابل شيماموتو مرة في الأسبوع. ويومياً آخذ بنتيّ إلى المدرسة جيئة وذهوباً. ومرتين في الأسبوع أمارس الحب مع زوجتي، منذ أن بدأت أقابل شيماموتو، صرت أمارس ذلك أكثر. ليس بدافع الشعور بالذنب. حبها ومحبتها لي، كانتا السبيل الوحيد الذي يمكنني فيه أن أتماسك.

سألتني يوكيكو مرة إثر ممارسة الحب بعد ظهر يوم: «لقد تغيرت. ماذا هناك؟ لم يخبرني أحد أن الدافع الجنسي

عند الرجال يصل إلى قمته عند بلوغ السابعة والثلاثين».

أجبت: «لا شيء هناك. الشيء القديم نفسه».

نظرت إليّ، هزت رأسها قليلاً وقالت: «أعجب أحياناً ماذا يدور في رأسك!»

في أوقات فراغي استمع إلى الموسيقى الكلاسيكية وأحدق في مقبرة أوياما. لم أعد أقرأ كما كنت. تشتت تركيزي وتناثر إرباً، إرباً.

رأيت المرأة الشابة في المرسيدس E 260 عدة مرات. في انتظار بناتنا ليخرجن من المدرسة، كنا نقف ونتحدث قليلاً، ذاك النوع من الإشاعات التي يفهما من يعيش في أوياما فقط. نصائح عن أي سوبرماركت يمكنك أن تجد فيها مكاناً لركن سيارتك بسهولة ومتى، آخر ما في مطعم إيطالي ما، من غيّر رئيس طباخيه والآن صار يقدم طعاماً لذيذاً، أخبار مفادها أن محلات ميجي- يا للاستيراد فيها تنزيلات على النبيذ المستورد الشهر القادم، وهلم جرا. اللعنة، فكرت، لقد أصبحت مروج إشاعاتٍ منتظم! لكن هذه هي الأشياء الوحيدةِ التي كانت مشتركة بيننا.

في منتصف إبريل اختفت شيماموتو ثانية. آخر مرة رأيتها، كانت تجلس في بار عش روبن. قبل العاشرة جاءت مكالمة من البار الثاني تتطلب قدومي لشيء ضروري. أخبرتها: «سأعود في غضون ثلاثين دقيقة».

قالت مبتسمة: «أنا على ما يرام. سأقرأ كتاباً أثناء غيابك».

أسرعت لحل المشكلة، ثم عدت بسرعة لكنها لم تكن هناك. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشر. تركت رسالة على قاطع البار مكتوبة على خلف علبة ثقاب تقول: «ربما لن أتمكن من القدوم إلى هنا لفترة. ينبغي العودة إلى البيت الآن. وداعاً».

شعرت بالضياع بضعة أيام. كنت أذرع غرف بيتي، وأهيم في الشوارع دون هدف وأذهب لجلب ابنتيَّ من المدرسة باكراً. وكنت أتحدث مع سيدة المرسيدس. ذهبنا إلى مقهى قريب، حيث تبادلنا الإشاعات كالعادة حول حالة الخضروات في سوق كينوكونيا، والبيض المخصب في مخزن طعام البيت الطبيعي، والتنزيلات الجيدة في محل ميكي. كانت السيدة من أنصار ملابس المصمم اينابا يوشيو قبل حلول الموسم طلبت كل الملابس التي تريدها بواسطة كاتالوج. تكلمنا أيضاً عن مطعم سمك الجريث الرائع قرب مركز الشرطة في أموتو ساندو، المقفل. استمتعنا بالحديث. كانت السيدة ودودة ومنفتحة أكثر مما بدت في الوهلة الأولى. لم أكن منجذبا لها جنسياً، لكني كنت بحاجة لشخص - أي شخص - أتكلم معه. كنت بحاجة إلى حديث غير مضرٍ وبلا معنى يفضي إلى أي مكان باستثناء شيماموتو.

عندما لا يكون عندي ما أفعله، اذهب للتسوق. اشتريت مرة في لحظة نزوة ستة قمصان، ولعب ودمى للبنتين ومساحيق زينة ليوكيكو. ذهبت إلى معرض سيارات BMW مرتين لمشاهدة M5، لم أخطط في الواقع لشراء واحدة، لكني تركت البائع يعرض أفضل ما عنده.

بضع أسابيع مثل هذه مرّت وعدت إلى التركيز ثانية. قررت أنني لن أصل إلى غاية هكذا. لذا، اتصلت بمصمم ديكور داخلي لمناقشة إعادة ديكور البارين، اللذين كانا بحاجة إلى إعادة ديكور على أي حال، كما أزف الوقت للتفكير بجدية كيف أدير العمل. البار، كما البشر، ثمة وقت لتركه في حاله ووقت لتغييره. حين تكون دوماً في الجو نفسه، تشعر بالضجر والبلادة. وينهار مستوى طاقتك. حتى القلاع في الهواء تحتاج إلى دهان جديد. بدأت بالبار الآخر وأبقيت «عش روبن» للفترة اللاحقة. شرعت بإزالة الأناقة المفرطة، التي عندما تتعمق فيها تجدها سيئة، كانت الفكرة: مكان فعال وعملي. كان نظامي الصوت والتبريد بحاجة إلى تغيير شامل أيضاً، وكذلك قائمة المشروبات، التي أعدت تنظيمها كلياً. أجريت مقابلات للموظفين وقدمت لائحة طويلة بمقترحات تحسينات. عرضت على المصمم رؤيتي لما ينبغي أن يكون عليه البار، وطلبت منه رسم مخطط فعاد إلى طاولة الرسم لدمج أشكال خطرت ببالي آنذاك. كررنا تلك العملية عدة مرات. اخترت كل المواد وطلبت من المقاول تقديم تقديراته، واعدت تعديل الميزانية. قضيت ثلاثة أسابيع من التجوال على محلات طوكيو بحثاً عن أعظم صيدلي صابون في العالم. شغلني كل ذلك، لكن هذا بالضبط ما أردت.

جاء مايو ومر، وحل يونيو، دون أثر لشيماموتو. كنت متأكداً أنها ذهبت إلى الأبد. كتبت «ربما لن أتمكن من القدوم هنا لفترة».

كانت «ربما «و «الفترة «والغموض الكامن فيهما ما جعلني أعاني. قد تأتي يوماً ما، لكن لن أجلس تاركاً آمالي وأحلامي قائمة على وعود مبهمة. فكرت، إذا بقيت هكذا سينتهي بي الأمر إلى أن أصبح معتوهاً أحمقاً، لذا ركزت على أن أبقى مشغولاً. بدأت بالذهاب إلى حوض السباحة كل صباح وأسبح ألفي متراً دون توقف، ثم أصعد إلى صالة الرياضة لرفع الأثقال في الطابق العلوي. أسبوع من هذا جعل عضلاتي تعلن العصيان. شعرت وأنا أنتظر مرة عند إشارة المرور بقدمي اليسرى مخدرة ولم أستطع رفع رجلي عن دواسة القابض. أخيراً، بدأت عضلاتي تتعود على التمرين. لم يترك الجهد الجسدي مكاناً للتفكير وساعدني بقاء جسمي دوماً في حركة على التركيز على أمور الحياة اليومية التافهة. أحلام اليقظة صارت ممنوعة. حاولت جهدي التركيز على ما أقوم به من عمل قدر الإمكان. عند غسل وجهي أفكر في ذلك، عند سماع الموسيقى، يصبح كلي موسيقى. كانت تلك الطريقة الوحيد: لي للبقاء.

في الصيف كنت ويوكيكو نصحب البنتين إلى كوخنا في هاكوني. بعيداً عن طوكيو، في الريف، تشعر يوكيكو والبنتان بالسعادة والراحة، يلتقطون الزهور ويراقبون الطيور بالمناظير المقربة، يلعبون شد الحبل ويتراشقون الماء في النهر. غير ذلك كانوا يستلقون في الحديقة. لكنهم لم يعرفوا الحقيقة. لم يعرفوا أنه في يوم شتاء ثلجي، لو أن طائرتي لم تقلع، لكنت قد تخلصت منهم كلهم لأكون مع شيماموتو. عملي، عائلتي،

مالي - كل شيء دون أن أجفل. وإلى الآن ما زال فكري مع شيماموتو. الإحساس بضمها وتقبيل خدها لم يتركاني. لم أستطع التخلص من صورة شيماموتو من ذهني ووضع زوجتي مكانها. كما لن يكون بوسعي قط معرفة ما تفكر به شيماموتو. لا أحد يدري ما يدور بخلدي.

قررت قضاء ما تبقى من العطلة الصيفية في إعادة ديكور المحل. كانت يوكيكو والبنتان في هاكوني، وبقيت في طوكيو وحيداً للإشراف على العمل وإعطاء تعليمات الدقيقة الأخيرة. كنت أسبح في الحوض وأتمرن في صالة الألعاب. في عطلة نهاية الأسبوع أذهب إلى هاكوني لأسبح في حوض فندق فوجيا مع ابنتي ونتعشى معاً. وفي الليل أمارس الحب مع زوجتي.

كنت أدنو من منتصف العمر بسرعة، مع ذلك ليس عندي شحم زائد لأتكلم عنه، لا شعر خفيف، ولا حتى شعرة بيضاء واحدة. ساعد التمرين على إقصاء التدهور الجسدي بعيداً. كان شعاري، عش حياة جيدة التنظيم، لا تبالغ في فعل أي شيء وراقب طعامك. لم أعرف المرض ومعظم الناس تعتقد أني ما زلت في الثلاثين من عمري.

أحبت زوجتي لمس جسدي. كانت تلمس عضلات صدري ومعدتي وتلعب بعضوي وخصيتي. كانت يوكيكو أيضاً تذهب إلى صالة التمارين بانتظام، وإن لم ينقص ذلك من وزنها.

قالت متنهدة: «لابد أني أتقدم في السن. وزني ينقص لكن هذه الكتلة من الشحم ما زالت مكانها».

أخبرتها: «أحب جسدك كما هو، أنت جميلة في هذه الصورة- لا حاجة للحمية أو التمرين. لست سمينة». وهذه لم تكن كذبة. لقد أحببت حقاً نعومة جسدها بوزنها الزائد قليلاً، كما أحببت تدليك ظهرها.

قالت وهي تهز رأسها: «أنت لا تفهم شيئاً، تقول إنه جيد أن أكون على ما أنا عليه الآن، لكن البقاء هكذا يستهلك كل طاقة ممكنة».

ربما يقول شخص غريب إننا نعيش حياة مثالية. صحيح أني كنت متأكداً من ذلك في وقت ما. كنت متحمساً لعملي وأكسب كثيراً من المال. أملك شقة بأربع غرف نوم في أوياما، وكوخاً صغيراً في هاكوني، عربة BMW وجيب شيروكي. عائلتي سعيدة، أحب زوجتي وابنتيّ. ماذا يمكن للمرء طلب أكثر ذلك؟ على سبيل المثال، لو أن يوكيكو وابنتي سألنني ماذا يمكن أن يفعلن ليرضينني أكثر، ويشعرنني بحبهن أكثر، لما كان هناك ما يمكنني قوله. لم يكن بإمكاني تصور حياة أفضل.

لكن حيث إن شيماموتو توقفت عن زيارتي، تسمرت على سطح القمر عديم الهواء. إذا ذهبت إلى الأبد، لن يبق هناك من يمكنني البوح له بمشاعري الحقيقية. في الليالي التي يجافيني فيها النوم، أستلقي في الفراش، وأعيد التفكير مراراً

وتكراراً في ذلك المشهد الثلجي في مطار كوماتسو الثلجي. أستعيده بما يكفي وتبدأ الذكريات في الزوال، أو هكذا حسبت. كلما تذكرت، كلما أصبحت الذكريات أقوى. لمعت على لائحة موعد الرحلات كلمة «متأخرة»، وخارج النافذة كان الثلج يتساقط بكثافة. لم تكن الرؤيا تتجاوز الخمسين ياردة. على المقعد كانت شيماموتو تجلس ساكنة، متكومة على نفسها. معطفها النيلي الصوفي السميك والوشاح. جسمها بمزيج رائحة الدموع والحزن. كان بإمكاني شم تلك الرائحة. بجانبي في السرير، زوجتي راقدة تتنفس بهدوء، ولا تدري شيئاً. أغمضت عيني وهززت رأسي. إنها لا تعرف شيئاً.

موقف سيارات البولينج المهجور، الثلج الذائب في فمي ووضعه في فمها. شيماموتو في الطائرة بين ذراعي. عينيها المغمضتين، التنهد من شفتيها المنفرجتين قليلاً. جسدها الناعم والمرتخي. أرادتني آنذاك، كان قلبها مفتوحاً لي. مع ذلك سيطرت على نفسي، عائداً إلى سطح القمر ومربوطاً في هذا العالم عديم الحياة. في النهاية تركتني وأمست حياتي خاوية مرة أخرى.

أحياناً، أستيقظ في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً ولا أقدر على النوم مرة أخرى. أغادر الفراش وأذهب إلى المطبخ وأسكب لنفسي كأس ويسكي. أنظر إلى أسفل، والكأس في يدي، أنظر إلى المقبرة المظلمة عبر الشارع وأضواء العربات القوية على الطريق. لحظات زمن ربط الليل بالنهار كانت طويلة ومعتمة. لو كان بمقدوري البكاء، لكان الأمر أيسر. لكن على

ماذا سأبكي؟ على من سأبكي؟ كنت مستقلاً لدرجة لا تسمح لي بالبكاء بسبب الآخرين، وأكبر من أن أبكي على نفسي.

أخيراً حل الخريف. وعندما جاء، توصلت إلى نتيجة. ينبغي أن يحدث أمر ما: لا يمكنني العيش هكذا.

13

في صباح يوم بعد أن أوصلت ابنتيَّ إلى المدرسة، ذهبت إلى حوض السباحة سبحت كالعادة ألفي متر. تخيلت أني سمكة. مجرد سمكة ليست بحاجة للتفكير، ولا حتى أثناء السباحة. استحممت وارتديت قميصاً رياضياً وسروالاً قصيراً وبدأت في رفع الأثقال.

بعد ذلك انطلقت صوب الشقة المكونة من حجرة واحدة التي استخدمها كمكتب وبدأت في مراجعة الحسابات، وتحضير رواتب موظفي، والتفكير في إعادة الديكور في عش روبن في شهر فبراير/شباط القادم. في الواحدة عدت إلى البيت كالعادة وتناولت الغداء مع زوجتي.

قالت يوكيكو: «عزيزي، تلقيت مكالمة من والدي هذا الصباح. العمل كالعادة، قال إن هناك سهم شركة سيصعد إلى السقف، وينبغي أن نشتري منه قدر ما يمكن. قال، إنه ليس ارتفاع عادي، بل فائق».

«إذا كان سيربح بهذا القدر، ما كان عليه أن يتكلم، بل يحتفظ به لنفسه. أتساءل لماذا فعل ذلك».

«قال هذه طريقته الشخصية في شكرك. قال ستفهم ما

يعني. هل تفهم؟ سمح لنا بأخذ هذا النصيب، كما ترى. قال علينا أن نستثمر كل ما لدينا ولا نخشى، لأن هذا السهم جيد. إذا لم تسر الأمور كما يجب، سيتأكد من عدم خسارتنا».

وضعت الشوكة على طبق الباستا. «أي شيء آخر؟»

«حسناً، قال علينا التحرك بسرعة، لذا اتصلت بالبنك وطلبت منهم إغلاق حسابك وإرسال كل الأموال إلى السيد ناكاياما في مؤسسة الاستثمار، حتى يتمكن من شراء الأسهم. استطعت جمع قرابة ثمانية ملايين ين فقط. ربما كان عليَّ أن أشتري أكثر».

شربت بعض الماء وحاولت أن أجد الكلمات المناسبة.

«قبل أن تفعلي ذلك، لماذا لم تسأليني؟»

قالت بدهشة: «أسألك؟ لكنك دوماً تشتري الأسهم التي يوصي بها والدي. طلبت مني فعل ذلك عدة مرات، أليس كذلك؟ تطلب مني دوماً أن أشتري وأفعل ما أعتقد أنه صحيح. وهذا ما فعلته. قال والدي ليست هناك دقيقة للتأخر. كنت في حوض السباحة ولم أقدر على الاتصال بك. ما المشكلة؟»

قلت: «حسناً، لكن أريد منك أن تبيعي الأسهم».

«أبيعها؟» وأقفلت عينيها كما لو أن ضوءاً ساطعاً أغشى بصرها.

«بيعي كل الأسهم التي قمت بشرائها وأعيدي المبلغ في حساب توفيرنا».

«لكن إذا فعلت ذلك، علينا دفع رسوم التحويل».

قلت: «لا أكترث. بيعيها. لا أكترث حتى لو خسرنا. بيعي كل ما قمت بشرائه اليوم».

تنهدت يوكيكو: «ماذا حدث بينك وبين والدي؟ ماذا يجري؟»

لم أجب.

«ماذا حدث؟»

بدأت بقولي: «اسمعي يوكيكو. لقد سئمت كل ذلك. لا أريد جني مالٍ في البورصة. أريد كسب المال بالعمل بيديَّ هاتين. نجحت في عملي إلى الآن. لست بحاجة إلى المال، أليس كذلك؟»

«أعلم أنك تقوم بعمل جيد، ولم أتذمر يوماً. أنا ممتنة لك وتعلم كم أحترمك. لكن والدي يفعل ذلك لمساعدتنا، ألا ترى ذلك؟»

«أدرك ذلك. يوكيكو، هل تعرفين ما هو العمل الداخلي؟ هل تعلمين ما معنى أن يخبرك شخص إن هناك فرصة مئة بالمئة للربح؟»

«كلا»

قلت: «تسمى تلاعب بالأسهم. شخص من داخل شركة يتلاعب بالأسهم لجني ربح زائف، ثم يتقاسم الأرباح مع شركائه. هذه النقود تذهب إلى جيوب السياسيين أو ينتهي بها

الأمر إلى أن تصبح رشاوى مشتركة. هذه ليست مثل الأسهم التي كان والدك يطلب منا شراءها من قبل. ربما ستربح هذه الأسهم. هذه مجرد معلومات سارة، ليس إلا. وفي معظم الأحيان ترتفع الأسهم، لكن ليس دائماً. هذه المرة الأمر مختلف. هذه صفقة مريبة، ولا أريد أن يكون لي أي دخل فيها».

والشوكة في يدها، كانت يوكيكو شاردة في أفكارها.

«كيف يمكن لك أن تكون متأكداً أن هذا تلاعب بالأسهم؟»

قلت: «إذا أردت أن تعرفي حقاً اسألي والدك. لكن بإمكاني إخبارك أن الأسهم التي يتم تأكيد أنها لن تنخفض يمكن أن تكون نتيجة صفقات غير قانونية فقط. عمل والدي في البورصة أربعين سنة، عمل بجدٍ من الصباح حتى الليل. لكن كل ما تركه كان بيتاً صغيراً تافهاً. ربما لم يكن جيداً في ذلك. كانت أمي تنكب كل ليلة على دفاتر الحسابات وتقلق على مئة أو مئتين ين تظهر خللاً في الميزانية. هذه هي العائلة التي نشأت فيها. قلت إنك جمعت ثمانية ملايين ين فقط. يوكيكو، نحن نتكلم عن نقود حقيقية هنا، وليس نقود لعبة مونوبولي. معظم الناس يذهبون للعمل كل يوم ويحتشدون في القطارات، ويعملون أوقات إضافية يرهقون أنفسهم ولا يقدرون على جمع مثل هذا المبلغ طوال السنة. لم تكن هناك وسيلة لكسب ثمانية ملايين ين. لكن ربما يصعب عليك تصور مثل هذه الحياة!»

لزمت يوكيكو الصمت. عضت شفتها وحدقت في الطبق بتملٍ. لاحظت أن صوتي قد ارتفع، فخفضته.

«يمكنك القول ببهجة إن النقود التي استثمرناها يمكن أن تتضاعف خلال أسبوعين. ثمانية ملايين تصبح ستة عشر مليون ين. لكن هناك شيء غير صحيح في هذا النوع من التفكير». وجدت نفسي غارقاً في هذا النمط من التفكير ما جعلني أشعر بالفراغ.

نظرت يوكيكو إليَّ عبر المائدة. داومت على تناول الطعام، وشعرت بشيء يهتز في داخلي. هل كان ذلك قلق أم غضب؟ لم أعرف. كنت عديم الحيلة في مواجهة ذلك مهما كان.

قالت يوكيكو بهدوء وبعد فترة صمت طويلة: «آسفة، ما كان عليَّ أن أتدخل».

«لا بأس، لا ألومك، ولا ألوم أحداً».

«سأتصل بهم حالاً وأطلب بيع كل الأسهم. لا تغضب مني».

«لست غاضباً. »

صمتّ. داومتُ على تناول الطعام.

سألت يوكيكو: «هل هناك ما تود أن تقوله لي؟» إن كان هناك ما يزعجك، أخبرني، حتى لو صعب عليك الحديث عنه. إن كان هناك ما أستطيع القيام به، أخبرني. أنا مجرد امرأة عادية وأعرف أني ساذجة في كل المواضيع، بما في ذلك إدارة

الأعمال. لكن ليس بوسعي الوقوف مكتوفة الأيدي ورؤيتك غير سعيد. لا أريد رؤية تلك النظرة المؤلمة على وجهك. ما الذي لا تحبه في حياتنا؟ أخبرني».

هززت رأسي: «لا شكوى لدي، فأنا أحب عملي وأحبك. كل ما أقوله إنني أحياناً لا أستطيع مجاراة أسلوب والدك في عمل الأشياء. لا تسيئي فهمي، فأنا أحبه، وأعلم أنه يحاول مساعدتنا وأنا أقدر ذلك. لذا أنا لست غاضباً. كل ما في الأمر أني لم أعد أفهم من أنا، ولا أميز الصواب من الخطأ. وعليه أنا مرتبك، لكني لست غاضباً».

«من المؤكد أنك تبدو غاضباً».

تنهدت.

قالت: «وتتنهد طوال الوقت. على كلٍ، أكيد أن هناك شيئاً يزعجك. ذهنك على بعد مليون ميل».

«لا أعرف».

ثبتت عيني يوكيكو محدقة بي. قالت: «ثمة أمر يشغل فكرك. وليست لدي فكرة عما يكون. أتمنى لو أن هناك شيئاً باستطاعتي فعله للمساعدة».

ملكتني رغبة قوية للاعتراف بكل شيء. كم سيريحني ذلك! لا إخفاء أسرارٍ ولا حاجة للتظاهر أو الكذب. يوكيكو، اسمعي! هناك امرأة أخرى أحبها، واحدة لا يمكنني أن أنساها. أخفيت ذلك في محاولة لعدم هدم عالمنا، لكن ليس باستطاعتي فعل المزيد. في المرة القادمة التي ستأتي لا أكترث

لما سيحدث. سأمارس الحب معها، أفكر بها حين أمارس العادة السرية، وأفكر بها وأنا أمارس الحب معك، يوكيكو... لكن لم أقل شيئاً. قد لا يفيد الاعتراف في شيء. قد يجعلنا بؤساء فقط.

•

بعد الغداء عدت إلى مكتبي لمزاولة عملي. غير أن ذهني كان على بعد مليون ميل. شعرت بالتعاسة، إذ حاضبرت في يوكيكو هكذا. ما قلته كان صحيحاً، لكن الشخص الذي قال ذلك كان الشخص الخطأ. قد أكذب على يوكيكو وألعب من خلف ظهرها. كنت آخر شخص ينبغي عليه الاهتمام بالأخلاق. كانت يوكيكو تحاول جاهدة التفكير بسعادتي. كان ذلك واضحاً وينسجم مع شخصيتها. لكن ماذا عن حياتي؟ هل هناك أي انسجام، أي معتقدات للحديث عنها؟ شعرت بالانكماش وفقدان الإرادة كلياً للحركة.

وضعت قدمي على المكتب وقلم رصاص في يدي محدقاً بكسل من النافذة. يمكن رؤية حديقة من مكتبي. كان الجو جميلاً وهناك عدد من الآباء والأمهات مع أبنائهم، الذين يلعبون في حفرة رمل أو يتزلقون على المنزلقات، بينما الأمهات يراقبنهم ويتحدثن مع الأمهات الأخريات. ذكرتني رؤيتهم بابنتيَّ. أردت أن أراهنّ والسير في الشارع وأنا أحضن كلتاهما بذراعيّ مرة أخرى. أردت أن أحس بدف جسميهما، لكن التفكير بهما قادني بلا رحمة إلى ذكريات شيماموتو. ذكريات حية لشفتيها المنفرجتين قليلاً. استحث التفكير بهما

صورة شيماموتو، ولم أستطع التفكير بغير ذلك.

تركت مكتبي وسرت في الشارع الرئيسي في أوياما. ذهبت إلى المقهى الذي كنت أذهب مع شيماموتو إليه وتناولت فنجاناً من القهوة. قرأت كتاباً وعندما تعبت من القراءة فكرت بها ثانية. استعدت بعضاً من أحاديثنا، كيف تُخْرِجُ سيجارة سيليم من حقيبتها وتشعلها، كيف ترفع شعرها بعفوية إلى الخلف وكيف تدير رأسها قليلاً حين تبتسم. بعد برهة شعرت بالتعب لجلوسي هناك وحيداً فاتجهت إلى شيبيا. كنت أحب السير في شوارع المدينة والتحديق في العمارات والمحلات التجارية وأنا أحدّق في الناس جميعاً. أحببت الشعور بالحركة عبر المدينة سيراً على قدمي. الآن، أصبحت المدينة كئيبة فارغة. كانت العمارات تتهاوى، فقدت كل الأشجار لونها، وبدا جميع المارة مجردين من المشاعر والأحلام.

بحثت عن فيلم قليل الرواد ودخلت السينما لأشاهد الشاشة بتركيز؟ حين انتهى العرض، خرجت إلى شوارع المدينة المسائية، ذهبت إلى مطعم حدث وأن مررت به وتناولت فيه وجبة بسيطة. كانت المدينة مكتظة بالموظفين العائدين إلى بيوتهم. مثل الأفلام سريعة العرض كانت القطارات تأتي إلى المحطات وتبتلع حشداً بعد آخر. هناك بالضبط تذكرت فجأة أني رأيت شيماموتو قبل قرابة عشر سنوات في معطفها الأحمر ونظارتها الشمسية. كان يمكن لهذا أن يكون قبل مليون سنة. استعدت كل شيء. حشد نهاية السنة، طريقة سيرها، كل ركن التفت حوله، السماء الغائمة،

كيس المجمع التجاري الذي حملته، فنجان القهوة الذي لم تلمسه وأغاني عيد الميلاد. مرة أخرى عصف بي شعور بالندم لأني لم أناد عليها. كنت حراً آنذاك دون ارتباط، ولا أملك ما أخسره. كان يمكن أن أحضنها ومن الممكن أننا سرنا معاً. لا أهمية للوضع الذي كانت فيه، كان بإمكاننا أن نجد مخرجاً. غير أني فقدت هذه الفرصة إلى الأبد. رجل متوسط العمر قبض على ذراعي، وانسلت شيماموتو في عربة أجرة واختفت.

عدت في قطار المساء المحتشد. كان الجو قد بدأ يسوء وأنا أشاهد الفيلم، وغطت السماء السحب الكثيفة الماطرة. بدا أن المطر قد يهطل في أي لحظة. لم تكن معي مظلة وكنت أرتدي جاكيت بحار وجينز وملابس رياضية، إذ كنت قد خرجت في ذاك الصباح للذهاب إلى حوض السباحة. كان من المفروض أن أذهب إلى البيت لأبدل ملابسي وأرتدي طقماً كالعادة. لكني لم أشعر بفعل ذلك. قررت لا فرق، يمكن أن أتخلى عن ربطة العنق مرة - ولا ضرر من ذلك.

بحلول الساعة السابعة بدأ المطر في الهطول، مطر خفيف كرذاذ الخريف وبدا أنه سيستمرّ. كالعادة عرجت على البار الذي يعاد الديكور فيه أولاً لأرى كيف يجري العمل. بدا المكان كما تصورته، أكثر راحة وفعالية للعمل. كانت الإضاءة قد خففت وعززت الموسيقى جو المكان. صممت مطبخاً صغيراً منفصلاً، ووظفت رئيس طباخين محترفاً، ووضعت لائحة طعام جديدة من الأطباق البسيطة والخفيفة، من تلك النوعية غير المزخرفة والتي ليس فيها مواد مبالغ فيها، بل التي

لا يستطيع هاوٍ طهوها. قصدت بها أن تكون وجبات خفيفة مصاحبة للمشروبات، يسهل تناولها. كنا نغير القائمة مرة كل شهر بشكل كامل. لم يكن العثور على رئيس طهاة كالذي تصورته سهلاً. أخيراً وجدت واحداً وإن كلفني أكثر مما تخيلت. لكنه در دخلاً معتبراً وكنت راضياً عنه، وكذلك الزبائن.

قرابة التاسعة استعرت مظلة من البار واتجهت إلى عش روبن. في التاسعة والنصف حضرت شيماموتو. من الغريب أنها تأتي في الأمسيات الماطرة الهادئة.

14

كانت ترتدي فستاناً أبيض اللون وجاكيت أزرق نيلي واسع، يزيد دبوس زينة، على شكل سمكة، ياقته بهاءً. كان الفستان بسيط التصميم، دون أي نوع من الزينة، لكن وهي ترتديه يمكنك أن تقسم أنه أغلى فستان في العالم. كانت الشمس قد لوحت بشرتها أكثر من آخر مرة رايتها.

قلت: «حسبت أنك لن تأتين أبداً».

قالت ضاحكة: «كل مرة أراك تقول الشيء نفسه». كالعادة جلست بجانبي في البار ووضعت يديها على القاطع. «لكني كتبت لك ملاحظة مفادها أنني سأتغيب لفترة، أليس كذلك؟»

قلت: «فترة، كلمة لا يمكن قياس طولها. على الأقل من قبل شخص ينتظر».

قالت: «لكن هناك أوقات تكون فيها هذه الكلمة ضرورية. أوضاع تكون فيها هي الكلمة الوحيدة الممكنة للاستخدام».

«وربما هي كلمة وزنها غير محسوب».

قالت: «أنت محق». وأشرق وجهها بابتسامتها المعهودة،

نسمة لطيفة تهب من مكان بعيد. «أعتذر، لا أحاول أن أجد عذراً، لكن ليس بيدي حيلة. كانت تلك الكلمة الوحيدة التي بإمكاني استخدامها».

«لا حاجة للاعتذار. كما أخبرتك سابقاً، هذا بار وأنتِ زبونة. تأتين متى تحبين. أنا معتاد على ذلك، وأكلم نفسي فقط. لا تولي ذلك اهتماماً».

نادت على النادل وطلبت كوكتيلاً. نظرت إليَّ ملياً، كما لو تتفحصني. «ترتدي ملابس عادية على غير عادتك».

قلت: «ذهبت للسباحة هذا الصباح ولم أبدل ملابسي. لم يكن عندي الوقت الكافي. لكني أحب ذلك، أشعر أن هذا أنا الحقيقي».

«تبدو أصغر، لا أحد يمكن أن يعرف أنك في السابعة والثلاثين».

«وأنت لا تبدين كذلك».

«لكني لا أبدو في الثانية عشرة».

قلت: «يكفي! هذه مبالغة!»

وصل الكوكتيل وشربت رشفة. بلطف أغمضت عينيها كما لو كانت تصغي لصوت بعيد. وعيناها مغلقتين، كان بإمكاني رؤية الخط الصغير فوق جفنيها.

قالت: «هاجيمي، كنت أفكر في كوكتيل بارك. أردت حقاً شرب واحد، إذ ليس هناك مثله في أي مكان آخر هنا».

«هل ذهبت إلى مكان بعيد؟»

سألت: «لماذا تسأل ذلك؟»

أجبت: «ثمة شيء فيك، شيء ما، كما لو أنك ذهبت فترة إلى مكان بعيد».

نظرت إليَّ وهزت رأسها وقالت: «هاجيمي، لمدة طويلة، كنت.».. لكنها لزمت الصمت بعد ذلك، كما لو أنها تذكرت شيئاً. كان بإمكاني معرفة أنها تبحث في داخلها عن الكلمات المناسبة، التي لم تستطع أن تجدها. عضت شفتها، وابتسمت مرة أخرى. «إنني، آسفة. كان عليَّ الاتصال بك. لكن أردت أن أترك بعض الأمور على حالها. لنقل مكتومة. إما أن آتي إلى هنا أو لا. عندما أجيء، أجيء، وعندما لا أجيء... أكون في مكان آخر».

«ولا مكان وسط بينهما؟»

قالت: «لا مكان وسط. لماذا؟ لعدم وجود أشياء وسط هناك».

قلت: «في المكان الذي لا توجد فيه أشياء وسط، لا توجد أرض وسط».

«بالضبط».

«في المكان الذي لا توجد فيه كلاب، لا توجد بيوت كلاب، بعبارة أخرى».

قالت شيماموتو: «نعم، لا كلاب، ولا بيوت كلاب».

ونظرت إليَّ بطريقة هزلية «تتحلى بروح فكاهة غريبة، هل تعرف ذلك؟»

كما يفعلون كثيراً، كان الثلاثي الموسيقي يعزف «عشاق نجم عابر «للحظات جلس كلانا يصغي بصمت.

«هل يمكن أن أطرح عليك سؤالاً؟» قالت.

«قلت: «كلا »

سألت: «ما الذي يربطك بهذه الأغنية؟ كلما كنت هنا، يبدو أنهم يعزفون القطعة. هل هذا قانون في البار؟»

«كلا، يعلمون أني أحبها».

«إنها أغنية رائعة».

أومأت برأسي. قلت: «استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن أعرف كم هي محمّلة بالمعاني. إنها أعمق أكثر من كونها مجرد لحن موسيقي. تحتاج إلى موسيقيين من نوع خاص لأدائها على الشكل الصحيح. كتب ديوك ألينجتون وبيلي ستراهورن الأغنية منذ أمد بعيد. في سنة سبع وخمسين على ما أعتقد».

«عندما يقولون نجم عابر، ماذا يعنون؟»

كما تعلمين، يولد العشاق تحت نجم سيء الطالع. عشاق غير محظوظين. المقصود هنا روميو وجولييت. كتب ديوك ألينجتون وبيلي ستراهورن الأغنية لتقدم في مهرجان شكسبير في أونتاريو. في التسجيل الأصلي، كان سكسفون جوني هودجيز يمثل جولييت، وبول جونسليفز يمثل دور روميو

في سكسفون تينور».

قالت «عشاق يولدون تحت نجم سيء الطالع. يبدو أنها كتبت لنا».

«تعنين أننا عشاق؟»

«وهل تعني أننا ليس كذلك؟»

نظرت إليها، لم تعد مبتسمة. كان بمقدوري رؤية وميض باهت عميق في عينيها .

قلت: «سيدة شيماموتو، لا عرف شيئاً عنك. كلما نظرت في عينيك أرى ذلك. أكثر ما يمكنني قوله عنك هو كيف كنت في سن الثانية عشر. السيدة شيماموتو التي كانت تعيش في الحي وكانت في فصلي المدرسي. لكن ذلك كان قبل خمس وعشرين سنة. كانت رقصة التويست موجودة والناس تركب في الترام. لا وجود لأشرطة موسيقية، لا حشوات لوقف النزيف ولا قطارات سريعة ولا طعام حمية لعدم زيادة الوزن. أتكلم عن زمن بعيد. باستثناء ما عرفته سابقاً لا أعرف عنك شيئاً».

«هل هذا ما تراه في عيني؟ أنك لا تعرف شيئاً عني».

أجبت: «لا شيء مكتوب في عينيك. المكتوب مكتوب في عيني أنا وأرى انعكاسه في عينيك فقط».

قالت: «هاجيمي، أعرف أنه ينبغي أن أخبرك أكثر، لكن ليس باليد حيلة. لذا لا تتكلم أكثر حول ذلك من فضلك».

«لقد قلت لك، أنا أتكلم مع نفسي. لا تفكري في ذلك ثانية».

رفعت يدها إلى ياقتها ولمست دبوس السمكة. وأصغت بانتباه إلى الموسيقى. عندما انتهت صفقت ورشفت رشفة من شرابها. أخيراً، تنهدت والتفتت إليَّ. قالت: «ستة أشهر مدة طويلة. لكن من المرجح أنه سيكون بوسعي القدوم إلى هنا ربما لفترة».

قلت: «الكلمات السحرية القديمة».

«كلمات سحرية؟»

«ربما لفترة!»

ابتسمت ونظرت إليَّ. أخرجت سيجارة من حقيبتها الصغيرة وأشعلتها بولاعة.

قلت: «أحياناً حين أنظر إليك أشعر بأني أحدق بنجم بعيد. مبهر لكن الضوء آت من قبل عشرة آلاف سنة. ربما لم يعد النجم موجوداً. مع ذلك يبدو أحياناً أنه حقيقي أكثر من أي شيء آخر».

لم تقل شيماموتو شيئاً.

استمريت في الكلام: «أنت هنا. على الأقل تبدين كما لو أنك هنا. لكن ربما لست كذلك. ربما هذا ظلك فقط. أنت الحقيقية ربما في مكان آخر. أو لعلك اختفيت منذ أمد بعيد، بعيد. مددت يدي، لكنك اختفيت خلف سحابة من «ربما «كثيرة العدد هل تعتقدين أن بإمكاننا الاستمرار هكذا إلى الأبد؟»

أجابت: «من المحتمل، في الوقت الحالي».

قلت: «أرى أني لست الوحيد بروح فكاهة غريبة». وابتسمت.

إبتسمت هي أيضاً. توقف المطر، دون صوت ثمة فجوة في السحاب، وعبرت أول خطوط الشمس الساطعة - هذه النوعية من الابتسامة. خطوط صغيرة دافئة على زوايا عينيها، تحمل وعد شيء رائع.

قالت: «هاجيمي، جلبت لك هدية».

قدمت لي رزمة جميلة ملفوفة بشريط أحمر.

قلت وأنا أتلمس حجمها وشكلها: «تبدو مثل أسطوانة».

«إنها أسطوانة نات كينج كول. التي كنا نسمعها معاً. هل تذكر؟ أهديها لك».

«شكراً، لكن ألا تريدينها؟ من أجل ذكرى والدك؟»

عندي المزيد، هذه لك».

حدقت بالأسطوانة الملفوفة بشريط. قبل قليل كانت كل الأصوات حولي - صخب الناس في البار، موسيقى الثلاثي - كلها اضمحلت في البعيد، كما لو أن الجَزْرَ قد ذهب. ولم يبق سوى كلانا، هي وأنا. كل شيء كان وهماً، معجون ديكور مسرح. ما كان موجوداً، ما هو حقيقي، كلانا نحن الاثنين.

قلت: «سيدة شيماموتو، لم لا نذهب إلى مكان ما ونستمع لهذا الأسطوانة معاً؟»

قالت: «سيكون ذلك رائعاً».

«أملك كوخاً صغيراً في هاكوني. إنه فارغ الآن وهناك جهاز ستيريو. يمكننا الذهاب إلى هناك في هذا الوقت من الليل بالسيارة خلال ساعة ونصف».

نظرت إلى ساعتها ثم إليَّ «هل تود الذهاب الآن؟»

قلت «نعم».

أغمضت عينها قليلاً «لكنها الساعة العاشرة والنصف، إذا ذهبنا الآن إلى هاكوني، سيكون الوقت متأخراً. لا مانع لديك؟»

«كلا، لا مانع!»

نظرت إليَّ مرة أخرى، وأغمضت عينيها مدة عشر ثوان على الأقل. عندما فتحتهما ارتسم على وجهها تعبير مختلف تماماً، كما لو أنها رحلت بعيداً، تركت شيئاً هناك وعادت. «لا بأس «قالت «لنذهب».

تحدثت مع نائب المدير وطلبت منه الاهتمام بالبار أثناء غيابي، يغلق الصندوق، يرتب الإيصالات ويضع الغلّة في صندوق توفير البنك صبيحة اليوم التالي. ذهبت إلى شقتي أخرجت السيارة من المرآب، ثم اتصلت بزوجتي من كشك هاتف قريب وأخبرتها بذهابي إلى هاكوني.

قالت بدهشة: «في مثل هذه الساعة؟ لماذا عليك

الذهاب كل هذه الطريق إلى هاكوني في هذه الساعة؟»

قلت: «هناك شيء ينبغي عليَّ التفكير فيه».

«إذاً لن تعود الليلة؟»

«ربما لا».

«عزيزي، فكرت بما حدث وأنا آسفة حقاً. كنت على صواب. لقد تخلصت من كل الأسهم، لذا لم لا تأتي إلى البيت؟»

«يوكيكو أنا لست غاضباً منك. لست غاضباً إطلاقاً، إنس الموضوع، كل ما أريده بعض الوقت للتفكير. اسمحي لي بليلة فقط».

صمتت لبرهة. ثم قالت: «حسناً «بدت متعبة «اذهب إلى هاكوني، لكن توخ الحذر فالمطر يهطل».

«سأفعل».

قالت زوجتي: «هناك أشياء كثيرة لا أفهمها. أخبرني، هل أشكل عائقاً في طريقك؟»

أجبت: «بتاتاً، لا دخل لك بالأمر، المسألة متعلقة بي. لذا لا تقلقي، حسناً؟ كل ما أريده بعض الوقت للتفكير».

أقفلت السماعة وقدت السيارة إلى البار. كان بإمكاني ملاحظة أن يوكيكو كانت تفكر بحديثنا أثناء الغداء. كانت متعبة ومرتبكة، مما أحزنني. كان المطر ما زال ينهمر بقوة، اصطحبت شيماموتو إلى السيارة.

سألتها: «ألا تحتاجين لإجراء اتصال قبل أن نذهب؟»

هزت رأسها بصمت. وكما فعلت أثناء عودتنا من مطار هايندا، وضعت وجهها على الزجاج وحدقت بالخارج.

كانت حركة السير قليلة في الطريق إلى هاكوني. انحرفت عن طريق تومي الرئيسي في آتسوجي وانطلقت مباشرة إلى أوداوا. قدت بسرعة تتراوح بين ثمانين وتسعين ميلاً في الساعة. كان المطر يهطل بغزارة من وقت لآخر، لكني كنت أعرف كل منحنى وتلة في الطريق. في الطريق بالكاد تبادلنا كلمة.

وضعت شريط رباعية لموزارت بهدوء وحدقت بالطريق. كانت شيماموتو ضائعة في أفكارها وهي تنظر خارج النافذة. كانت تنظر إليَّ بين فينة وأخرى، فيجف حلقي. ابتلعت ريقي مرتين وأجبرت نفسي على الارتخاء.

قالت حين اقتربنا من كوزو: «هاجيمي، لا تستمع إلى موسيقى الجاز كثيراً خارج البار؟»

«كلا، موسيقى كلاسيكية معظم الوقت».

«لماذا؟»

«أظن لأن الجاز جزء من عملي. خارج البار، أحب الاستماع إلى شيء مختلف. أحياناً موسيقى روك أيضاً، لكن نادراً ما استمع للجاز».

«ما نوع الموسيقى التي تستمع إليها زوجتك؟»

«عادة ما أستمع إليه أنا . نادراً ما تستمع إلى أسطوانة بنفسها. لست متأكداً إذا كانت تعرف كيف تدير الجهاز».

مدت شيماموتو يدها إلى صندوق الأشرطة وأخرجت اثنان. أحدهما كان أغاني الأطفال الخاص بابنتي التي نغنيها معاً. «الكلب الشرطي «و «الزنبقة». يعتقد من تعبير وجهها وهي تحدق في الشريط وبصورة سنوبي على الغلاف أنها اكتشفت شيئاً من الفضاء الخارجي.

رمقتني بنظرتها ثانية وقالت: «هاجيمي، عندما أنظر إليك وأنت تقود السيارة أحياناً أود أن أمسك بالمقود وأجذبه بعنف. سيقتلنا ذلك، أليس كذلك؟»

«سنموت بالتأكيد، نحن نسير بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة».

«لا تحبذ الموت معي؟».

ضحكت: «ليس بوسعي التفكير بطريقة أكثر مسرة للموت. هذا سبب وجودنا هنا، أليس كذلك؟»

قالت: «لا تخش! لن أفعل شيئاً من هذا القبيل. الفكرة تخطر ببالي أحياناً».

كان ذلك في بداية أكتوبر، لكن الليل في هاكوني كان بارداً. وصلنا إلى الكوخ وأضأت النور وأشعلت مدفأة الغاز في حجرة المعيشة. جلبت زجاجة براندي وكأسين من فوق الرف. جلست بجانبها على الأريكة كما كنا نفعل قبل سنوات طويلة، وضعت أسطوانة نات كنج كول على الجهاز. كان ضوء المدفأة

الأحمر ينعكس على كأسينا. جلست شيماموتو وساقيها مطويان تحتها. أراحت يدها خلف الأريكة والأخرى في حجرها، كما في الأيام السالفة. أرادت أن تخفي ساقها ربما بحكم العادة . كان نات كنج كول يغني «جنوب الحدود «كم سنة مرت منذ أن سمعت هذا اللحن؟

قلت: «حين كنت صبياً وأستمع إلى هذه الأسطوانة، كنت أعجب بما يوجد جنوب الحدود».

قالت: «وأنا أيضاً. عندما كبرت وصار بإمكاني قراءة كلمات الأغنية، أصبت بخيبة أمل. إنها أغنية عن المكسيك. كنت أحسب دوماً أن هناك شيئاً عظيماً جنوب الحدود».

«ماذا، على سبيل المثال؟»

رفعت شيماموتو شعرها إلى الخلف بخفة وجمعته خلف رأسها. «لست متأكدة. شيء جميل وكبير وناعم».

أجبت: «شيء جميل وكبير وناعم. وهل يأكل؟»

ضحكت. بدت أسنانها قليلاً. «أشك في ذلك».

«ربما يمكن لمسه؟»

«ربما،»

«ربما ثانية».

قالت: «العالم مليء بربما».

مددت يدي ووضعتها فوق أناملها خلف الأريكة. لم أكن قد لمست جسدها منذ مدة طويلة، منذ رحلتنا إلى اشيكاوا.

وأصابعي تمس أصابعها برقة، نظرت إليَّ قليلاً ثم أطرقت للأسفل.

قالت: «جنوب الحدود، غرب الشمس».

«غرب الشمس؟»

«سمعت بمرض هستيريا سيبيريا؟»

«كلا،»

«قرأت ذلك في مكان ما من أمد بعيد. ربما في المدرسة الثانوية. لا أستطيع تذكر في أي كتاب قرأت ذلك. على كلٍ، يصيب الفلاحين في سيبيريا. حاول أن تتخيل التالي: أنت فلاح وتعيش وحيداً في تندرا سيبيريا. تحرث أرضك كل يوم، ولا ترى شيئاً على مدى البصر. إلى الشمال يوجد الأفق، وإلى الشرق الأفق، وإلى الجنوب والغرب مزيد من الشيء نفسه. كل صباح حين تشرق الشمس من الشرق، تذهب للعمل في حقلك. حين تصبح عمودية فوق رأسك تأخذ فترة راحة لتناول الغداء. عندما تغوص في الغرب، تذهب إلى البيت وتنام».

«ليس نمط حياة صاحب بار في أوياما».

ابتسمت ومالت برأسها قليلاً: «إنها دائرة تستمر سنة إثر أخرى».

«لكن في سيبيريا لا يعملون في الحقول في الشتاء».

قالت: «يستريحون في الشتاء. في الشتاء يبقون في البيت ويعملون داخل البيت. حين يأتي الربيع، يذهبون إلى الحقول

ثانية. تصور أنك هذا الفلاح».

قلت: «حسناً،»

«ثم في يوم ما يموت شيئاً في داخلك».

«ماذا تعنين؟»

هـزت رأسـهـا. «لا أدري. شـيء. يـوم إثـر يـوم تـراقـب الشمس تشرق من الشرق، تمر عبر السماء، ثم تغوص في الغرب، وأحياناً تنكسر فيك، وتموت. تلقي بمحراثك جانباً، ورأسك فارغ تماماً من الأفكار، تبدأ بالسير نحو الغرب. تسير نحو أرض تمتد غرب الشمس. كشخص مسكون، تسير يوماً بعد يوم، دون طعام أو شراب، حتى تنهار على الأرض وتموت. هذه هي هستيريا سيبيريا».

حاولت أن أستحضر صورة الفلاح السيبيري في ذهني مطروحاً ميتاً على الأرض.

سألتها: «لكن ماذا يوجد هناك غرب الشمس؟»

هزت رأسها ثانية: «لا أعرف، ربما لا شيء. أو ربما شيء ما. على كلٍ، مختلف عن جنوب الحدود».

حين بدأ نات كنج كول يغني «تظاهر «راحت شيماموتو كما كانت تفعل منذ زمن طويل تغني معه بصوت منخفض.

تظاهر أنك سعيد عندما تكون حزيناً

عمل ذلك ليس صعباً

قلت: «سيدة شيماموتو، بعد أن ذهبتِ فكرت فيك مدة

طويلة. كل يوم لمدة ستة أشهر من الصباح وحتى الليل. حاولت التوقف، لكني لم أستطع. وتوصلت إلى هذه النتيجة. لا يمكنني العيش دونك، ولا أريد أن أفقدك مرة أخرى. لا أريد أن أسمع مصطلح - لمدة قصيرة -أو ربما - مرة أخرى. تقولين لا يمكننا أن نتقابل لفترة ثم تختفين. ولا أحد يعلم متى ستعودين. قد لا تعودين أبداً، وقد أقضي بقية عمري دون أن أراك مرة أخرى. ليس بوسعي تحمل ذلك. ستكون الحياة عديمة المعنى».

نظرت شيماموتو إليَّ دون كلمة وهي تبتسم. ابتسامة هادئة لا يمكن لشيء لمسها، لا تكشف شيئاً لي مما وراءها. إزاء هذه الابتسامة شعرت كأن مشاعري على وشك الضياع في داخلي. للحظة فقدت مقدرتي على الاحتمال وفقدت إحساسي أين كنت. مع ذلك بعد لحظة عادت الكلمات لي.

أخبرتها: «أحبك، ولا شيء يمكن أن يبدل ذلك. هكذا مشاعر لا ينبغي قط أن أهملها. فقدتك مرات عديدة، وما كان عليَّ قط أن أتركك. لقد علمتني الشهور الأخيرة هذا. أحبك ولا أريد قط أن أتركك».

عندما انتهيتُ أقفَلَتْ عينيها. كانت النار في المدفأة تشتعل ونات كينج كول يغني أغنيته القديمة. فكرت أنه ينبغي قول المزيد، لكن لم أستطع التفكير في شيء.

بادرتني: «هاجيمي، هذا شيء مهم لذا اصغ بانتباه. كما أخبرتك من قبل، ليست هناك أرض وسط معي. إما أن تقبلني

كلي أو لا شيء. هكذا الأمر. إذا لم يكن عندك مانع أن نستمر كما نحن، لا أرى لماذا لا نستطيع فعل ذلك. لا أدري كم سنستطيع الاستمرار هكذا، لكن سأعمل كل ما بوسعي على أن يستمر. عندما أستطيع القدوم لرؤيتك، سأعمل. لكن حين لا أستطيع، معنى ذلك أنني لا أستطيع. لا أقدر على المجيء وقتما أشاء. ربما لن ترضى بهذا النظام، لكن إذا أردتني أن لا أذهب مرة أخرى، عليك قبولي كما أنا. كل شيء. كل ما أحمله معي، كل ما يتعلق بي. وسأقبلك كما أنت. هل تفهم ذلك؟ هل تفهم ما معنى ذلك؟»

قلت: «نعم».

«وما زلت تريد أن تبقى معي؟»

قلت: «لقد قررت سيدة شيماموتو. فكرت بذلك حين ذهبت، واتخذت قراري».

«لكن هاجيمي، لديك زوجة وطفلتين. وأنت تحبهم. تريد أن تفعل ما هو صحيح بالنسبة لهم».

«طبعاً أحبهم كثيراً. وأريد الاهتمام بهم. لكن هناك شيء مفقود. لدي عائلة وعمل ولا شكاوى أيضاً. يمكنك القول إنني سعيد. لكن عرفت منذ أن قابلتك أن هناك شيئاً مفقوداً. السؤال المهم هو ما هو هذا الشيء المفقود. شيء ناقص فيَّ وفي حياتي. وذلك الشيء الذي فيَّ جائع دوماً وعطشان. لا زوجتي ولا طفلتيّ يمكنهم سد هذا الفراغ. في العالم كله ليس هناك سوى شخص واحد يمكنه فعل ذلك.

أنت، والآن فقط حين يروى ذلك الظمأ، أدرك كم كنت فارغاً. وكيف كنت أجوع وأعطش طوال كل تلك السنوات. لا يمكنني العودة إلى ذلك العالم».

طوقتني شيماموتو بذراعيها وأراحت رأسها على كتفي. أحسست بنعومة جسدها، الذي اندفع نحوي بدفء وشدة.

«أحبك أيضاً، هاجيمي، أنت الوحيد الذي أحببته في حياتي. لا أظن أنك تدرك كم أحبك. لقد أحببتك منذ أن كنت في الثانية عشرة. كلما حضنني شخص آخر، كنت أفكر بك. هذا سبب عدم رغبتي في رؤيتك مرة أخرى. إذا رأيتك مرة، أعلم أنني لن أقوى على تحمل ذلك. لكن لم أستطع البقاء بعيدةً عنك. في البدء فكرت سأتأكد أن هذا أنت حقاً، ثم أعود إلى البيت. لكن ما إن رأيتك حتى صار لزاماً عليَّ الحديث معك». تركت رأسها على كتفي وأردفت «منذ كنت في الثانية عشر، أردت أن أحضنك. لم تعرف ذلك ، أليس كذلك؟»

أقرّيت: «كلا، لم أعرف».

«منذ أن كنت في الثانية عشر، أردت أن أحضنك عارياً. أظن أنك لا تعرف ذلك!»

حضنتها مقترباً منها أكثر وقبلتها. أغمضت عينيها دون حركة. دار لسانينا حول بعضهما بعضاً وكان بإمكاني الإحساس بنبض قلبها تحت نهديها. نبض عاطفي دافيء. أغمضت عيني ورحت أفكر بالدم الأحمر يجري في عروقها. لمست شعرها

الناعم وتنشقت شذاه. رحلت يداها خلف ظهري. انتهت الاسطوانة. غمرنا صوت المطر فقط، مرة أخرى. بعد برهة فتحت عينيها وهمست «هاجيمي، هل أنت متأكد أن هذا صحيح؟ هل أنت متأكد أنك تريد التخلص من كل شيء من أجلي؟»

أومأت برأسي: «نعم، لقد قررت».

«لكن لو لم تقابلني، لكنت الآن تعيش حياة هادئة، دون شكوك أو عدم رضا. ألا تعتقد ذلك؟»

قلت: «ربما، لكني قابلتك. ولا يمكننا إبطال ذلك. كما قلت لي مرة هناك ثمة أمور لا نستطيع إبطالها. لا يمكن السير إلى الأمام فقط. سيدة شيماموتو، لا أكترث إلى أين سينتهي بنا الأمر. كل ما أعرفه أني أريد الذهاب معك إلى هناك. وأبدأ ثانية».

قالت: «هاجيمي، هل يمكن أن تخلع ملابسك وتريني جسدك؟»

«تريدينني أن أخلع ملابسي؟»

«نعم، اخلع ملابسك أولاً، أريد أن أنظر إلى جسدك. ألا تريد ذلك؟»

«لا مانع عندي إذا أردت ذلك». قلت وخلعت ملابسي أمام المدفأة. خلعت جاكيت البحار وقميص البولو والجينز والجوارب والثياب الداخلية. طلبت مني شيماموتو الركوع على ركبتي على الأرض. كان عضوي قد تصلب، ما أحرجني قليلاً.

تحركت للخلف لتلقي نظرة أشمل على المشهد. كانت ما تزال ترتدي الجاكيت.

ضحكت وعلّقت: «يبدو أنني سأكون الوحيد العاري هنا».

قالت: «هذا جميل، هاجيمي «دنت مني وهزت عضوي في يدها وقبلتني على الشفاه. وضعت يدها على صدري ومصت حلمتيّ مدة طويلة وهي تلمس شعر عانتي. وضعت أذنها على صرتي ووضعت خصيتي في فمها. قبلت كل جسدي، حتى أخمص قدمي. كانت كما لو تدّخر الزمن، تربت عليه، تلمسه وتلعقه.

سألت: «ألن تخلعين ملابسك؟»

أجابت: «لاحقاً، أريد أن أستمتع بجسدك أولاً، لمسه ولعقه كما أريد. إذا خلعت ملابسي الآن، ستود لمسي، أليس كذلك؟ حتى لو طلبت منك عدم فعل ذلك، لن تستطيع أن تسيطر على نفسك».

«أنت محقة في ذلك».

«لا أريد أن يكون الأمر كذلك. لقد استغرقنا القدوم إلى هنا أمداً طويلاً وأريد أن تجري الأمور بشكل لطيف بطيء. أريد أن أنظر إليك، ألمسك بهاتين اليدين، وألعق جسدك بلساني. أريد أن أجرب كل شيء - ببطء. إذا لم أفعل، لا يمكنني الانتقال إلى المرحلة التالية. هاجيمي، إذا بدا ما أريده غريباً، لا تقلق، حسناً؟ يجب أن أفعل ذلك. لا تقل شيئاً دعني أقوم به فقط».

«لا مانع عندي. افعلي ما تريدين، لكن أشعر بالغرابة حين يُنظر إليَّ هكذا».

«لكنك ملكي، صحيح؟»

«نعم».

«لذا لا حاجة للشعور بالحرج، أليس كذلك؟»

قلت: «أعتقد أنك على حق. ينبغي أن أعتاد على ذلك».

«قليل من الصبر، لقد كان هذا حلمي منذ مدة طويلة».

«النظر إلى جسدي كان حلمك؟ لمس كل جسدي وأنت ترتدين ملابسك؟»

أجابت: «نعم. تخيلت جسدك منذ وقت طويل. كيف يبدو عضوك، وكم صلب هو وحجمه».

«كيف فكرت في ذلك؟»

سألت بشك: «أخبرتك أني أحبك. ما الخطأ في التفكير في جسد الرجل الذي أحب؟ هل فكرت في جسدي؟»

قلت: «نعم».

أراهن أنك فكرت بجسدي وأنت تمارس العادة السرية».

قلت: «نعم، في المدرسة الإعدادية والثانوية. ثم صححت: «في الواقع لم يكن ذلك ليس منذ وقت طويل».

سحبتها نحوي وقبلتها ببطء. انزلق لسانها بوهن في فمي. قلت: «أحبك، سيدة شيماموتو».

قالت: «هاجيمي، أحبك، ولا أحب سواك. هل يمكن أن أرى جسدك أكثر؟»

أجبت: «تفضلي».

لفت عضوي وخصيتي بقبضتها بلطف.

«قالت: «رائع. أود التهامه كله الآن».

«وماذا سأفعل عندها ؟»

قالت: «لكني أريد التهامه». تركت خصيتي في راحتها كما لو أنها تزنهما مدة طويلة، طويلة. وراحت تلعق عضوي ببطء وحذر.

نظرت إليَّ: «في المرة الأولى هل يمكن أن أفعل ذلك بالطريقة التي أريدها؟ ستسمح لي بذلك؟».

قلت: «لا مانع عندي. افعلي ما تودين، باستثناء التهامي طبعاً».

«أنا محرجة قليلاً، لذا لا تقل شيئاً، حسناً؟»

وعدتها: «لن أفعل».

وأنا راكع على الأرض وضعت يدها اليسار على خصري. لم تخلع فستانها لكن باليد الأخرى خلعت جواربها وسروالها الداخلي، ثم أمسكت بيدها اليمنى بعضوي وخصيتيَّ ولعقتهما. انسلت يدها الأخرى تحت ثوبها. راحت تحرك يدها الأخرى بشكل دائري ببطء، وهي تلعق عضوي.

لم أنبس بكلمة، أعتقد أن هذه طريقتها. راقبت حركات

شفتيها ولسانها وحركة يدها البطيئة تحت ثوبها. فجأة تذكرت شيماموتو التي رأيتها في موقف عربات البولينغ وعند المنحدر متصلبة مثل ملاءة بيضاء. تذكرت جيداً ما رأيته عميقاً في عينيها. مساحة سوداء متجمدة مثل نهر جليد تحت الأرض. صمت عميق يمتص كل صوت، ولا يسمح له بالظهور على السطح. صمت شامل مطلق.

كانت المرة الأولى التي أواجه فيها الموت وجهاً لوجه، لذا لم تكن لدي صورة محددة لما عليه الموت حقاً. لكنه كان هناك أمام ناظري على بعد إنشات من وجهي. إذن هذا هو وجه الموت، فكرت. وكلمني الموت قائلاً إن ساعتي أيضاً ستحين يوماً. أخيراً، سيقع الجميع في هذه الأعماق الوحيدة اللامتناهية، مصدر كل عتمة، صمت يفتقر إلى الرنين. شعرت بالاختناق، رعب خانق وأنا أحدق في حفرة مظلمة بلا قرار.

في مواجهة هذه الأعماق السوداء المتجمدة، ناديت عليها، شيماموتو، كررت النداء مرة وأخرى، غير أن صوتي ضاع في عدم لا متناه. صرخت بكل قوتي، ولم يتغير شيء في أعماق عينيها. بقي تنفسها غريباً كدوي ريح عبر صدوع. أنبأني تنفسها المنتظم بأنها ما زالت في هذا الجانب من العالم. غير أن عينيها أخبرتاني أنها استسلمت للموت.

وأنا أنظر في عمق عينيها وأنادي على اسمها، سحب جسدي إلى هذه الأعماق. كما لو أن خواء امتص كل الهواء الذي حولي، والعالم الآخر يشدني إليه بثبات. حتى الآن يمكنني الإحساس بقوته، لقد أرادني.

أغمضت عينيَّ بشدة، ومسحت هذه الذكريات من ذهني.

مددت يدي ولمست شعري وأذني، أرحت رأسي على جبينها. كان جسدها دافئاً وناعماً. لعقت عضوي كما لو تريد امتصاص الحياة منه. يدها، تتواصل بلغة إشارة سرية، وهي تستمر في تحريك يدها بين ساقيها. بعد وقت قصير قذفت في فمها. توقفت يدها عن الحركة وأغمضت عينيها. ابتلعت كل سائل المني حتى القطرة الأخيرة.

قالت شيماموتو: «آسفة!»

قلت: «ليس هناك ما يستحق الأسف».

قالت: «المرة الأولى، أريدها على طريقتي، هذا محرج، لكني بحاجة له. طقس في مطارحة الغرام لنا نحن الاثنين، على ما أعتقد. هل تعلم ما أرمي إليه؟»

سحبتها نحوي وحككت خدي بخدها. كان خدها دافئاً. رفعت شعرها وقبلت أذنها، ثم نظرت في عينيها. كان بإمكاني رؤية انعكاس وجهي في عينيها. عميقاً في عينيها، في الأعماق التي دوماً بلا قرار كان هناك نبع، وفي أقصى البعيد ضوء، نور الحياة، فكرت. سيطفأ يوماً ما، لكنه هناك الآن. ابتسمت لي، الابتسامة الصغيرة المعتادة التي تتكون عند زوايا عينيها. قبلت الخطوط الصغيرة.

أخبرتني: «الآن دورك لتعريني، وتفعل ما تشاء».

قلت: «ربما لا أتحلى بمخيلة خصبة، لكنني أحب الطريقة المعهودة، هل هذا مناسب؟»

قالت: «نعم، وأنا أحب ذلك أيضاً».

خلعت ثوبها وحمالة صدرها، مددتها على الفراش وقبلت كل جسدها. نظرت إلى كل جزء منه ولمست وقبلت كل مكان. حاولت العثور على كل شيء وتخزينه في ذاكرتي. كان اكتشافاً ممتعاً. لقد استغرقنا الوصول إلى هذه النقطة وقتاً طويلاً، ومثلها كان آخر ما أريده أن أسرع. تماسكت طويلاً حتى لم يعد بإمكاني تحمل ذلك أكثر. ثم ببطء تسللت إلى جانبها.

نمنا قبل الفجر بقليل. لا أدري كم مرة مارسنا الحب، أحياناً بلطف وأحياناً أخرى بشهوانية. مرة في غمرة حبنا حين كنت في داخلها استحوذ عليها شيء فبكت بعنف وضربت ظهري بقبضتيها. وأنا حضنتها طوال الوقت بقوة. شعرت لو لم أفعل أنها ستطاير إرباً، أرباً. لمست ظهرها لتهدئتها. قبلت رقبتها وسرحت شعرها بأصابعي. لم تعد شيماموتو الوديعة المسيطرة على نفسها التي عرفتها. كانت الصلابة المتجمدة في داخلها تذوب قطعة، قطعة، وتطفو على السطح. كنت أشعر بتنفسها، دلالات بعيدة لوجودها. حضنتها أقرب وتركتها ترتجف تسيل داخلي. رويداً، رويداً هكذا كانت ستصبح ملكي.

قلت لها: «أريد أن أعرف كل شيء عنك. ما نمط الحياة التي تعيشينها وأين تسكنين. هل أنت متزوجة أم لا. كل شيء. لا مزيداً من الأسرار، لأني غير قادر على تحمل أكثر من ذلك».

قالت: «غداً، غداً سأخبرك كل شيء. لا تسأل حتى ذلك الوقت. ابق كما أنت اليوم، إذا أخبرتك الآن، لن تستطيع العودة إلى ما كنت عليه من قبل».

«أنا لست عائداً على أي حال. ومن يدري، غداً ربما لن يأتي أبداً. إذا لم يأت، لن أعرف قط».

قالت: «أتمنى أن لا يأتي الغد. عندها لن تعرف».

كنت على وشك الكلام، لكنها أسكتتني بقبلة.

قالت: «أتمنى أن يلتهم الغد صقر أصلع. هل من المعقول أن يقوم صقر أصلع بذلك؟»

«شيء معقول. الصقر الأصلع يلتهم الفن والغد أيضاً».

«والصقر العادي يأكل..».

قلت: « - أجساد ناس بلا أسماء. مختلف تماماً عن الصقور الصلعاء».

«الصقور الصلعاء تلتهم الفن والغد، إذن؟»

«صحيح».

«توليفة جيدة».

«وفي التحلية تأكل من الكتب التي تحت الطبع».

ضحكت شيماموتو وقالت: «على كلٍ، إلى الغد».

وجاء الغد. عندما استيقظت كنت وحدي والمطر قد توقف والشمس ساطعة، وضوء الصباح الشفاف يسطع عبر نافذة حجرة النوم. كانت الساعة تشير إلى ما بعد التاسعة. لم

تكن شيماموتو في الفراش، وإن كانت كآبة ضئيلة على الوسادة بجانبي توحي أين كانت. لم تكن في الجوار. غادرت الفراش وذهبت إلى حجرة المعيشة للبحث عنها. بحثت في المطبخ وحجرة الأطفال والحمام. لا شيء. كانت ملابسها غير موجودة وكذلك حذاؤها. أخذت نفساً عميقاً، في محاولة للرجوع إلى الواقع. لكن هذا الواقع لم يكن كشيء سبق وأن رأيته من قبل، واقع لم يبد أنه ملائم.

ارتديت ملابسي وخرجت، السيارة في مكانها حيث تركتها الليلة السابقة. ربما استيقظت باكراً وذهبت للسير. بحثت عنها حول البيت، ثم ركبت في السيارة وذهبت إلى أقرب بلدة. لكن لا شيماموتو. عدت إلى الكوخ، لكنها لم تكن هناك. فكرت أنها ربما تركت رسالة قصيرة، بحثت في البيت، لم أجد شيئاً. لا أثر على أنها كانت هنا.

بدونها كان البيت فارغاً موحشاً. الجو مليء بطبقة رملية من الغبار، تلتصق بالحنجرة مع كل شهيق تنفس. تذكرت الأسطوانة، أسطوانة نات كنج كول التي أهدتني إياها. لم أجدها رغم كل البحث. لابد أنها أخذتها معها.

مرة أخرى اختفت شيماموتو من حياتي. وإن كان هذه المرة دون بصيص أمل أتعلق به. لا «ربما «بعد اليوم، ولا «لفترة قصيرة».

5

عدت إلى طوكيو قبل الرابعة بقليل على أمل ضعيف أن تعود شيماموتو. مكثت في الكوخ في هاكوني حتى الظهيرة . الانتظار عذاب، لذا قضيت الوقت بتنظيف المطبخ وإعادة ترتيب الملابس في البيت. كان الصمت ثقيل الوطأة، وبدت الأصوات العادية للطيور والعربات غير طبيعية وعديمة التزامن. التوى كل صوت وتحطم تحت وطأة قوة لا يمكن لجمها. في غمرة ذلك، كنت في انتظار حدوث شيء ما. كنت متأكداً أن شيئاً لابد أن يحدث. لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا. غير أن شيئاً لم يحدث. حين تتخذ شيماموتو قراراً لا تتراجع عنه. توجب عليَّ العودة إلى طوكيو. بدا ذلك احتمالاً بعيداً، لكن إذا حاولت الاتصال بي، سيكون ذلك عن طريق البار. على كلٍ، لم يكن للبقاء في الكوخ معنى.

أرغمت نفسي في طريق العودة على التركيز. لم أر المنحنيات وكدت أعبر إشارات حمراء وأنحرف إلى طرق جانبية. حين وصلت إلى موقف السيارات في البار، اتصلت بالبيت من هاتف عام. أخبرت يوكيكو بعودتي وذهابي إلى العمل مباشرة.

«لقد أقلقتني. كان بإمكانك الاتصال على الأقل» بدا

صوتها قاسياً وجافاً .

قلت: «أنا بخير، لا تقلقي!» لم أدر كيف بدا صوتي لها. «ليس لدي وقت كاف، لذا سأذهب إلى المكتب لمراجعة الحسابات، ثم أذهب مباشرة إلى البار».

جلست في المكتب وراء مكتبي وبقيت هناك حتى المساء. راجعت مجريات أحداث ليلة الأمس. لابد أن شيماموتو استيقظت أثناء نومي. غادرت في الفجر دون أن تغمض جفناً. لا أدري كيف عادت إلى المدينة، فالطريق العام بعيد جداً ومن المستحيل في تلك الساعة من الصباح أن تجد حافلة أو عربة أجرة في التلال المحيطة بهاكوني. علاوة على ذلك، كان حذاؤها عالي الكعب.

لماذا كان على شيماموتو أن تتركني هكذا؟ عذبني السؤال طوال طريق عودتي إلى طوكيو. أخبرتها إني سأكون ملكها فقالت إنها ستكون ملكي. ومارسنا الحب بعد التخلي عن الدفاعات. مع ذلك تركتني وحيداً دون كلمة تفسير واحدة، وأخذت حتى الأسطوانة التي قالت إنها هدية. لابد أن هناك معنى أو منطق ما لتصرفها، لكن التفكير المنطقي تجاوز قدرتي. وقفت كل قطارات التفكير على خطوط جانبية. صار رأسي، بإجباري نفسي على التفكير، بليداً. أدركت مدى تعبي. جلست على السرير في مكتبي، اتكأت على الجدار وأغمضت عيني. ما أن أغمضت عينيّ حتى لم يعد بإمكاني فتحهما. كل ما كان بوسعي عمله هو التذكر. مثل شريط يدور بلا نهاية دارت ذكريات الأمس في الشريط مراراً وتكراراً. جسد

شيماموتو. جسدها العاري وهي مستلقية قرب المدفأة مغمضة العينين، وكل التفاصيل الأخرى - عنقها، صدرها، جنبيها، شعر عانتها، عضوها، ظهرها، خصرها، ساقيها. كانت كلها قريبة، في منتهى القرب، أصفى وأقرب مما لو أنها كانت حقيقية.

وحيداً في تلك الحجرة الصغيرة، تشتت فكري من هذه الخيالات المتصورة. هربت من البناية وهمت دون هدف. أخيراً ذهبت إلى البار وحلقت ذقني في حجرة المعاطف. لم أكن قد غسلت وجهي طوال اليوم، وكنت أرتدي ملابس الأمس نفسها. لم يقل الموظفون شيئاً وإن كنت أشعر أنهم ينظرون إليّ بغرابة. علمت أنّي لو ذهبت إلى البيت ووقفت أمام يوكيكو قد أعترف بأني أحب شيماموتو وبأني قضيت معها الليلة وكنت على وشك التخلص من كل شيء - بيتي وابنتيّ وعملي.

أدركت أنه ينبغي إبلاغ يوكيكو بكل شيء. لكنني لم أستطع، ليس آنذاك. لم تعد لدي القوة لأفرق بين الصواب والخطأ، أو أفهم ما حدث لي. لذا لم أذهب إلى البيت. ذهبت إلى البار وانتظرت قدوم شيماموتو رغم معرفتي التامة أن انتظاري كان بلا جدوى. أولاً سألت في البار الثاني إن كانت هناك، ثم انتظرت في عش روبن حتى أقفل المكان. تكلمت مع الزبائن المعتادين، لكن دون أن أحصل على إجابة شافية. كان فكري منهمكاً بجسد شيماموتو. كيف رحّب رحمها بي بلطف، وكيف لفظت اسمي. كان قلبي يخفق كلما رن الهاتف.

بقيت بعد أن أقفل البار وذهب الجميع إلى بيوتهم،

بقيت هناك أشرب وحدي. لم أثمل مهما شربت. في الواقع، كلما شربت أكثر، كلما ازداد صفاء ذهني. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً عندما عدت إلى البيت، لأجد يوكيكو مستيقظة في انتظاري. جلست في المطبخ أشرب الويسكي وحيداً وقد جافى النوم جفوني. جاءت ومعها كأسها وانضمت إليَّ.

قالت: «لنستمع إلى موسيقى «أخذت أقرب شريط ووضعته في الجهاز وخفضت الصوت كي لا أوقظ البنتين. جلسنا بصمت متقابلين وراء المائدة نشرب الويسكي.

قالت يوكيكو وهي ترمقني: «ربما لديك من تحبه!»

أومأت. كانت كلماتها ثقيلة ومقررة الحدود سلفاً. كم مرة راجعت هذه الكلمات في ذهنها وهي تحضر لهذه اللحظة؟

«وأنت تحب هذا الشخص حقاً! أنت لا تلهو فقط!»

قلت: «صحيح، ليست مجرد نزوة. لكن ليس الأمر كما تتخيلين».

سألت: «كيف تعرف ما أفكر به؟ هل تعتقد حقاً أنك تعرف كيف أفكر؟»

لم أقدر على الإجابة. صمتت يوكيكو أيضاً. كانت الموسيقى تعزف بهدوء، فيفالدي أو تيلمان. أحدهما. لم أستطع تذكر اللحن.

قالت: «أعتقد أن من المرجح أنك لا تعرف كيف أفكر». كانت تتكلم ببطء وتلفظ كل كلمة بوضوح، كما لو

كانت تشرح شيئاً للأطفال «لا أعتقد أن لديك فكرة!»

حين لاحظت أنني لن أجيب، رفعت كأسها وشربت، ثم هزت رأسها ببطء. «أتمنى أن تعلم أني لست غبية. أعيش معك، وأنام معك، ولقد عرفت من مدة أنك تحب شخصاً آخر».

نظرت إليها بصمت.

أردفت: «لا ألومك. إذا كان هناك شخص آخر ليس بوسع أحد فعل شيء حيال ذلك. أحب من تحب، فأنا لست كافية لك. أعلم ذلك. نحن منسجمان معاً وأنت تعتني بي جيداً. أنا سعيدة بالعيش معك. أعتقد أنك ما تزال تحبني، لكن لا يمكننا الهرب من حقيقية أنني لست كافية لك. علمت أن هذا سيحدث، لذا لا ألومك لحبك امرأة أخرى. لست غاضبة، ينبغي أن أكون غاضبة ، لكنني لست غاضبة، أشعر بالألم فقط. كثير من الألم. فكرت أن بإمكاني تصور كم سيؤلم ذلك، لكنني كنت مخطئة».

قلت: «آسف».

قالت: «ليس هناك ما يستدعي الأسف. إذا أردت أن تتركني، لا بأس. لن أقول شيئاً. هل تريد أن تتركني؟»

أجبت: «لا أعرف، هل يمكن أن أفسر ما حدث؟»

«تعني بينك وبين تلك المرأة؟»

قلت: «نعم».

هزت رأسها بشكل يبعث على الأسى. «لا أريد أن أسمع شيئاً عنها. لا تجعلني أعاني أكثر مما أنا فيه. لا أكترث لنوع العلاقة التي تربطكما أو أي خطط وضعتما معاً. لا أريد أن أسمع ذلك. ما أريد أن أعرفه، هل تريد أن تتركني أم لا؟ لا أحتاج للبيت أو النقود أو أي شيء. إذا أردت الطفلتين خذهما. أنا جادة. إذا أردت أن تتركني ما عليك إلا أن تقول الكلمة. هذا كل ما أريد معرفته. لا أريد سماع أي شيء آخر، مجرد نعم أو لا».

قلت: «لا أدري».

«تعني لا تدري إن كنت تريد تركي أم لا؟»

«كلا، لا أعرف إن كان بإمكاني تقديم إجابة».

«متى ستعرف؟»

هززت رأسي في إشارة لا جواب.

تنهدت: «حسناً إذن. خذ وقتك وفكر بالأمر. لا أكترث للانتظار. خذ ما تريد من الوقت».

صرت أنام بعد ذلك على الأريكة في حجرة المعيشة. أحياناً تستيقظ البنتان في منتصف الليل وتسألاني لماذا أنام هنا. أقول مفسراً إن شخيري مرتفع هذه الأيام وقررت أمهما أن ننام في حجرتين منفصلتين، وإلا لن تنام. كانت واحدة من البنتين تنسل أحياناً وتنام بجانبي على الأريكة، فأحضنها بقوة. أحياناً أسمع يوكيكو في حجرة النوم تبكي.

قضيت الأسبوعين التاليين في استعادة الذكريات. أتذكر

كل تفاصيل الليلة التي قضيتها مع شيماموتو، في محاولة لاستنباط بعض المعنى، والعثور على رسالة. أتذكر دفء جسدها بين ذراعي. ذراعاها الخارجان من أكمام ثوبها الأبيض. أغاني نات كينج كول. النار في المدفأة. تذكرت كل كلمة قلناها.

من بين تلك الكلمات، هذه بعض ما قالته: «ليست هناك أرض وسط معي، لا توجد أشياء وسط، في المكان الذي لا توجد فيه أشياء وسط لا توجد أرض وسط». وهذه كلماتي: «لقد قررت سيدة شيماموتو، فكرت بذلك حين ذهبت واتخذت قراري».

تذكرت عينيها وهي تنظر إليَّ في السيارة. تلك النظرة الحادة حرقت خدودي. كانت أكثر من مجرد نظرة. حامت رائحة الموت فوقها. كانت تخطط للموت وهذا سبب قدومها إلى هاكوني - لأن تموت معي.

«وسآخذك كلك. هل تفهم ذلك؟ هل تفهم معنى ذلك؟»

حين قالت ذلك أرادت شيماموتو الحياة، الآن فقط فهمت.

توصلت إلى استنتاج نهائي، وكذلك هي. لماذا كنت متعامياً على ذلك؟ بعد ليلة من ممارسة الحب، خططت الإمساك بمقود السيارة ونحن عائدين إلى طوكيو وقتل كلانا. لم يبق أي خيار آخر. لكن شيئاً أوقفها، وكتمت كل شيء في قلبها واختفت.

أي نهاية يائسة وصلت إليها؟ لماذا؟ وما هو أكثر أهمية من قادها إلى هذا اليأس؟ لماذا؟ كان الموت أخيراً المهرب الوحيد الممكن؟ كنت أحاول العثور على أدلة وأقوم بدور المحقق، لكنني عدت خاوي اليدين. اختفت مع أسرارها. لا «ربما «أو «لفترة قصيرة «هذه المرة انسلت بعيداً بصمت. أصبح جسدانا واحداً ومع ذلك في النهاية رفضت فتح قلبها لي.

«هاجيمي، الحقيقة المحزنة أن بعض الأشياء لا يمكن أن تعود كما كانت». قد تقول بلا ريب لي. في منتصف الليل وأنا مستلق على الأريكة يمكنني سماع صوتها يصدح بهذه الكلمات «كما قلت كم رائع سيكون لو ذهبنا إلى مكان ما. وبدأنا حياة جديدة. من سوء الحظ، لا يمكنني الخروج مما أنا فيه. هذا مستحيل». ثم أصبحت شيماموتو في السادسة عشر مرة أخرى، وتقف قدامي أمام عباد شمس في الحديقة وتبتسم لي بخجل. «ما كان عليَّ أن أقابلك ثانية، كنت أعلم ذلك منذ البداية. بإمكاني توقع أن الأمور ستمسي إلى ما هي عليه. لكن لم أستطع تحمل عدم المجيء. توجب عليَّ رؤيتك، وعندما فعلت، أجبرت على الحديث معك. هاجيمي - هكذا أنا. لم أخطط لذلك، لكن كل ما أتدخل فيه يؤول إلى خراب».

قد لا أراها ثانية إلا في الذكرى. كانت هنا الآن وذهبت. لا أرض وسط. «ربما «كلمة قد تجدها جنوب الحدود. لكن ليس قط وأبداً غرب الشمس.

كل يوم، أبحث في الصحف من أعلاها وحتى أسفلها بحثاً عن مقالات حول انتحار نساء. اكتشفت أن عديداً من

الناس يقتلون أنفسهم، لكن دوماً شخص آخر. حسب علمي، تلك المرأة الجميلة في السابعة والثلاثين صاحبة أجمل الابتسامات ما تزال على قيد الحياة. مع ذلك ذهبت بعيداً عني إلى الأبد.

على السطح كانت أيامي كالمعتاد. أصحب البنتين إلى ومن مدرسة الروضة. ثلاثتنا يغني أغاني ونحن في العربة. أحياناً، أرى المرأة الشابة صاحبة المرسيدس في العربات الواقفة أمام المدرسة، ونتكلم. الحديث معها يمكّنني من النسيان قليلاً. المواضيع التي نتحدث عنها محدودة كالعادة. نتبادل آخر أخبار حي أوياما، والطعام الطبيعي والملابس، كالعادة.

في العمل، أقوم بدورتي المعهودة. أرتدي طقمي وأذهب إلى البار كل ليلة، أتحدث قليلاً مع الزبائن الدائمين، استمع إلى آراء وشكاوى الموظفين. وأتذكر أشياء صغيرة مثل هدية عيد ميلاد أحد الموظفين. أدعو أي موسيقار صدف وأن جاء لتناول العشاء على حساب المحل، أفحص الكوكتيل لأتأكد أنه على المستوى المطلوب، والبيانو مُدَوْزَن جيداً، وأراقب السكارى المشاكسين- كنت أفعل كل ذلك. أحل كل المشاكل في لحظة. كل شيء سار كالساعة، لكن الإثارة ولت. فلا أحد أتوقع حضوره. على السطح كنت كسابق عهدي. في الواقع أكثر وداً ولطفاً وثرثرة من قبل. لكن وأنا جالس على مقعد البار المرتفع، لأراقب، بدا كل شيء رتيب دون رونق. لم تعد

هناك قلعة ملونة مشيدة بحرص في الأجواء، ما كان أمامي مجرد بار عادي صاخب- مصطنع، سطحي ورديء. مسرح معد بهدف تخلي السكارى عن نقودهم. أي وهم عكس ذلك اختفى كهبّة دخان. كل ذلك لأن شيماموتو لن تشرّف قط هذه الأمكنة مرة أخرى. لن تجلس ثانية على البار، ولن أرى ثانية ابتسامتها وهي تطلب الشراب.

لم يتغير روتين حياتي في البيت أيضاً. كنت أتناول العشاء مع العائلة وفي أيام الأحد نأخذ البنتين للسير أو إلى حديقة الحيوان. عاملتني يوكيكو على السطح كالعادة. كنا نتكلم عن كل الأمور مثل أصدقاء طفولة يعيشان تحت سقف واحد. ثمة كلمات لم يكن بمقدورنا تبادلها، وبعض الحقائق لم نعرفها. لكن لم تكن هناك عداوة خفية في الجو. لم نلمس بعضنا بعضاً. في الليل ينام كل منا في حجرة منفصلة - أنا على الأريكة ويوكيكو في حجرة النوم. في الخارج كان هذا هو الفرق الوحيد في حياتنا.

أحياناً لا أتحمل حقيقة أننا نمر عبر هذا ونتصرف وفق أدوار كتبت لنا. لقد فقدنا شيئاً حاسماً، مع ذلك استطعنا الاستمرار كما كنا من قبل. شعرت بفظاعة الأمر. كانت هذه الحياة الخاوية عديمة المعنى تؤلم يوكيكو بعمق. أردت أن أقدم إجابة على سؤالها، لكني لم أقدر. بالطبع لم أكن أود تركها، لكن من أنا لأقول ذلك؟ أنا - الرجل الذي كان يريد التخلص من عائلته. وحيث إن شيماموتو ذهبت دون رجعة لا يعني أن بإمكاني الوثب ثانية ببهجة إلى الحياة التي كنت

أعيشها وأتظاهر أن شيئاً لم يحدث. الحياة ليست بهذه السهولة، ولا أعتقد أنها يجب أن تكون كذلك. علاوة على ذلك، صورة شيماموتو ما تزال مُتعلّقة بي بوضوح وما تزال حية. كلما أغمض عيني، تطفو كل تفاصيل جسدها أمامي. تتذكر راحتيَّ الإحساس ببشرتها، وصوتها يهمس في أذني أنها لن تتركني. لم استطع ممارسة الحب مع يوكيكو وهذه الصور ما تزال عالقة بثبات في ذهني.

أردت أن أكون وحيداً، ولما كنت لا أعرف شيئاً آخر صرت أذهب للسباحة كل صباح في حوض السباحة، ثم إلى مكتبي وأحدق في السقف وأهيم في أحلام يقظة مع شيماموتو. كنت أعيش في فراغ وسؤال يوكيكو أمامي دون إجابة. لم يكن من الممكن أن أستمر هكذا إلى الأبد. هذا غير صحيح. ينبغي أن أتحمل مسؤولياتي كإنسان وزوج وأب، مع ذلك شعرت بشلل وكل هذه الأوهام تحيط بي. كان الوضع أسوأ حين يهطل المطر، لأنني أتعلق بوهم أن شيماموتو قد تأتي، تفتح الباب بهدوء وتجلب معها عبق المطر. كان بإمكاني تخيل الابتسامة على وجهها. حين أقول إن شيئاً ما غير صحيح، تهز رأسها بصمت وتبتسم. فقدت كلماتي قوتها، ومثل قطرات المطر الملتصقة بنافذة، فصلتني عن العيش مع الواقع. كان من الصعب عليَّ أن أتنفس في الليالي الماطرة. مزَجَ المطر الزمن بالواقع.

حين تتعبني أحلام اليقظة هذه، أحدق في المنظر الخارجي. كنت معزولاً في أرض جافة عديمة الحياة. امتصت

التخيلات اللون من العالم. انبسط كل شيء وأصبح كل مشهد أمامي مجرد بديل مؤقت. كل الأشياء كانت رملية وبلون الرمل. استحوذت عليَّ كلمات وداع صديقة قديمة في المدرسة. «ثمة طرق عديدة مختلفة للعيش، وعديد من الطرق المختلفة للموت، لكن في النهاية...لا يبقى سوى الصحراء» .

في الأسبوع التالي، كما لو كانت كامنة في الانتظار، داهمتني أحداث غريبة واحد بعد الآخر. في صبيحة يوم اثنين ودون سبب محدد تذكرت المغلف الذي فيه أوراق العشرة آلاف ين، فقررت البحث عنه. وضعته قبل سنوات في درج مكتب في مكتبي، درج مقفل، الثاني من الأعلى. حين انتقلت إلى مكتبي وضعت أشياء أخرى ثمينة مع المغلف في الدرج. كنت أحياناً أنظر إن كان ما زال هناك، ولم ألمسه قط. لكن المغلف اختفى الآن. كان ذلك حدثاً غريباً خارقاً، إذ لا أذكر أني أخذته من هناك. كنت متأكداً من ذلك، ولمزيد من التأكد فتحت الأدراج الأخرى وبحثت فيها كلها. لا مغلف.

حاولت أن أتذكر متى رأيته آخر مرة. لم أستطع تحديد تاريخ معين. لم يكن ذلك قبل وقت طويل، لكن ليس مؤخراً أيضاً. قبل شهر ربما شهرين أو ثلاثة على أكثر تعديل.

جلست مرتبكاً على مقعدي وحدقت في الدرج. ربما اقتحم شخص الحجرة وفتح الدرج وأخذ المغلف. لم يكن ذلك مرجحاً، ففي الدرج أموالاً أخرى وأشياء أثمن، لكنها لم

تمس. غير أن هذا كان محتملاً. أو ربما دون وعي وضعت المغلف في مكان آخر ولسبب ما مسحت الذكرى من ذهني. حسناً، قلت لنفسي، ما أهمية ذلك؟ كنت سأتخلص منه يوماً، والآن وفر عليَّ العناء، أليس كذلك؟

لكن حين أدركت أن المغلف قد اختفى، نقل وجوده وعدمه الأمكنة في وعي. هيمن عليَّ شعور غريب مثل الدوخة. نما في داخلي اعتقاد بأن المغلف لم يوجد قط في الواقع، ما أدى إلى تشتت ذهني بعنف، وحطم، ملتهماً بشراهة، اليقين بأن المغلف كان حقيقياً.

لما كانت الذكرى والأحاسيس غير مؤكدة ومنحرفة جداً، فإننا نعتمد دوماً على واقع معين- لندعوه واقع متعاقب - وذلك كي نثبت واقعية الأحداث. إلى أي مدى تبدو الحقائق التي ندركها مثل الواقع مثلاً كما هي، وإلى أي مدى هي حقائق لمجرد قولنا إنها كذلك، ذاك اختلاف يستحيل استنتاجه. لذا، كي يثبت الواقع على أنه واقع، نحتاج إلى واقع آخر يتناسب مع الأول. مع ذلك، يتطلب الواقع الآخر واقعاً مثالياً ليكون أرضية له. وبذلك تتكون سلسلة غير متناهية في وعينا. الحفاظ على هذه السلسلة هو ما ينتج الإحساس بأننا في الواقع هنا، وأننا موجودون بالفعل. لكن يمكن أن يحدث شيئاً لهذه السلسلة فنصبح ضائعين. ما هو واقعي؟ هل الواقع موجود في هذا الجزء من السلسلة المكسورة؟ أم أنه هناك في الجانب الآخر؟

كان ما شعرت به آنذاك هو ذلك الإحساس المقطوع.

أغلقت الدرج وقررت نسيان الأمر برمته. كان أجدر بي التخلص من النقود حين حصلت عليها، ومن الخطأ الاحتفاظ بها.

يوم الأربعاء من الأسبوع نفسه، وأنا أقود عربتي في جين هيجاشيدوري، لمحت امرأة تشبه شيماموتو. كانت ترتدي بنطالاً أزرق اللون ومعطفاً رمادياً وحذاءً رياضياً أبيض. كانت تجر ساقها أثناء السير. ما إن رأيتها حتى تجمد كل شيء حولي. خرجت كمية من الهواء من صدري إلى حنجرتي. فكرت شيماموتو. تجاوزتها لأتفحصها بالمرآة الخلفية، لكن وجهها كان مخفياً بين الحشود. ضغطت الكابح وسمعت بوق السيارة التي خلفي. طريقة انتصاب قامة المرأة وطول شعرها دلا على أنها شيماموتو. أردت أن أوقف السيارة في الحال، لكن كل مواقف العربات كانت ممتلئة. بعد ما يقارب مئتي متر وجدت أخيراً مكاناً تمكنت من إقحام سيارتي فيه. ركضت بعد ذلك لأبحث عنها، لكنها لم تكن في الجوار. ركضت في المكان كمخبول. كانت عرجاء الساق لذا لا يمكن أن تكون قد ذهبت بعيداً، قلت لنفسي. دفعت المارة جانباً وركضت عكس السير في الشوارع، ثم صعدت فوق ممر المشاة العلوي ناظراً إلى العابرين من فوق. ابتل قميصي بالعرق، مع ذلك شعرت بالارتياح بعد حين. كانت الأخرى تجر الساق، وساق شيماموتو لم تعد عرجاء.

هززت رأسي وتنهدت بعمق. لابد أنني لست على ما

يرام. شعرت بدوخة وخارت قواي. اتكأت على إشارة المارة ونظرت إلى قدمي برهة. تبدل الضوء من الأخضر إلى الأحمر، ومن الأحمر إلى الأخضر مرة أخرى. عبر المشاة الشارع، انتظروا وعبروا وأنا في مكاني دون حركة منهاراً على العمود لألتقط أنفاسي.

فجأة رفعت بصري فرأيت وجه أزومي. كانت في عربة أجرة توقفت أمامي. حدقت بي عبر النافذة الجانبية. توقفت العربة عند الإشارة الحمراء وثلاثة أمتار فقط تفصل وجهها عني. لم تعد تلك الفتاة التي عرفتها في السابعة عشرة، لكني عرفتها في الحال. الفتاة التي حضنتها بين ذراعي قبل عشرين سنة، وأول فتاة قبلتها. الفتاة التي في بعد ظهر خريفي منذ أمد بعيد خلعت كل ملابسها وفقدت حديد رباط جواربها. قد يتغير الناس في عشرين سنة لكني عرفتها. الأطفال يخافون منها. قال صديق قديم. عندما سمعت ذلك لم أفهم ما عنى. لم أستطع إدراك ما تحاول هذه الكلمات أن تحمله. لكن الآن، وأزومي أمام عيني، فهمت. لم يكن في وجهها ما يمكن أن تدعوه تعبيراً. كلا، هذه ليست طريقة دقيقة للتعبير عن ذلك. ينبغي أن أقوله هكذا: مثل حجرة أخرجت منها كل قطعة أثاث، وأزيل منها أي شيء يمكن أن تدعوه تعبير ولم يترك فيها شيئاً.

لم يكن هناك أثر لمشاعر في وجهها. كان وجهها مثل قعر محيط عميق، صامت وميت. بهذا الوجه عديم التعبير تماماً حدقت بي. على الأقل فكرت أنها تحدق بي. كانت عيناها مصوبتان نحوي، وإن كان وجهها لا يظهر شيئاً، أو

بالأحرى ما أظهره كان فراغاً مطلقاً.

وقفت هناك كمصعوق دون كلمة. بالكاد قادر على حمل جسمي وأتنفس ببطء. للحظة أو لحظتين تحطم إحساسي بذاتي، وذابت خطوطها الخارجية في فوضى عظيمة منسابة. دون وعي مددت يدي ولمست نافذة العربة، نقرت الزجاج برؤوس أصابعي. لا أدري لماذا. جفل اثنان من المارة، توقفا وحدقا بي، لكني لم أستطع مقاومة ذلك. لمست الوجه عديم الوجه ببطء عبر الزجاج. لم تحرك أزومي عضلة أو تطرف لها عين. هل ما تزال على قيد الحياة في عالم لا يومض. في عالم صامت خلف لوح زجاج، عاشت. تحدثت شفتاها دون حركة بأشياء لا متناهية عديمة المعنى. تغير الضوء أخيراً إلى الأخضر وتحركت العربة. لم يتبدل وجه أزومي حتى النهاية. تسمرت في مكاني أراقب حتى ابتلعت موجة السيارات السيارة.

عدت إلى سيارتي وجلست متراخياً في المقعد. كان عليَّ الخروج من هناك. حين كنت على وشك إدارة المحرك داهمتني موجة مفاجئة من الغثيان، كما لو كنت سأتقيأ أمعائي، لكن لم أفعل. مكثت وأنا واضعاً كلتا اليدين على مقود السيارة هناك خمس عشرة دقيقة. كان إبطاي ينضحان بالعرق وانبعثت من جسمي رائحة كريهة. هذا ليس الجسد الذي أحبته شيماموتو برقة، إنه جسد رجل متوسط العمر، تنبعث منه نتانة لاذعة.

بعد بضعة دقائق جاء شرطي ونقر على النافذة. أنزلت الزجاج، قال وهو ينظر داخل العربة: «لا يمكنك التوقف هنا سيدي، حرك سيارتك». هززت رأسي وأدرت المحرك.

سألني: «تبدو في حالة سيئة. هل أنت مريض؟» هززت رأسي بالإيجاب دون كلمة وانطلقت بالعربة.

لم أتعاف إلا بعد بضع ساعات. كنت تعباً منهك القوى كصدفة فارغة. صوت صدى خاوٍ يرتد في جسدي. أوقفت عربتي داخل مقبرة أوياما، ونظرت بكسل عبر الزجاج الأمامي إلى السماء البعيدة. كانت أزومي في انتظاري هناك. دوماً في انتظاري في مكان ما، في ركن شارع، خلف لوح زجاج تنتظر قدومي، تراقبني دون أن ألاحظ.

لم أقو على الكلام بعد ذلك عدة أيام. كنت أفتح فمي لأتحدث، لكن الكلمات لا تخرج، كما لو أن العدم المطلق الذي هو أزومي قد هيمن عليَّ.

بدأت صور شيماموتو بعد هذا اللقاء الغريب تخبو تدريجاً. عاد اللون إلى العالم ولم يعد للإحساس بأني أسير على وجه القمر وجوداً. تطل علي تغيرات تحدث لشخص آخر دون وضوح كما النظر عبر زجاج نافذة. كان بإمكاني اكتشاف تبدل قليل في الجاذبية وسلخ شيء تعلق بي بشكل تدريجي.

شيء في داخلي جُزّ واختفى بصمت إلى الأبد. ذهبت، حين كان الثلاثي الموسيقي في فترة راحة، تحدّثت إلى عازف البيانو وأخبرته أن لا حاجة بعد الآن لعزف «عشاق النجم

سيء الطالع». حاولت رسم أكثر ابتسامة ودودة بإمكاني وضعها على فمي «لقد عزفتها لي بما فيه الكفاية، وحان الوقت للتوقف».

نظر إليَّ كما لو يتبين شيئاً في تفكيري. كنا صديقين نشرب معاً وتجاوزنا مرحلة الحديث المؤدب المعتاد.

قال: «لا أفهم. تريدني أن أتخلى عن عزف المقطوعة الآن، أو لا تريدني عزفها قط بعد اليوم؟ هناك فرق شاسع، ينبغي أن أعرف؟»

قلت: «لا أريدك أن تعزفها قط».

«لا تحب طريقة عزفي لها؟»

«المشكلة ليست في عزفك. إنها عظيمة. قليلون بمقدورهم الاحساس بهذا اللحن مثلك».

«إذن اللحن ما لا تريد أن تسمعه بعد الآن؟»

أجبت: «يمكنك قول ذلك».

قال: «يبدو هذا لي مثل فيلم كازبلانكا!»

قلت: «أظن ذلك».

منذ ذلك الحين، كلما لمحني عازف البيانو، يشرع في عزف «والزمن يمر».

لا علاقة لذكريات شيماموتو في عدم رغبتي في سماع هذا اللحن. لم تعد الأغنية تعني لي ما كانت تعنيه. لماذا؟ لا يمكنني تفسير ذلك. الشيء الخاص الذي وجدته في هذه

الأغنية قديماً لم يعد موجوداً. ما زالت أغنية جميلة، لكنها فارغة، ولا رغبة لدي في التعلق بجثة أغنية جميلة.

سألتني يوكيكو وهي تدخل الحجرة: «بماذا تفكر؟»

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً. كنت مستلقياً على الأريكة وأحدق في السقف.

قلت: «كنت أفكر في صحراء».

سألت: «صحراء؟» جلست قرب قدميَّ ونظرت إليَّ «أي نوع من الصحراء؟»

«صحراء عادية بكثبان رمل وبعض الصبار، تعيش فيها أشياء عديدة».

سألت: «وهل أنا ضمن هذه الصحراء أيضاً؟»

قلت: «طبعاً، كلنا نعيش فيها. لكن في الواقع ما يعيش هو الصحراء نفسها. كما في الفيلم».

«أي فيلم؟»

«فيلم ديزني «الصحراء الحية «فيلم تسجيلي حول الصحراء. ألم تشاهديه عندما كنت صغيرة؟»

قالت: «كلا، حسبت أن ذلك غريباً. ذهب جميع طلاب مدرستي الابتدائية إلى السينما لمشاهدته. لكن يوكيكو كانت أصغر مني بخمس سنوات.

«لم لا نستأجره الأحد القادم ونشاهده معاً؟ إنه فيلم

جيد. المناظر جميلة وهناك كل أنواع الحيوانات والزهور. سيحبه الأطفال».

ابتسمت يوكيكو لي. لقد مر وقت طويل منذ أن رأيتها تبتسم.

سألت: «هل تريد أن تتركني؟»

قلت: «يوكيكو أنا أحبك».

«ربما تحبني، لكني أسألك إن كنت تريد أن تتركني. الجواب إما نعم أو لا. لن أقبل أي إجابة أخرى».

قلت: «لا أريد أن أتركك. «هززت رأسي «ربما لا أملك الحق لقول ذلك، لكني لا أريد أن أتركك. إذا تركتك الآن، لا أدري ما سيحل بي. لا أريد أن أكون وحيداً قط مرة أخرى. أفضل الموت على ذلك».

مدت يدها ووضعتها فوق صدري، نظرت عميقاً في عيني وقالت: «انس الحقوق. لا أعتقد أن أي شخص لديه مثل هذه الحقوق».

فكرت ودفء يدها على صدري، بالموت. كان يمكن أن أموت في ذلك اليوم في الطريق مع شيماموتو. لو حدث ذلك، لما كان جسدي موجوداً. كنت قد ذهبت وضُعْتُ إلى الأبد، مثل أشياء عديدة أخرى. لكني موجود هنا، وهذه يد يوكيكو الدافئة على صدري.

قلت: «يوكيكو، أحبك كثيراً. أحببتك منذ اليوم الأول الذي قابلتك فيه وما زلت. لو لم أقابلك لكانت حياتي غير

محمولة. لهذا أنا ممتن لك أكثر مما تستطيع الكلمات التعبير عنه. مع ذلك، هذا أنا أسبب لك الألم، لأني إنسان أناني عديم الجدوى والقيمة. دون سبب ظاهر، أتسبب في أذى من حولي وينتهي بي الأمر إلى أن أوذي نفسي. أدمر حياة شخص آخر وحياتي. ليس لأني أريد ذلك، لكن هكذا يؤول الأمر في النهاية».

قالت يوكيكو بهدوء: «لا نقاش في ذلك». بقيت آثار ابتسامة في زوايا فمها «أنت بلا ريب أناني وشخص ميئوس منه، نعم، لقد تسببت في جرح مشاعري».

نظرت إليها. ليس هناك ملامة في كلماتها. لم تكن غاضبة ولا حزينة. كانت بكل بساطة تفسر البديهي.

أخذت وقتي للعثور على الكلمات المناسبة. «أشعر دوماً كما لو أني أكافح لأصبح شخصاً آخر. كما لو كنت أبحث عن مكان جديد، أتمسك بحياة جديدة وشخصية جديدة. أظن أن هذا جزء من عملية النضوج، مع ذلك هي محاولة لإعادة تكوين نفسي. إذا أصبحت شخصاً مختلفاً، يمكنني تحرير نفسي من كل شيء، أعتقد جاداً أن بإمكاني الهرب من نفسي - إذا ما بذلت جهداً، لكني أصل دوماً إلى طريق مسدود، أينما ذهبت أبقى نفسي. ما هو مفقود لا يتغير قط. قد يتغير المنظر، لكني أبقى على حالي، الشخص القديم غير الكامل. العناصر المفقودة نفسها تعذبني بجوعٍ لا يمكنني إشباعه أبداً. أعتقد أن الافتقار أقرب ما يمكنني تعريف نفسي به. من أجلك أود أن أصبح شخصاً جديداً. لن يكون ذلك سهلاً، لكن إذا منحتها

كل ما عندي، ربما سأستطيع التغير. الحقيقة، مع ذلك أنني إذا وضعت في الموضع نفسه مرة أخرى، قد أقوم بالشيء نفسه ثانية. قد أتسبب في جرحك ثانية. لا أستطيع أن أَعِدَ بشيء. هذا ما عنيته عندما قلت لا أملك الحق. لا أملك ثقة لربح القوة الكامنة في داخلي».

«ودائماً تحاول الهرب من هذه القوة؟»

قلت: «أعتقد ذلك».

قالت ويدها ما تزال على صدري: «يا للرجل المسكين!»

كما لو كانت تقرأ بصوت مرتفع شيئاً كتب بخط عريض على حائط. فكرت ربما كان بالفعل مكتوباً على حائط.

قلت: «لا أدري ما أقول. أعلم أني لا أريد أن أتركك. لكن لا أدري إن كانت هذه هي الإجابة الصحيحة. لا أدري حتى إن كان هذا شيئاً أستطيع اختياره. يوكيكو أنت تعاني. يمكنني رؤية ذلك. يمكنني الشعور بيدك هنا، لكن هناك شيء وراء ذلك يمكن رؤيته والإحساس به. لندعوه مشاعر أو إمكانيات، ينبع من مكان ما ويختلط بداخلي. شيء لا يمكنني اختياره أو أستطيع تقديم إجابة عنه».

صمتت يوكيكو برهة، بينما كانت الشاحنات تمر في الخارج بين فينة وأخرى. نظرت إلى الخارج من النافذة، فلم أر شيئاً، مجرد الزمان والمكان عديما الاسم اللذان يربطان الليل بالفجر.

قالت يوكيكو: «في الأسابيع الأخيرة، فكرت حقاً بأني سأموت. لا أقول ذلك لأخيفك، هذه حقيقة. هكذا كنت وحيدة وحزينة، والموت ليس بهذه الصعوبة، إنه مثل هواء يمتص ببطء خارج حجرة، كانت الرغبة في العيش تنساب مني. حين ينتابك هذا الشعور، لا يصبح الموت أمراً جللاً. لم أفكر حتى في البنتين، وماذا سيحل بهما بعد موتي. هذه هي الوحدة التي شعرت بها. لم تعرف ذلك، أليس كذلك؟ لم تفكر بذلك بشكل جدي، أليس كذلك؟ بماذا كنت أشعر، بماذا أفكر، ماذا سأفعل؟ لم أقل شيئا». رفعت يدها عن صدري ووضعتها في حجرها. «على كلٍ، سبب عدم موتي وبقائي على قيد الحياة هو ظني بأنك إذا كنت ستعود لي، سأتمكن من استرجاعك. ليست المسألة مسألة حقوق، أو خطأ أو صواب. ربما أنت شخص ميئوس منه، بلا قيمة، وقد تؤذي مشاعري ثانية، لكن ليس هذا المهم هنا. أنت لا تفهم شيئاً».

قلت: «من المرجح أني لا أفهم».

قالت: «ولا تسأل عن شيء!»

فتحت فمي لأقول شيئاً، لكن الكلمات لم تخرج. كانت محقة. لم أسألها يوماً عن شيء. لماذا؟ لا أدري.

قالت يوكيكو: «الحقوق ما ستبني عليه منذ اليوم، أو بالأحرى ما سنبني عليه. فكرت قد نبني كثيراً معاً، لكن في الواقع لم نحقق شيئاً. مرت الحياة بسلاسة، كنا في غاية السعادة. ألا تعتقد ذلك؟»

أومأت برأسي.

جمعت يوكيكو يديها فوق صدرها، نظرت إليَّ وقالت: «كانت لدي أحلام أيضاً، كما تعلم. لكن أثناء الحياة اختفت، قتلتها قبل أن أقابلك.. حطمتها وألقيت بها بعيداً، كعضو لم تعد له حاجة، فتتخلص منه. لا أدري إن كان عمل ذلك صحيحاً، لكنه الشيء الوحيد الذي كان باستطاعتي فعله آنذاك... أحياناً أحلم بذلك. الحلم نفسه مراراً وتكراراً. شخص يحمل شيئاً في اليدين ويأتي إليَّ قائلاً: «لقد نسيت شيئاً «كنت سعيدة بالعيش معك. لم أحتج لشيء وليست لدي أي شكوى. مع ذلك، شيء يطاردني. أستيقظ في منتصف الليل وأنا أنضح بالعرق، يطاردني ما تخلصت منه. إذا اعتقدت أنك الوحيد المطارد، تكون مخطئاً. أنت لست الوحيد الذي تخلص من شيء ومن فقد شيئاً. هل تفهم ما أعني؟»

قلت: «أعتقد ذلك».

«ربما ستؤذي مشاعري مرة أخرى، لا أدري كيف سيكون رد فعلي، أو ربما في المرة القادمة سأجرح مشاعرك. ليس بوسع أحد أن يعد بشيء. لا أحد منا بإمكانه قطع وعد. لكن ما زلت أحبك».

حضنتها ومسست شعرها.

قلت: «يوكيكو، غداً لنبدأ ثانية. اليوم تأخر الوقت. أريد أن أبدأ بالطريقة الصحيحة في يوم جديد جداً».

نظرت يوكيكو إليَّ برهة: «أعتقد أنك لم تسألني شيئاً بعد».

سألت: «أريد أن أبدأ حياة جديدة غداً. ما رأيك؟»

قالت وابتسامة واهنة على شفتيها: «أعتقد أن هذه فكرة جيدة».

بعد أن ذهبت يوكيكو إلى حجرة النوم، استلقيت فترة على الأريكة أحدق في السقف. كان سقف شقة عادية، ليس شيئاً خاصاً، لكنني حدقت به بشكل أقرب. بين فينة وأخرى يسطع عليه ضوء عربة. لم تعد لدي أوهام. الشعور بصدر شيماموتو، صوتها عبق بشرتها كله خبا. مر وجه أزومي عديم التعبير في ذهني والشعور بشبّاك السيارة الفاصل بيننا. أغمضت عيني وفكرت في يوكيكو. فكرت طويلاً بما قالته، وعيني مغمضتان استمعت إلى الحركات في داخل جسدي. قد أكون في مرحلة تغير، وينبغي أن أتغير.

لا أدري إن كانت لدي القدرة بما يكفي للاعتناء بيوكيكو والبنتين. لا رؤيا يمكن أن تساعدني، تنسج أحلاماً خاصة لي فقط. على مدى البصر يوجد الفراغ ببساطة... فراغ. كنت أعيش في الفراغ من قبل وأجبرت نفسي على التأقلم. والآن، أخيراً انتهيت من حيث بدأت، وأفضل لي أن أتعوّد على ذلك. لا أحد سينسج أحلاماً لي - لقد حان دوري لن أنسج الأحلام للآخرين. هذا ما عليَّ فعله. ربما ليست لهذه الأحلام قوة، لكن إذا كان لحياتي أي معنى، هذا ما عليَّ فعله .

والفجر يدنو، تخليت عن محاولة النوم. ألقيت بشال فوق بيجامتي وسرت إلى المطبخ. حضّرت قهوة وجلست

أراقب السماء تضيء كل دقيقة. لقد مر وقت طويل منذ أن رأيت بزوغ الفجر. في أقصى السماء ظهر خط أزرق، ومثل حبر أزرق على ورقة انتشر ببطء في الأفق. إذا جمعت كل أطياف اللون الأزرق في العالم، واخترت أكثرها زرقة، خلاصة اللون الأزرق، لكان هذا اللون الذي ستختاره. وضعت كوعيّ على المنضدة ونظرت إلى المشهد وذهني خالٍ. حين أشرقت الشمس في الأفق، ابتلع ضوء الشمس العادي اللون الأزرق ذاك. طافت سحابة واحدة فوق المقبرة، سحابة ناصعة البياض محددة الحواف. سحابة تحفر في الذهن بحدة يمكن الكتابة عليها. لقد بدأ اليوم الجديد، لكن ما الذي سيجلبه هذا اليوم؟

لا أدري.

قد أصحب ابنتيّ إلى مدرسة الروضة وأذهب للسباحة، كما عادتي. تذكرت حوض السباحة الذي كنت أسبح فيه في المدرسة الإعدادية. رائحة المكان، طريقة رجع صدى الأصوات على السقف. كنت في غمرة أن أصبح شيئاً جديداً. في وقوفي أمام المرآة كان بإمكاني رؤية التغيرات في جسدي. في الليل، في السكون، أقسمت أن أسمع صوت نمو لحم جسدي. كنت على وشك ارتداء نفس جديدة، على وشك أن أخطو في مكان لم تطأه قدمي من قبل.

راقبت أثناء جلوسي السحابة الوحيدة فوق المقبرة. لم تتحرك السحابة بوصة. كان ثابتة مسمرة في مكانها. حان وقت استيقاظ البنتين. الفجر مر وعليهما النهوض. هما من كانتا

بأمس الحاجة لليوم الجديد أكثر من أي شخص آخر. سأذهب إلى حجرتهما وأرفع عنهما الغطاء. أضع يدي على جسميهما الدافئين لأعلن بداية يوم جديد. هذا ما ينبغي فعله. لكن لم أستطع النهوض من مكاني في المطبخ. فقدت كل قوى جسدي، كما لو أن شخصاً تسلل خلفي وسحب سلك الكهرباء من الحائط. غطيت وجهي براحتي وكوعي على المنضدة.

رأيت، داخل تلك العتمة، المطر ينهمر على البحر. مطر يهطل بنعومة على بحر شاسع، دون أن يكون هناك من يراه. ضرب المطر سطح البحر، مع ذلك لم يدر السمك حتى بهطوله.

إلى أن أتى شخص ووضع يداً بخفة على كتفي، كانت أفكاري تدور حول البحر.

هاروكي موراكامي

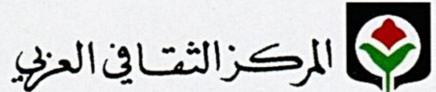
جنوب الحدود، غرب الشمس

يعدّ هاروكي موراكامي أشهر الروائيين اليابانيين المعاصرين، وتتصدر رواياته قوائم الروايات الأكثر مبيعاً، وتترجمها وتنشرها كبريات دور النشر في العالم.

يكتب هاروكي موراكامي بلغة حديثة وبسيطة، فيكشف حياة اليابان المعاصرة، ويقدّم روايات تدخل إلى مسام القارئ كالسم البطيء، إذ تبدو عادية جداً للوهلة الأولى، ثم سرعان ما تصبح علاقة القارئ بالرواية قويّة، فلا يستطيع تركها.

إنها حكايات تدور حولنا، تنتمي إلى العالم الذي نعيشه اليوم، فهي قريبة منا، كما لو أننا نعيش مع أبطالها، وتمتلك جاذبية الرواية والقص الممتع. تدخل في عالمها فلا تستطيع أن تتركها جانباً. تنتهي من قراءتها وتبقى حكاياتها عالقة في الذهن.





الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma cca_casa_bey@yahoo.com